FIFA WORLD CUP RUSSIA 2018

رواية

خوان خوسيه ميّاس

أحمق وميت وابن حرام وغير مرئي

ترجمها عن الإسبانية: أحمد عبد اللطيف

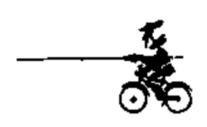


المتوسط

خوان خوسيه ميّاس

أحمق وميت وابن حرام وغير مرئي

ترجمها عن الإسبانية: أحمد عبد اللطيف



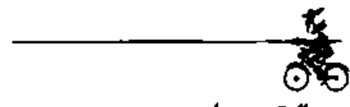
المتوسط



أحمق وميت
وابن حرام
وغير مرئي

المؤلف: خوان خوسيه ميّاس / المترجم: أحمد عبد اللطيف
عنوان الكتاب: أحمق وميت وابن حرام وغير مرئي
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
صورة المؤلف: **Elindependiente** / تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-59-8



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120 / 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

حين كلَّفتُهم بأن يصنعوا لي شاربًا مستعارًا من الشَّعْر الطبيعيّ يشبه شارب أبي، اعتقدتُ أن ذلك لا يعدو أن يكون محضَ تكريم ساخرًا لذكراه، وأنها طريقة لأُبرهن للحلّاق، أو لنفسي، أن بإمكاني أن أُغدِقَ بعطاياي، وأن أشير بإيماءات حمقاء، غير أنه اجتاحني، بمُجرّد أن صار الشارب بين يَدَيّ، حدس بأنها عملية تجميلية، ما سبّب لي بعض الضيق، هكذا أخرجتُهُ من علبته الكريهة، وخبّأتُه في خزينة سرّيّة صغيرة في أعماق خزانة غرفة النوم. الخزينة كانت أيضًا نتاج إيماءة حمقاء، ربّما لذلك لم ترتبط بها لاورا، ولا حتّى تعلّمتْ استخدامها. أما الطفل، فلم يكن يعرف شيئًا عن وجودها. كانت الخزينة، إذنْ، مُجرّد كوّة كاملة، لأدفن فيها تلك الحشوة التي لو عثرتُ عليها في مكان آخر قد أظنّها حيوانًا ميتًا، أو جنينًا لإنسان.

حدثَ ذلك في الشهور الأولى من الشتاء الماضي، بعد قليل من موت أَبَوَيّ في حريق، لم أتسبّب فيه، ومنذ ذلك الحين، ورغم أني لم أعد لتأمُّل الشارب، كنتُ أستسلم للَمْسه في مرّات، أضطرّ فيها لإدخال يدي في الخزينة، لأبحث عن ورقة ما. كان مَلْمَسه مُقلِقًا، لكنْ، بعد القشعريرة الأولى كان يتسرّب إليّ سلام غامض، نوع من السلام كنتُ أبحث عنه في ذاك الأحد من نهاية آذار في الغلامات التي تتجوّل، بضجيج قطار داخل نفق، بممرّات خوفي القاتمة.

في الجمعة السابقة، كان مدير شؤون المُوظّفين قد أخبرني، بإيماءة تضامن مُعدية، بأنهم مضطرّون للاستغناء عنّي في مقابل تعويض، يعادل راتبي لمدّة عام. كان من الممكن أن أرحّب ببدل البطالة، وأقاوم، في أسوأ الأحوال، مدّة عامَيْن. بالإضافة، كانت لاورا تعمل أيضًا طبيبة شرعية، ما كان يعني أن أثر البطالة بعيد قليلًا. لم يكن الأمر، إذنْ، إن تحدّثتُ بموضوعية، موقفًا يائسًا، غير أني، في داخلي، كنتُ غارقًا منذ تلك اللحظة في يأس، حاولتُ خلال نهاية الأسبوع أن أُداريه عن زوجتي وابني. وفي النهاية، أطلقتْ غدّة الخوف في مساء الأحد إفرازًا جديدًا، أثّر في الحال على قدرتي التّنفّسية، كان يبدو أن الهواء تكثّف أو استحال كتلًا. حينئذ لجأتُ إلى الحمّام الملتصق بغرفة النوم، واجتاحني الجُبن المؤجّل كلّه منذ وصول مجموعة يسارية ديمقراطية إلى المؤسّسة، بتكليف ببَيْعها أجزاء، جُبن تكوّن فجأة في الشعور بالمكان: كنتُ أنظر إلى الجدران، المرآة، المغطس المتواري وراء حاجز زجاجي، التواليت الإيطالي والـ (بيديه)، ولم يكن ذلك كلّه إلا الجدران والمرآة أو الـ (بيديه) والمرحاض التي قد شاهدها جبان آخر، في موقف يشبه موقفي.

غمضتُ عينَيّ حتّى لا أنظر، غير أن الظلام أعاد لي قلقًا، ترسله الأشياء حين يرتبط بها المرء من نقطة الخوف. وفي الدقائق التالية، فتحتُ وأغلقتُ الحنفيات عدّة مرّات، لأُصدر شعورًا بالحركة، وأنا على ثقة من أن الحنق سيتراجع عند بلوغه نقطة القمّة. في تلك اللحظة تذكّرتُ الشارب.

خرجتُ من الحمّام بحركات مقموعة، وتسلّلتُ إلى غرفة النوم وأنا أتنفّس هواءً مفتّتًا، وإن كان لا يزال مكثّفًا. لكنْ، بعد ذلك، عندما فُتِحت

الخزينة كَفَم، واستعدتُ الشارب، تخفّف التّوتّر أو تراجع إلى حدود أعضائي. على أيّ حال، بات مركز الصدر، هذه المنطقة شديدة الحساسية للألم، خاويًا تمامًا كغرفة خالية، يتجوّل فيها الهواء في صورته الغازية من دون الصعوبات السابقة.

حبستُ نَفْسي من جديد في الحمّام، ثمّ أزلتُ طبقة البلاستيك المحيطة بالشارب، وركّبْتُهُ على وجهي أمام المرآة. كان شاربًا عريضًا، أسود جدًا، يتساقط شَعْره لأسفل، فيحجب شَفَتيّ. وما إن انتهيتُ من لصقه حتّى انتقل صدري من حالة الغرفة الخالية إلى حالة ثقب محض بلا جدوى: بكلمات أخرى، غدا صدري لا واقعيًا، وهذا الثقب اللا واقعي المفتوح في منتصف جسدي يجعل لا واقعيًا كذلك الأذى الذي يسكنه.

جلستُ على المرحاض بالشارب على وجهي، وتأمّلتُ الصّبّانة النحاسية والمكمّلات الفخمة المعلّقة بها البشاكير - إيماءات أخرى حمقاء - بينما كانت عملية انسلاخ الواقع التي بدأت في الصدر تتّسع في دوائر مركزية باتّجاه البطن والكتفَيْن. وفي عدّة دقائق، لم يتبقّ في جسدي شيء واقعي إلا الشارب، المستعار. نهضتُ لأنظر في المرآة، وتأكّدتُ من أن الشَّعْر يداري، كستارة، تعبير شَفَتَيّ: أعتقد أن تاريخي الماضي والمستقبلي كلّه يتركّز في هذا الثقب، وإن داريتُه وراء شارب، لن يعرف أحد فيما أفكّر حين أنظر إليه، إذ العينان من دون حركة الشَّفَتَيْن تبدوان محايدَتَيْن، مثل عينَيّ أبي، حين كانتا تُعبّران عن القبول أو الرفض بالنظرة نفسها.

المرآة، في النهاية، أعادت لي وجهًا جذّابًا، إذ كان وجهًا خاليًا من أيّ نوايا. أنا شخص آخر، فكّرتُ وتأمّلتُ الحمّام كأني أراه للمرّة الأولى. كان

ثمّة قميص نوم لـ لاورا معلّقًا خلف الباب، شممتُهُ بعينَيْن مغمضَتَيْن. رائحتُهُ أخافتني، لكنه خوف مُعطِّل، خالٍ من الحنين، خوف في خدمة المتعة. كنتُ في حاجة إلى البحث عن لاورا، لكني لم أستطع أن أتقدّم للصالة بالشارب، وبالتالي خلعتُهُ بحذر، واحتملتُ بقَدَمَيْن ثابتَتَيْن، لأرى ماذا يحدث. لم يحدث شيء، بمعنى أن عملية انسلاخ الواقع لم تُستغَلّ.

خرجتُ من الحمّام، وبعد إعادة الشارب إلى الخزينة الصلبية، اتّجهتُ إلى الممرّ، وسرتُ فيه بساقَيْن لا واقعيَّتَيْن، محاكيًا حركات مَنْ يسير رغم إمكانية أن أطفو بالبيت مثل كتلة غازية. ببلوغ المطبخ، غدا جسدي، بالإضافة للا واقعيّته، كونيًا أيضًا.

وصلتُ إلى الصالة، حيث زوجتي وابني يشاهدان التلفزيون، واقتربتُ بوجهي الكوني من لاورا، وقلتُ:

تعالي.

نظرتْ إلى الطفل المعلّق في فيلم الكارتون، وارتابتْ:

ماذا حدث؟

هيّا، تعالي.

هذه المرّة، ومن دون أن تخرج من فمي، كان لكلماتي أصداء كواكب عتيقة. نهضتْ لاورا، وتبعتْني حتّى الممرّ، وعدتُ لمحاكاة حركة مَنْ يسير، بينما كانت أصابعي الكونية تقود جسدها ناحية عمق البيت. حينئذ هاجمتْ زوجَتي نوبةُ هلع، وأدارتْ وجهها ناحيتي.

ماذا تريد؛ يا خيسوس؟

أريني مؤخّرتكِ.

ماذا تقول؟

ارفعي التّنّورة، وأريني مؤخّرتكِ.

ابتسمتْ لاورا بتوتّر، وبدت لي ابتسامتها، في ظلام الممرّ، لمعات تظهر فجأة بين مياه بئر عميقة. كانت مُثارَة.

هيّا، ارفعيها- ألححتُ عليها بنبرة توسُّل كونية.

ظهرتْ أسنانها من خلف شَفَتَيْها، فأضاءتْهما، وكانتا، كما العينَيْن، عضوَيْن كونيَّيْن يمنحان لمعانًا من عمق السماء. وكان الممرّ، على جانب آخر، قد فَقَدَ مفاهيم الطول أو الاتّساع، كان على الأكثر مُجرّد تجويف بأبعاد غير مستوية، خالٍ من غلاف جوّيّ، ومن كلّ الخصائص إلا ما أمنحُهُ له بوجودي الكوني. ومُبحِرًا في هذا المحيط، كانت هي ترفع تنّورتها، لتستعرض مؤخّرتها للكون الذي استحلت إليه. لعبتُ في سروالها الدّاخليّ الأبيض- شكل آخر للمعان في الظلام السائد- رافعًا وخافضًا لحدود اللحم، لأحصد ثمرات وعصائر حدودية، كانت تصل لفمي الكوني، كأنها من المناطق الأكثر غرابة في الكون. وحدث الانفجار في عمق الممرّ على صدى التلفزيون، وتحوّل إلى ظاهرة في الغلاف الجوّيّ، إذ استحالت صرخاتها صخبًا كعاصفة. وانفجاري حدث داخل حدود لا نهائية لفضاء جسدي كان فيه الممرّ، بدلًا من أن يكون بالخارج، بداخل جسدي ذاته. في الواقع، في تلك اللحظة، لم يكن ثمّة شيء إلا داخل جسدي المُتخيَّل الذي نما كمجموعة من الكواكب انطلاقًا من مركز جاذبية، هو الشارب.

أتذكّر أنه في ليلة الأحد تلك، أُصيب دابيد، ابني، بالحمّى. عرفتُ

ذلك قبل زوجتي حين رافقتُهُ إلى السرير، غير أني لم أخبر لاورا. طلب منّي دابيد أن أحكي له حكاية، فألّفتُ له سريعًا حكاية عن طفل يُدعى أوليجاريو، يعيش مع أبَوَيْه وأخته الأصغر منه في قرية آمنة وسعيدة. صنع أوليجاريو لنفسه شاربًا مستعارًا في الخفاء، يشبه شارب أبيه الذي اعتاد اصطحابه في طريق المدرسة. هكذا، كلّما حدثتْ له مشكلة مع زملائه أو مدرّسيه، كان يختبئ وراء شجرة، ليضع شاربه، فيتعامل معه الجميع كأنه أبوه. حينها كان يتوجّه إلى المدرّس الذي ينوي معاقبته، ويقول له:

ابني لم يكتب الواجب بالأمس، لأنه كان محمومًا.

أو يقول للطفل الذي اعتدى عليه:

لو خطر ببالكَ أن تلمسَ ابني، سأقتلكَ.

بهذه الطريقة، جاءت لحظة لم يتجرّأ بعدها أحد على مضايقته، إذ إن أباه كان يظهر في لحظات مفاجئة.

في أثناء ذلك، مات أبو أوليجاريو جرّاء حادثة، فاضطرّ أوليجاريو، من أجل أمّه وأخته، أن يختبئ في حمّام البيت، ويضع الشارب. والمرأة، عند رؤيته في الممرّ، فكّرتْ أن زوجها قد عاد إلى الحياة، فكفّتْ عن البكاء. الحال أن أوليجاريو لم يستطع التّخلّي عن الشارب، ففكّرتا حينئذ أن الطفل قد خُطِفَ، فعاد الحزن من جديد، ليحيط بالأمّ والأخت. حينها تصنَّعَ أنه مُضطرّ لعشاء عمل الليلة، وظهر أمام المرأتَيْن من دون شارب، بمعنى، في شكل طفل. شرح لهما أنه عقد اتّفاقًا مع الموت حتّى لا تبقى إحداهما أرملة، والأخرى يتيمة: لقد بدّل، في النهاية، حياته بحياة الأب، لذلك فهو يختفي كلّما بُعث الآخر. وأضاف، ليمنحهما السكينة، أن الموت مكان

مضيء ورحب، تُثمر فيه الأشجار رغبات بدلًا من الفواكه. وبعد أن أقنع المرأتَيْن أنه على ما يرام، اختفى في الممرّ، وعاد في اليوم التالي بشارب.

سَكَتُّ عند هذه النقطة، متمنّيًا أن يكون دابيد قد نام، لكن الطفل فتح عينَيْه، وكانتا محمومتَيْن، وسأل ماذا حدث بعد ذلك. تأمّلتُ قليلًا من طيبة وضعي الكوني، وتأكّدتُ من أن الحكاية ستفتح احتمالية حادثتَي زنا محارِم، رغم حدوث واحدة فحسب، هكذا قرّرتُ مواصلة الحكاية. حكيتُ له أن بعد سنوات طويلة، حين ماتت الأمّ، عاد أوليجاريو إلى بيت مهجور على أطراف قرية، وخلع الشارب المستعار، ورجع إلى المدرسة، ليستعيدَ السنوات المفقودة. واختفى الرجل ذو الشارب، إذنْ، مُفاجِئًا الجميع، رغم أنهم في الحال توقّفوا عن الإشارة إلى غيابه، فلم يعد ذلك ضروريًا كما كان، لكن الظهور الموازي لغريب في بيت مهجور بالأطراف، لَفَتَ نَظَرَ الجميع. الحكاية أن إصرار هذا الغريب، رغم سنّه، على الذهاب إلى المدرسة، جعلهم يعاملونه كمُتخلّف عقليّ، وينتظرون منه أيَّ فعل غريب.

في أثناء ذلك، لم يكن زملاء المدرسة القدامى، الذين باتوا شبّانًا عدائيّين، يفعلون شيئًا غير مغازلة أخته التي كانت، لجمالها ولحُسْن طباعها، مَحَطًّ غَيْرة نساء الحيّ. لكنها كانت ترفضهم جميعًا بعناد، كأنها تنتظر شخصًا، اطّلعتْ على وصوله عبر ملاك.

من جانب آخر، كان المتخلّف عقليًا يراقب مِن وضعه المظلم مناورات زملائه القدامى لجَذْب أخته، كما كان يراقب، في الوقت نفسه، الرفضَ الأنيقَ الذي يواجهه هو في أثناء وجوده في المدرسة. وذات يوم، مضجرًا من تحمُّل هذا الذّلّ المزدوَج، بحث من جديد عن شارب قد خبّأه في كيس بلاستيكي، فوضعه، ودخل به القرية بإيماءة مَنْ يأتي من بلد بعيد.

كلّهم أصابهم الذهول من هذا الغريب الذي اجتاز الشوارع بثقة أمير، وراح مباشرة يطلب يد الفتاة التي حتّى تلك اللحظة كانت ترفض المتقدّمين كلهم لها. الشّابّة وافقت من دون أيّ ارتياب في هذا الرجل الجديد ذي الشارب، وبالتالي تزوّجا، وعاشا سعيدَيْن.

حادثتان لزنا محارم، فكّرتُ بينما كنتُ أحاول في ظلام الغرفة فَهْم ردّ فعل ابني. فتح دابيد عينَيْه، وسألني عن عنوان الحكاية.

عنوانها "أوليجاريو، الرجل ذو الشارب"- أجبتُهُ.

وهل اختفى الأحمق للأبد؟- سألني.

عن الأحمق سنتحدّث في يوم آخر- أضفتُ وأنا أغطّيه.

ملّستُ على جبينه، وتأكّدتُ من أن الحرارة لا تزال ترتفع، لكن ذلك لم يفضِ بي لأيّ حُكم، ولا لاتّخاذ أيّ قرار. وجالسًا على حافّة السرير، استسلمتُ، ليمتصّني ظلام الغرفة. ظلام يقطعه ضوء طفيف يتسلّل من الممرّ، وبدا لي فجأة أن أبعاد الغرفة لا يمكن الإحاطة بها، فرغم أن الحيطان ظلّت في مكانها، إلا أنها فقدت القدرة على مَدّ المكان بالاستقرار الهندسي.

مرّتْ نظراتي فوق كل شيء بغرفة دابيد، وتحقّقتُ من أنها تتنفّس بطريقة لا يمكن ملاحظتها، مع أنها شغوفة بعض الشيء، كأن لهذه الأشياء حياة قصيرة، وتخشى أن تُبذِّرها. لَفَتَ انتباهي حصّالة معدنية مقلوبة على المنضدة، وبرغم الظلام السائد، كان يمكن رؤية الفتحة التي تتنفّس منها، بل أكثر من الفتحة، حوافّها التي تُحدِّدها. تذكّرتُ فتحة الصّرّاف الآليّ المميّزة بحافّة شَفَتَيْها، هذا الفرْج الذي تخرج منه النقود.

رفع دابيد جفنَيْن، وعرفتُ أن نظرته كانت ستنتقل إليّ، مثل مرّات أخرى في مواقف شبيهة التقتْ فيها عيوننا – عيناي لترى إن كان قد نام، وعينا الطفل ليتأكّد من أني لا زلتُ هنا- متبادلَيْن رسالة احتياج لا إرادية. لكنْ، هذه المرّة كانت مختلفة: تسلّلتْ نظرته إلى كوني، وخرجتْ مرّة أخرى من دون أن تُخلِّف ضررًا وراءها. منذ غدوتُ كونيًا، مثل الجغرافيا والتاريخ، وهما أيضًا كونيان، الآن أتذكّر ذلك، تخلّيتُ تمامًا عن مسؤوليّتي في سَيْر العالم، ولم أعد مضطرًا إلى حمل هَمّ حمّى دابيد، ولا الانشغال بما يكمن وراء الفتحات مثل فتحة الحصّالة، ولا بقوانين العمل. ولا حتّى كنتُ مضطرًا إلى حذف مشاهد السِّفاح في القصص الموجّهة للأطفال. ومن وجهة نظر كونية، صرتُ أتمتّع بها، بدا ذلك كلّه تافهًا.

مع ذلك، عندما رنّ المنبّه في اليوم التالي، جلستُ وبداخلي نوبة قلق كامنة في مكان قلقي نفسه من أزمة العمل التي كانت تتنامى كما الوَرَم. كانت حمّى دابيد قد انطلقت في أثناء الليل، ولم يتوقّف الطفل عن الهذيان حتّى الفجر. اقترحتْ لاورا أن نُهاتفَ طبيبَ الطوارئ، لكني، ولم أفقدْ وجهة نظري الكونية للأشياء بعدُ، تمكّنتُ من تهدئتها. كلّ شيء على ما يرام. مع ذلك، حين بدأت الحمّى في التراجع، وغطّ الطفل، مُنهكًا، في نوم مستقرّ، كانت حَنْجَرَتي قد جفّتْ، وتشقّقتْ شفتاي، كأن الحمّى ترعرعتْ بداخلي. وبمُجرّد دخولي في السرير بعد أن نامتْ لاورا، سمعتُ صخبًا مُرعِبًا. كنتُ أحضنُها من الخلف كغريق متعلّق بلوح، وتمكّنتُ من السباحة بخيالي حتّى بلغتُ أرضِ الحُلم، ومن هناك، سمعتُ بكاء دابيد.

جلستُ مأخوذًا، وانتبهتُ إلى أن لاورا لم تستيقظْ. فرُحتُ أنا إلى غرفة الطفل، ووجدتُهُ نائمًا. كان تنفُّسه هادئًا، وبدأ يعرق من رأسه ورقبته، كاسرًا حرارة الحمّى الجافّة. عدتُ إلى غرفة النوم قلقًا، وما إن تعمّقتُ في النوم حتّى أيقظني بكاؤه مرّة أخرى. وعلى عكس عادتها، لم تستيقظْ لاورا أيضًا هذه المرّة. نهضتُ من جديد، وتأكّدتُ من أن دابيد لم يكن مَنْ يبكي. مع ذلك، سمعتُ نهنهة البكاء مرّة أخرى عند رجوعي إلى الغرفة، وفي ظلام الممرّ الطويل، لكني كنتُ مستيقظًا، وانتبهتُ بدهشة إلى أن منبع البكاء داخل صدري ذاته.

نمتُ ممتلئًا بهواجس، وظللتُ بعينَيْن مغمضَتَيْن حتّى رنّ المنبّه. كنتُ أتجوّل بلا قبلة محدّدة في هوات، تبدو فيها الأفكار والكوابيس مصنوعة من الموادّ نفسها. رغبتُ مئة مرّة في أن يحدث ذلك بالنهار، مثل الأطفال عندما يعانون من مخاوف ليلية، لكنه كان بالنهار بالفعل، ورغم أن الواقع اتّخذ أشكاله المألوفة، ظلّ الرعب في مكانه محفوظًا من دون لَمْس.

لحُسن الطالع، كانت لاورا لا تزال منكمشة بجانبي، تحت ملاءات تصف مؤخّرتها. حاولتُ استعادة استثارة ظهيرة الأمس، لكن ذلك بدا لي ذكرى لرجل آخر. في ذاك الصباح، كان الشيء الوحيد الذي يخصّني هو حمّى دابيد، ومشكلة العمل التي سأواجهها بمُجرّد وصولي إلى المكتب. تذكّرتُ حينئذ الشارب، وبعد أن أخرجتُهُ من الخزينة في الخفاء، اختبأتُ معه في الحمّام. ما إن وضعتُهُ فوق شَفَتَيّ حتّى تغيّر مزاجي بنفس سهولة تزلق لاعب تزحلق على الجليد من جانب لآخر. وفجأة فقدتْ حمّى دابيد أهمّيّتها- ربمّا كانت التهابًا في اللّوزتَيْن في أسوأ الأحوال-. أما العمل، فلو أني تصرّفتُ بذكاء، لتمكّنتُ من الحصول على تعويض لعامَيْن، بالإضافة إلى بدل البطالة، وهو مبلغ كنتُ سأضيفه إلى راتب لاورا التي تعمل طبيبة شرعية في الصّحّة العامّة. أدهشتْني قدرة القلق المُلِحَّة التي لا علاقة لها بالقدرات الكونية التي أسيطر عليها، أما ما بدا لي الآن منتميًا لرجل آخر، فهو ليس إلا ذكرى القلق.

لرجل آخر؟ ربمّا للأحمق الذي استحلتُ إليه حين اجتاحتْني تأثيرات الشارب، مثل أوليجاريو، شخصية الحكاية التي حكيتُها لـ دابيد. أدركتُ فجأة أن الخوف مِنْ فَقْدِ عملي كان، في الحقيقة، خوفًا من أن أتعرّى. فخلال العشرين عامًا الأخيرة كان العمل غطاءً لعجزي: كنتُ أقلّد تصرّفات

وإيماءات الناس الطبيعية، هكذا أصبحتُ مدير الموارد البشرية لشركة ورق متعدّدة الجنسيات، كانت الدولة المساهم الرئيس فيها (ورق حمّام، مناديل ورق، مناديل سفرة، مناديل مطبخ: مناديل في النهاية لتنظيف الفجوات والفتحات). مدير الموارد البشرية، الحقيقة أنها أفضل وظيفة يمكن أن يحصل عليها رجل ساذج. وماذا الآن، إن بقيتُ عاطلًا، إن فقدتُ أيضًا القدرة على المواراة، واكتشفوا أني، مثل أوليجاريو، متخلّف عقليًا؟ خلف منضدة المكتب المكسوّة بمفرش حريري من أموال الدولة، كان من السهولة جدًا التّصنّع؛ بالتالي كان الخوف من خسارة ذلك كلّه ربّما هو الخوف من سقوط القناع. لحُسن الطالع، اكتشفتُ تأثيرات الشارب في نفس وقت استبدال شيء بشيء.

كنتُ مُترَعًا بتفاؤل جسدي غير مُفسَّر، واستحممتُ بالشارب فوق فمي، ثمّ خبّأتُهُ في جيب روب الحمّام بمُجرّد خروجي من المغطس. ثمّ اقتربتُ من غرفة دابيد، ووضعتُ يدي فوق جبهته. كان قد شُفي من الحمّى، مثلما شفيتُ أنا من القلق، وكان يبدو مطمئنًا. كان الضوء المتسلّل من ثغرات الستائر يضع الأشياء في متناول نظرتي أسهل من الليلة الماضية. تأمّلتُها واحدة واحدة، وتحقّقتُ من أنها تتنفّس، رغم أنها تتنفّس سرًا، فلا يحدس بذلك إلا طفل أو بالغ كوني، مثلي.

أخذتُ الحصّالة المعدنية المقلوبة على المنضدة، وقرّبتُ الفتحةَ لوجهي، لأتشمّم رائحتها: رائحة نقود، رائحة تعويض، رائحة جنس. ثمّ ألقيتُ نظرة على كُتُب الحكايات والألعاب ومرتبة ابني المرسوم عليها رسومات طفولية، وشعرتُ ببهجة مريحة كَمَنْ عاد إلى بيته بعد غياب طويل: الطفل الذي كان يبكي بالليل في أعماق صدري كان لا يزال هناك،

لأنه أنا. حينئذ تأمّلتُ جسد دابيد، وبينما كنتُ أُقيِّم مزايا أن تكون ناضجًا وطفلاً، وفي الوقت نفسه ذكيًا وأبلهاً، استحضرتُ متع الحمّى الطفولية، انقباض العضلات، والانتقال من تجاهل الآخرين إلى الوقوع تحت عنايتهم.

عدتُ إلى غرفة النوم، ودسستُ يدي الطفولية من تحت الملاءة، بحثتُ بأصابع طفل عن فتحة لاورا التي، من دون أن تفتح عينَيْها، بدأتْ تُحرِّك ساقَيْها في الحال، كأن ما بين هيجان الظهيرة الماضية عندما أرتْني مؤخّرتها وبين الآن مُجرّد وقفة من أجل الهدنة. جمعتُ حماقة لمسات طفل وحكمة رجل ناضج، بحيث، في الحال، استحال جسدها، المخترق بيد أحمق، وبنظرة فاجر، كونًا أُبحر بكواكبه وأنا مُحمَّل بالحمّى والرغبة الكونية. بعد الانفجار الأوّل، لم تستطع لاورا تجنُّب العودة إلى فرديّتها البائسة والمذنبة، وسألتُ عن دابيد.

بخير، إنه مُجرّد التهاب في اللوزتَيْن. لن يذهب إلى المدرسة- قلتُ.

وبينما كنتُ أقول ذلك عرفتُ أني أنا مَنْ لن يعود أبدًا إلى المدرسة.

ذاك الصباح، حين عدتُ إلى المكتب، كان رجل أصغر منّي بعشر سنوات يجلس على مكتبي. أسرعتُ في مَدّ يدي لتحيّته، والمباركة له، بينما بيدي الأخرى كنتُ أتحسّس الشارب المختبئ في جيب البنطلون. ثمّ قعدتُ إلى كرسي الزيارات، وشبكتُ يَدَيّ في وضع المستسلم، كَمَنْ ينتظر الأوامر. كان لبديلي شاربٌ مبرومٌ لأعلى، في اتّجاه العينَيْن.

أنا أيضًا عندي شارب- قلتُ-، لكني لا ألبسه طوال الوقت، مفعوله يعمل لعدّة ساعات. إنه أكثر راحة من الشارب الدائم.

ابتسم بديلي قلقًا من أن يردّ بردّ غير مناسب. وفي النهاية قال:

معذرة، اعتقدتُ أن مدير شؤون المُوظّفين قد تحدّث معكَ. أظنّ أن وجودكَ هنا غير مناسب.

تأمّلتُهُ بطيبة قوانين الجاذبية نفسها وهي تتأمّل التطوّرات الجوّيّة لذبابة، وفجأة، بينما كنتُ أستعدّ لإسداء نصيحة، رأيتُ ضبابًا عبر النافذة. فخلصتُ إلى أنه يوم غامق.

الطقس سيّئ- قلتُ مدهوشًا، كأني لم أشهد أبدًا طقسًا سيّئًا حتّى تلك اللحظة: حتّى عبر الزجاج كنت أحدس رائحة العاصفة.

كنتُ بدهشة طفل أمام وعيه بالمطر، وبينما جزء منّي يراقب حركات المدير الجديد للموارد البشرية وهو في تلك اللحظة يرفع سمّاعة الهاتف، كان الجزء الآخر يتذكّر منظرًا قديمًا، كنتُ فيه أحمق: كنتُ بـ (شُورتٍ)، أقف بجانب سور مقشّر الطلاء، بالقرب من المخبز. حينئذ، كنتُ ألوي قَدَمَيّ للداخل، وأمدّ فكيّ للأمام، بحيث كانت الشفة السفلية تغطّي العلوية، بينما يثير لساني الغدد المفرزة للريق، لتُنتج سائلاً زائدًا، ينهمر على ذقني.

كانت بائعة الخبر بمفردها، فاقتربتُ من طاولتها طاردًا الكلمات من فمي، كأنها موادّ صلبة، تقاوم الخروج، وطلبتُ منها بريزتَينْ للكهرباء. نظرتْ إليّ المرأة بإيماءة، تتراوح بين التوبيخ والشفقة.

محلّ الأدوات الكهربائية عند المنحدر، بعد محلّ الخردوات الذي في واجهته ماكينة خياطة.

خرجتُ إلى الشارع، وتأكّدتُ عبر نظرات الآخرين أن جَرَّ قَدَمي اليمنى يُؤكّد تخلُّفي. بدأتْ تُمطر، وساح شَعْري على جبهتي. دخلتُ محلّ الأدوات الكهربائية، وطلبتُ رغيفَي خبز، بينما أفتح طريقًا لبصاق كوَّمتُهُ في فمي طوال الطريق. ترك البائع الطاولة، ووضع يده على كتفي بتأثّر.

انظر، يا ابني، هنا لا نبيع الخبز.

وساقني حتّى الباب، ليشاورَ لي إلى مكان المخبز، لكنه، في الحال، بدا نادمًا، وبإيماءة حازمة قال:

سأصطحبكَ.

وفيما كنّا نسير على الرصيف المكسور، تحت مطر غير معتاد، لاحظتُ

ضغط يده المتضامنة فوق كتفي، شعرتُ بها كإيماءة تضامن موجَّهة إلى ذاته. لم أكن أرغب في أن أفكّر ماذا يمكن أن يحدث حين ندخل المخبز، لكن أجهزة الإنذار كلّها في جسدي كانت تعمل، لتواجه تلك اللحظة. أخرج الرجل منديلاً، ونظّف لي ذقني.

تقضون اليوم بلعاب سائل.

تمزّق رأسي، وزيّف العبارة حتّى باتت مقطّعة في أربعة مقاطع: تقضون الـ/ يوم بلـ/ لعاب سا/ ئل.

وكانت هذه وصفة سِخرِيّة لمواجهة مواقف الخطر. ووصلنا إلى المخبز.

هذا الصبيّ المسكين يريد خبزًا- قال بائع الأدوات الكهربائية.

لقد طلب منّي بريزتَيْنْ- ردّتْ بائعة الخبز.

بلغ الضغط بداخلي حدًّ أن استقامتْ ساقاي استعدادًا للجري، غير أن ما سمّرني هناك كان شعورًا بالغربة يسري بداخلي، وفضولًا أن أعرف ماذا سيحدث. أضافت بائعة الخبز:

إنه في عمر ابنكَ.

لكن ابني لا يخرج- ردّ البائع-. هل يبدو لكِ من الحيّ؟

لا أعرف. أين تعيش، يا صبي؟

بصقتُ الكلمات مرّة أخرى كحجر:

احتجتُ إلى أن أعبرَ الشارع. انتبه إلى الترام. بريزتّان.

عندما لاحظتُ أني سيطرتُ على الموقف، جرّبتُ أن أعقّدها قليلاً:

بريرتان من البرائز الأمريكية، بسنّ مسطّح.

سحبتْ بائعة الخبز رغيفًا، ولفّته في ورقة جرائد.

خذْ، هيّا، خذ الرغيف، وعُدْ إلى البيت.

أخذتُ اللفّة وأنا أرسم ابتسامة فظّة، واصطحبني بائع الأدوات الكهربائية حتّى الشارع بيده فوق كتفي من جديد. كان المطر متجانسًا، رغم أنه ضعيف، بحيث اضطرّنا إلى المشي تحت الأفاريز.

أنتَ لستَ أحمقَ جدًا، وبالطبع، لن تأخذ منّي بريزة، خاصّة لو بريزة أمريكية.

بريرتان، بسنّ مسطّح، وأمريكيّتان- كرّرتُ له.

ولا بريرتان. انظر، هذا شارع الترام، اعبرِ الآن قبل أن يأتي القطار، واذهبْ إلى البيت مباشرة، لأنها تُمطر بشدّة.

عبرتُ الشارع بخطوات غير منتظمة، وعندما وصلتُ إلى الرصيف الآخر، التفتُّ، ورأيتُ بائع الأدوات الكهربائية محتميًا من المطر تحت الإفريز. قلتُ له مع السلامة بلفّة الخبز، ثمّ، كلّما ابتعدتُ ناحية البناية، حيث تنتظرني ضحكات الأصدقاء، وبالنعومة نفسها التي ينزلق بها متزحلق الجليد من جانب لآخر من ملعب الثلج، انزلق الطفل نحو الرجل الناضج، وعدتُ لأجد نفسي أمام رجل بشارب مبروم، يشغل منصبي بشركة الورق. بدا لي أنه ذو وجه مذنب.

هل استخدمتَ الهاتف؟- سألتُ بنبرة اتّهام.

ماذا؟

فجأة، جاءني وحيٌ: هذا الرجل أيضًا أحمق متخفّ. لسبب ما، تشغل إدارة الموارد البشرية مكانًا، يداري فيه الحمقى عاهاتِهم.

استخدمتَهُ، إذنْ؛ أنتَ لا حلّ لكَ.

ماذا ستفعل مع قسم الموارد البشرية، إن لم تكن قادرًا على تمييز رجل يشبهكَ ويقف أمامكَ؟

واحمرّ وجه الآخر، كأن سرّه المخزي قد انكشف.

ماذا تقصد؟- سأل.

أنك أحمق، لكنْ، لا تشغل بالكَ، فأنا أيضًا مثلكَ. سأحتفظ بالسّرّ.

انظر- قال بديلي بنبرة صوت مصالحة، تُستخدَم لكَسْب وقت-، أنا أتفهّم أنكَ متأثّر بالموقف، لكنْ، عليكَ أن تفهم أنها ليست مسألة شخصية بيننا نحن الاثنَيْن.

لا تعتبر ذلك سبّة، ربّما لا تعرف أنكَ أحمق، مثل مَنْ يجهل أن لديه حَسَنَة في ظهره حتّى يراها له آخر. أو لعلّكَ تعرف، لكنكَ نسيتَهُ، مثلي تمامًا.

حينئذ، وفيما كنتُ أتحدّث، تذكّرتُ أني تحقّقتُ من ذلك فجأة: ذات يوم انتبهتُ على غير توقُّع إلى أني أحبّ جدًا التّصنّع بالحماقة، وأني كنتُ أفعل ذلك بمهارة حتّى لا يكون محض تمثيل. لكنْ، كان أصدقائي يضحكون

لدرجة تُخيفهم، كما تُخيف خجلي، ربمّا لأنهم لم يكونوا متأكّدين من أن ذلك كلّه كان لمُجرّد الضحك، ولأني، نعم، كنتُ أعرف أنه لم يكن لمُجرّد الضحك. تذكّرتُ أن المرّة الأخيرة التي مثّلتُ فيها الحماقة كان تحت وابل من المطر، مثل الآن، وعند وصولي إلى البيت، بعد ضحكات أصدقائي، قرّرتُ أن أتحكّم في المستقبل في ميولي حتّى أُخفي حماقتي. ولسبب ما، كنتُ بدأتُ أنتبه إلى أنه نقيصة. حينها استحلّتُ مراقبًا فضوليًا: كنتُ أنظر وأتعلّم طوال الوقت من الآخرين. أكرّر الإيماءات وطُرُق الكلام حتّى بلغتُ أن تخرج منّي من تلقاء نفسها. لذلك نسيتُ مَنْ كنتُهُ، لأنه لم يكن صعبًا أن أمثّل مَنْ لم أكُنْهُ. وكان يجب أن يطردوني من شركة الورق حتّى أعود لأتذكّر.

لا بد أنكَ تعرف الكثير عن جهد أن تحاكي الآخرين: وجهكَ يقول إنكَ تعلّمتَ بصعوبة أين يُباع الخبز وأين تُباع البرائز.

فُتح باب المكتب، وظهر مدير شؤون المُوظّفين. كان رجلًا عريضًا، من سنّي نفسه، وكان يحرّك الهواء كلّما تحرّك. ربتَ على كتفي بحميمية.

معذرة، يا خيسوس، نسيتُ أن أقول لكَ يوم الجمعة إننا نحتاج إلى مكتبكَ بداية من اليوم. هذا هو ريكاردو نيجرو، أتمنّى أن يكون مجتهدًا مثلكَ.

بينما كان يتكلّم مدير شؤون المُوظّفين، وجّهتُ إلى السّيّد نيجرو نظرة تواطئ تقول أنتَ وأنا نعرف، ردّ عليها الآخر رغمًا عنه بأنه يعرف.

المسألة أنكَ لا تستطيع البقاء هنا، ولم يكن أمامي وقت لأبحث لكَ عن مكان حتّى تقرّر إن كنتَ قبلتَ ما اقترحناه عليكَ يوم الجمعة- واصل مدير شؤون المُوظّفين.

لا يهمّ- قال، سأنتظر عند الباب. هذا الفتى يحتاج إلى مساعدة. لا بد أنه يتخفّى منذ زمن، ويبدو عليه سريعًا أنه أحمق.

بعد أن تبادل مع الآخر نظرة تطلب منه أن يتفهّم حالتي النفسية، أخذني مدير شؤون المُوظّفين من ذراعي، وبحركات مقنعة سحبني إلى الممرّ، وساقني إلى صالة الاستراحة، حيث ثمّة كَنَبَة قديمة، وماكينتان للقهوة.

أنتَ مقنع جدًا، لكنْ، ألاحظ أنه ليس أمرًا فطريًا، إنما تعلّمتَهُ في أحد صفوف التأهيل المهني. أعرف ذلك، لأني كنتُ أنظّمها بنفسي، وهناك صفّ إقناع، سجّلتَ أنتَ فيه الشهر الماضي.

الآخر ابتسم ممتنًا بهذا التقدير، فيما يُدخل العملات في فتحة ماكينة القهوة.

فتحات- قلتُ.

نعم؟

كل شيء ممتلئ بالفتحات.

كيف تريد قهوتكَ؟

بدون حليب، وبدون سُكّر. لا أحبّها هكذا، لكني أشربها حتّى أُخفي حماقتي. كل الذين يشربون قهوة بدون حليب وبدون سُكّر يعطون انطباعًا بأنهم يمتلكون بداخلهم حقيقة لا تذوب.

تأمّلني مدير شؤون المُوظّفين وهو قلق قليلاً، وحين التقتْ نظرته بنظرتي أدركتُ، وكأنه إلهام خاطف، أنه كان أيضًا نوع من المختلّين نفسيًا، وتمكّن، مثلي، من ألا يكتشفه أحد.

وأنتَ أيضًا- قلتُ.

أدار الآخر رأسه حتّى لا ألاحظ احمراره، وبعد أن سحب كوب القهوة، جاء ليجلس بجانبي.

ماذا تقول، يا رجل؟

لاحظتُ في الحال أنكَ أيضًا أحمق.

هيّا، اشرب قهوتكَ.

قلْ لي، ما أصعب ما واجهتَهُ عند التّخفّي؟

التّخفّي من ماذا؟ عمّا تتحدّث؟ أمسك الكوب من أعلى، لأنه يغلي.

أنا مثلاً- قلتُ، وكانت حقيقة- كنتُ أجد صعوبة في التّخفّي أمام الفتيات. يصطدنكَ في الحال، خاصّة الفتيات اللاتي يشبهنكَ. امرأتي عادية، هذا ما أعتقده. في الدراسة، كما تعرف، لم أواجه مشاكل كبيرة. أعتقد أن أسهل طريقة لتداري أنكَ أحمق أن تدرس كثيرًا. وأنا درستُ كثيرًا، وحسنًا، حتّى الآن استطعتُ تكوين حياة عادية: تزوّجتُ، أنجبتُ طفلاً، صرتُ شيئًا في شركة ورق، ورق صحّيّ ...- شربتُ قليلاً، واحتفظتُ بالقهوة في فمي، كأني أحاول، إدراكها أكثر من استطعامها-. الآن استحلتُ بشكل غامض أحمقَ كونيًا، مثل الجغرافيا والتاريخ في الثانوية، هل تتذكّر؟ لقد كانا أيضًا كونيَّيْن. أقصد أني كوني مُترَع بالكواكب والأتموسفير. لذلك لقطتُكَ، لأني منذ أصبحت كونيًا، بدلاً من النظر إلى الأشياء، غدوتُ بداخلها، وأرى جوهرها. وأنتَ أحمق، بالطبع.

وفجأة، بينما أقول ذلك، أدركتُ أن العالم كان مُدارًا بسُذَّجٍ، تمكّنوا من مداراة سذاجتهم، مثلي تمامًا. وبالفعل، مَنْ فازوا في الحياة بدرجة مدير شؤون المُوظّفين أو وكلاء وزارات كانوا، عمومًا، أبناءً نموذجيّيْن، وطلابًا بلا خطأ. لماذا نحتاج إلى هذا الكمال، إن لم يكن لدينا ما نداريه؟ وفجأة، حدثتْ لي رؤية لعالم، يتمكّن فيه المعاتيه، من خلال محاكاة بعضهم لبعض، ومن جيل لجيل، وبطُرُق متعلّمة، أن يخدعوا الناس العاديّيْن، والتي راحت تأتمنهم على تولّي أمور السلطة. شحب وجهي قليلاً مع الفكرة، لكنها سريعًا ما أضحكتني.

هكذا يسير العالم- قلتُ بصوت مرتفع.

لن ينتهي العالم هنا، يا خيسوس، أنتَ مهني جيّد، وستحقّق نجاحات. قواعد اللُّعبة تتغيّر. أناس مثلكَ ومثلي رواتبنا عالية جدًا مقارنة بأطفال مثل ريكاردو نيجرو. هل تعتقد أني سأقاوم كثيرًا؟ بمُجرّد ما أنتهي من العمل القذر المكلّف به، سيطردوني أيضًا.

القادة السياسيون والاقتصاديون والمطارنة- كنتُ أقول في أثناء ذلك- ألم تنتبه أنهم حمقى؟ إنهم حمقى، مثلنا، بل أكثر منّا، إذ وصولهم إلى أعلى المراتب ليس إلا لقدرتهم على التّخفّي أكثر منّا.

بدأ مدير شؤون المُوظّفين يتوتّر.

طيّب، يا خيسوس، ليس بوسعي فعل شيء لكَ. الشروط التي قدّمتُها لكَ الجمعة الماضية هي أفضل الشروط. لقد سمحوا لي أن أصل لهذا العرض، ومن الملائم أن تقبله. أنتَ محظوظ، ربّما حين يأتي دوري لن يجدوا مالًا ليدفعوا لي تعويضًا. لو أردتَ، قَاوِمْ، لكنْ، بكلّ صدق أقولها لكَ، لن يناسبكَ.

أعتقد أني سأقاوم- قلتُ- أين مكتبي؟

الآن لا مكتب لكَ. لدينا مشكلة رهيبة في المساحة. غدًا أو بعد، سأبحث لكَ عن منضدة.

سأجلس في الممرّ، إذنْ؟

الآن، نعم. لا أجد حلاً آخر.

هذه الضغوط النفسية اليساريديمقراطية كانت من الممكن أن تُقوِّضني خلال الأسبوع الماضي، لكنها الآن باتت تُحفِّزني، بحيث كرّستُ وقتي للتّجوّل في المكاتب والمناطق المشتركة، مثيرًا الخوف من العدوى في كل مَنْ كان يقترب منّي. وفي وسط الصباح، اتّصلتُ بساعٍ قديم، أحضر لي ورقة تغليف بحجم منضدة، رسمتُ عليها بقلم تخطيط الأدوات المكتبية الخاصّة. ثمّ وضعتُ الورقة على الأرض، بجانب باب المصعد، وقعدتُ أمامها محاكيًا حركات مَنْ يعمل في مكتب. ولبرهة، لم يفعل المصعد أكثر من الوقوف في هذا الطابق محمّلاً برؤوس فضولية، كانت تواصل ضحكاتها حتّى بعد غَلْق الباب، ومواصلة المصعد لطريقة داخل علبته. تعرّفتُ على هذه الضحكات، وابتسمتُ في الوقت ذاته، لأني أدركتُ أنها ليست نتيجة للمتعة، إنما للخوف. مع ذلك اضطُررتُ إلى لَمْس شاربي النائم في جيبي لعدّة مرّات، لأن المتزحلق على الجليد الداخلي كان لديه مَيْل لينزلق نحو أرض القلق. وبفضل هذه اللمسات احتفظتُ بالشرط الكوني الذي ساعدني على تقييم الموقف.

في الظهيرة، وفي إحدى المرّات التي فُتح فيها المصعد، ظهر مدير شؤون المُوظّفين الذي ركل، غاضبًا، منضدة الورق، ورماها في ركن، لم يكن به سلّة قمامة.

أعتقد أنكَ تضرّ بموادّ المكتب- أشرتُ من دون أن أتركَ موقعي.

هيّا، تعال معي من فضلكَ. تعال لمكتبي.

اتّبعتُهُ بابتسامة. رأتني سكرتيرته أعبر، وسألت مذعورة إن كنّا سنتناول قهوة. جلسنا على طَرَفَيْ كَنَبَة، كانت تقتحم أحد أركان غرفة المكتب، فتبدو أنها تُحاصره، أو لتقاوم محاصرته، دون فارق: كان ثمّة مناضد مُقتحِمة وكراسي مقتحِمة وسجاجيد مقتحِمة، بالإضافة لأكوام من أشياء مقتحِمة صغيرة مجتمعة في أيّ مكان به فراغات، لتداري أيّ نيّة للهجران.

لن يتمكّنوا أبدًا من طردكَ بهذا النظام الدفاعي- قلتُ. هذا المكتب، على عكس مكتبي، ليس مؤثّثًا للعمل، بل لمقاومة الحصار. ربّما لستَ أحمق.

فَرَدَ مدير شؤون المُوظّفين العريض جسده، ووضع يده عند خصره، واضعًا أربع أصابع بين البنطلون والقميص. وأنا قلّدتُهُ، وتقليده نشّط ذاكرتي الكونية، إذ رحتُ أتذكّر أن أوّل مقابلة عمل منذ سنوات طوال، فشلتُ فيها في تقليد إيماءات مَنْ يُجري المقابلة. لم أفعل ذلك سخرية منه، إنما لأبدو بمظهر أفضل: كان يبدو لي أن الآخر هو مَنْ يحتفظ بأوضاع أكثر مناسبة، وبالتالي كنتُ أعيد تكرار الأوضاع، بالطريقة نفسها لمَنْ يجتاز حقل ألغام مقتفيًا أثر مَن اجتازه بنجاح. على أيّ حال، انفجر لغم، ووجدتُ نفسي في التّوّ في الشارع متعلّمًا الدرس الأهمّ: قليلون مَنْ يحتملون أن يروا مسيرتهم خارج ذواتهم، وما من تقليد لأحد إلا وحمل في النهاية صيغة التّهكّم.

والآن لم أكن أقلّد مدير شؤون المُوظّفين، لأقول الحقيقة، امتنانًا له، ولا سخرية منه، إنما لأتأكّد من فاعلية وانعكاسات طبيعتي الكونية الغازيّة.

وعلى أيِّ حال، فتقليدي خلّف في الآخر شعورًا بعدم راحة لا يُحتمَل، إذ هجر في الحال استهلالاته الاعتيادية الطّيّبة، ليدخل في الموضوع بعنف:

أنتَ مفصول من العمل، يا خيسوس، والأفضل أن تتحمّل تبعات الموقف. وكلّما انتبهتَ إلى هذه الحقيقة، كان أفضل. وإن قاومتَ، فبعد أربعة شهور أو عام يمكن أن يطردوكَ دون تعويض. تعويض عام مع بدل البطالة شيء هائل. أنا وقّعتُ، وأنتَ لديكَ المعلومة نفسها عن خطط المؤسّسة، وبالتالي عليكَ أن توقّع.

لا أعرف- قلتُ بتكاسل-، ربّما يجب أن أقاوم بالطُّرُق كلّها.

هرش مدير شؤون المُوظّفين في ذقنه، لأنه تردّد، وأنا تذكّرتُ أنهم في الروايات عادة ما يهرشون في ذقونهم، وليس في لحاهم أو خدودهم. الهرش في الذقن يعني التردّد؛ إنها، في النهاية، حركة مرتبطة بالمخّ، بحيث يبدو أن الذقن امتداد له. وحتّى أقلّده، بدأتُ أنا أيضًا في ملامسة ذقني.

ماذا تفعل؟- سألني غاضبًا.

أهرش في ذقني، مثلكَ. من الأفضل أن نهرش في الذقن، بينما نتأمّل ما يحدث في العالم. مؤكّد أنه في مكان ما من الكون، وفي هذه اللحظة، ثمّة مُوظّف يأكل (سندوتش مورتاديلا)، بينما في الطابق الأعلى، أو في الطابق الأسفل، يرفدون مديرًا. في الروايات، أحيانًا ما يهرشون في الذقن، فيما يتحطّم العالم. كلمة ذقن قريبة من كلمة عقل، ما يستدعي التّأمّل.

غاب الغضب عن مدير شؤون المُوظّفين، وحلّت الحَيْرة محلّه، وربّما الخوف. حينئذ، مال بكتلته الجسدية كلّها ناحيتي، لأفهم أنه سيبوح لي بسرّ. قال:

اسمعْ، سأضع أوراقي كلّها على المنضدة الصغيرة. لقد خوّلوا لي أن أعرض عليكَ تعويضًا سَنَتَيْن، كحدّ أقصى، لكني، وكما أعرف الأمور، مضطرّ إلى أن أبرهن أني استطعتُ التفاوض، وتمكّنتُ من إدارة المسألة.- أهزّ رقبتي-. أنا صريح معكَ، كما ترى. سَاعِدْني قليلاً. من مصلحتنا نحن الاثنان أن تتقاضى ثمانية عشر شهرًا، وبدل بطالة، هذا رائع. الأمور ستنتقل من سيّئ إلى أسوأ سريعًا، أؤكّد لكَ.

عامان ونصف- قلتُ، وخرجت الكلمات من فمي كمجموعة نرود، سقطت من كوب: بحثًا عن الحظّ أو الخراب.

لا يمكن، لو وصلتُ إلى سنتَيْن، سأبدو كمفاوض فاشل، ولا يزال هناك كثيرون لرَفْدِهِم. لا أريد أن يقوم آخر بهذه المهمّة.

عامان ونصف- كرّرتُ، وسمعتُ داخل رأسي من جديد رقصة النرود.

لا يمكن.

أعد لي، إذنْ، منضدة الورق، أريد أن أبدأ عملي في الحال.

هرش مدير شؤون المُوظّفين في ذقنه، وأنا فعلتُ الشيء نفسه.

اتّفقنا- قال في النهاية-، على مسؤوليّتي عامان ونصف، لكنْ، من الغد لا تأتِ إلى هنا، ونحن سننهي الإجراءات كلّها.

وتحدّث مع هذا النيجرو أو مع سكرتيرته حتّى إذا اتّصلتْ زوجتي قالا لها إني بالخارج، أو لديّ اجتماع، أو أيّ شيء. لن أحكي لها الآن أنكم طردتموني إلى الشارع.

حين خرجتُ إلى الشارع، لم أعد كونيًا، مشيتُ لبرهة وأنا مبلول، من دون أن أنتبهَ إلى المطر: قدراتي الشعورية كلّها كانت مركّزة في الخوف من المستقبل؛ ففي سنّي، وفي أوضاعي الحالية، من المتوقّع ألا أعثر على عمل. دخلتُ حانة، وجلستُ إلى المَشْرَب، وأنا أحسب حساباتي، وأتوصّل لنتيجة أن الوضع ليس بهذا السوء. لو أن المتزحلق على الجليد الذي بداخلي لم ينتقل صوب ضلع القلق، لكنتُ في حالة رائقة. المسألة، إذنْ، ليست قلقًا اقتصاديًا صرفًا. في الأحوال كلّها، شغلَني أن يبقى الشارب عاطلًا عن العمل، فأخرجتُهُ من جيبي، ووضعته على المَشْرَب. كان يبدو فأرًا ميتًا، لكن رؤيته كانت كافية لأستعيد، ولو بشكل خافت، الشعور بالكونية. أومأ النّادل بقَرَف عندما وضع المشروب بجانب الشارب المستعار، فاضطررتُ إلى سَحْبه من على المَشْرَب رغم أني لم أُعدهُ إلى جيبي. احتفظتُ به في يدي، فمنحني، كلّما مرّت الثواني، نوعًا من السعادة نابعًا من التّعرّف على قدرات قصوى. كنتُ فكّرتُ أن أراجعَ حساباتي من جديد، لأتأكّد من أن القلق لا ينجم عن أسباب اقتصادية، غير أن الحاجة إلى عمل أوّل عملية حسابية اختفتْ من قبل أن تبدأ.

خرجتُ واكتشفتُ نور العواصف القاتم، ومع الضّوء تأمّلتُ أيضًا الشوارع ببناياتها وممرّاتها الرطبة. واصلتُ المشي جائعًا لحركة المشاعر

بداخلي، وتلقّيتُ الواقع بالكثافة نفسها التي تخلّلتْ بها الأشياء حواسّي في زمن قديم. وبشارب مضغوط في يدي، كنتُ أتشمّم رائحة الوجوه وحوارات الناس، من دون أن أتجاهل أني أتعدّى على قانون ما، لكني أعرف الآن، كما عرفتُ حينها، أن في هذا التّعدّي فقط كان ثمّة أمل للمعرفة.

عابرًا الشارع، رأيتُ على الناصية كنيسة، فقرّرتُ دخولها. كانت نصف دستة من النساء المتّشحات بالسواد، تشغل الدكك بفوضى ظاهرة، تشبه العلامات في السّلّم الموسيقي. تقدّمتُ في الممرّ المركزي ناحية ظلال المذبح الكبير، متشمّمًا بلهفة عبق غبار وشموع وبخور، وفيما كنتُ أستحضر مشاهد قديمة مرتبطة بهذا المزيج من الروائح، تصوّرتُ أن ثمّة تناغمًا غامضًا بين تجويفات المصلّى الجانبية، أو ركن الاعترافات وبين تجويفات جسدي، كأن الكنيسة ما كانت بداخلي أكثر ممّا كنتُ أنا بداخلها: كانت هذه، في تلك اللحظة، درجة كونيّتي.

في أثناء ذلك، لفَتَني بريقٌ مذهّب في عمود. اقتربتُ ورأيتُ أنه مُجرّد فتحة من النحاس منحوتة في الحجر. ثمّة لافتة كانت تشير إلى حجم العُملة التي يجب إدخالها حتّى يشتعل ضوء المذبح الكبير. أدخلتُها، وأُضيئت فجأة عدّة مئات من الأمتار الرأسية المربّعة. وأنا، سعيدًا، تراجعتُ لمكان الدكك لأجلس على واحدة منها في تجمّع العلامات الموسيقية. وأنا أيضًا، حيث فُتِحت في صدري الآن هوّة من اللا واقعية الكونية، كنتُ مُطوّقًا بنوع من تجويف كاتدرائية ذي مغزى ورفعة، وفي هذا الفراغ الخالي، كان يمكن أن أسير حتّى النهاية، وأنا أسمع صدى خطواتي تجرّني صوب المذبح الكبير لوساوسي، صوب قُدْس أقداس مخاوفي. والجوع للتّقدّم، الذي كان جوعًا للمشاعر، بات، على عكس فترة أخرى، متناقضًا مع خوفي من

أن أتحوّل إلى محسوس، ومع رغبتي في أن أذوب مع الخوف من فقداني ذاته. كانت حلقة الوصل بين المعرفة والإدانة، بين الحدس والأذى، قد ذابتْ. فتحتُ عينَيّ، ورأيتُ ظَهْر امرأة راكعة في الدّكّة أمامي. تأمّلتُ كاحلَيْها وساقَيْها بنَهَم مشابه لنَهَم سنوات قديمة، ثمّ رفعتُ نظرتي إلى مؤخّرتها كبصباص قديم في زمن آخر، بحثًا عن أشكال يرسمها اللحم أو اللباس على قماش التنّورة. فكّرتُ أني لو كنتُ رفعتُ عينَيّ ناحية المذبح، لكنتُ رأيتُ المذبح نفسه في تلك الأيّام؛ في أوّل المطاف وآخره، كانت المؤخّرة التي أنظر إليها هي مؤخّرة أمّي أيضًا. كنتُ على وشك أن ألبس الشارب فوق شَفَتَيّ، لأتصنّع أني زوج تلك الأرملة غير أن الضوء انطفأ بتكّة مفتاح كهربائي ذاتية. وقرّرتُ أن أنصرف.

في الشارع، تغذّى شعوري بالكونية حين تأمّلتُ المشاة، وحدستُ فيهم فردية بائسة، كأن كل فرد فيهم استحال مركزًا لكوكب صغير من الألم. رفعتُ عينَيّ الكونيَّتَيْن نحو السماء، ورأيتُ غمامة سوداء، ذات حجم هائل، استقرّتْ فوق البنايات. كان مدهشًا أن أحدًا لم يلتفتْ إليها، أن أحدًا لم ينظر لأعلى، رغم الاحتفال الحادث في السماء. ولا رأيتُ أحدًا توقّف ليستنشقَ الهواء برائحته التي تعرّضتْ لتحوُّل طفيف. حينئذ، حدث تواطؤ بيني وبين الغمامة، لم يطّلع عليه أحد. وتنبّأتُ، بإثارة جادّة، باحتمالية أن ينهمر المطر من جديد، وتخيّلتُ نفسي مختبئًا في مدخل بناية، وأتجسّس على الظاهرة الجوّيّة كمجرم يتتبّع حركة ضحيّته. مددتُ يدي المقبوضة إلى الشارب، لأشعر بمَلْمَس القطرات الأولى، وشاهدتُ حينئذ محلًا جنسيًا sex-shop قد مررتُ أمامه آلاف المرّات من دون حتّى أن أفكّر في دخوله. وبما أني غدوتُ الآن كونيًا، كان يمكنني الدخول لأيّ مكان.

عبرتُ الشارع، ودخلتُ المحلّ من دون مقدّمات. رأيتُ حانة، يجلس

رجل على مَشْرَبِها، كانت جدرانها مُقبّبة ومَكسوّة بصور فوتوغرافية لنساء عاريات. عبرتُ هذه المساحة، ورأيتُ ممرًا مُترَعًا بأبواب، مثل ممرّات الأحلام. فتحتُ الباب الأوّل، ودخلت غرفة بحجم مصعد، كانت الحيطان سوداء، والأرضية كذلك، مثل أرضية وحيطان معمل تحميض الصور، وبالتالي لم أواجه صعوبة في التّوهّم بأني بداخل نفق رأسي، يمكن من خلاله السقوط، أو الصعود ربّما، نحو مركز شيء ما.

حين تعوّدتْ عيناي على الظلام، رأيتُ أمامي فاترينة منطفئة، وعلى اليمين لوحة تعليمات، وكيبورد مع مجموعة من صور فوتوغرافية مُرقّمة. لبستُ الشارب فوق شَفَتَيّ، وأدخلتُ عُملة في ثقب مفتوح بالحائط؛ ثمّ اخترتُ واحدة من نساء اللوحة الفوتوغرافية، وكتبتُ رَقْمَهَا.

أُضيئت الفاترينة، ورأيتُ على الجانب الآخر من الزجاج نوعًا من الصالات بأبعاد غرفتي نفسها، بمقعد له مسند من الحرير الأخضر، يذكّرني بأجواء غرفة جلوس مصغّرة. وفي الحال، فُتحت ستارة من اللون ذاته، وظهرت امرأة بضّة، تنتعل حذاء أسود مزيّنًا بالخرز، يصل حتّى ركبَتَيْها، وترتدي فستاناً حريريًا أحمر، خفيفًا جدًا حتّى إنه يشفّ نسيج جِلْدِهَا. كانت ملامحها شرقية، ولغتها أيضًا، وبالتالي، حين توجّهتْ إليّ من خلال فتحة أخرى من جانب الزجاج، واجهْنا صعوبة ما في التفاهم.

عندما وصلنا إلى اتّفاق في النهاية، أدخلتُ في ثقب الزجاج أوراقًا مالية، سحبتْها هي، واحتفظتْ بها في فردة الحذاء اليمنى. ثمّ أخرجتْ من تحت الكرسي الأخضر لفافة مناديل ورقية من المستخدَمة في المطبخ، ومرّرتْ لي جزءًا منها. وفي الحال، زحلقتْ الفستان من على جسدها، وبقيت عارية، إلا من الحذاء. بالإضافة إلى كونها بضّة، انتبهتُ لذلك

الآن، كانت ضئيلة الجسد: عندما انكمشتْ، كانت في طول ضفيرتها التي تصل إلى خصرها. كان الجوّ عمومًا يذكّرني بداخل بيت من عرائس، رأيتُهُ في فاترينة طفولتي. جلست المرأة على الكرسي بساقَيْن منفرجَتَيْن، ويَدَيْن على حافَّتَي ثقب عضوها، كاشفةً فَرْجًا محلوقًا، يشبه اللُّعبة في شيء. للحظة، انتابني شعور بأني أمام عرض آلِيِّيْن مثل تلك العروض التي كان أبي يصطحبني فيها أيّام الآحاد بعد الخروج من القدّاس. تلك العرائس، مثل المرأة الشرقية ذات القوام الطفولي، والتي تجتهد الآن في ممارسة العادة السّرّيّة بطريقة ميكانيكية، كانت أيضًا محبوسة في صناديق ذات حاجز زجاجي، يفصلها عن المشاهد؛ وكانت تتحرّك كذلك، كأن روحها في مكان آخر، كلّما أدخل أبي عُملة في الثقب المفتوح في ضلع الصندوق. وكأن ذلك قليلًا، كنتُ أنا وأبي نتأمّلها من مكان مظلم، كما أتأمّل الآن العروسة الصينية، بينما أُنزل بنطالي، لأطوّق عضوي الكوني بعد ذلك بورق مطبخ، مرّرتُهُ لي.

الهيجان، كما يُلائِم عظَمتي الفلكية، كان يتأخّر، لكنني حينها حرّكتُ لساني حركة فاحشة، وعندما تحسّستُ شاربي، شعرت بحمولة في نقطة ما من الكواكب التي تُشكِّلني. أدركتُ حينئذ أن الكونية تكمن في أن تكون آخر، في أن تكون الرجل ذا الشارب، وليس خيسوس المهموم بوعيه الفردي، ويدور حوله القلق كمدارات دائرية. شرعتُ في البكاء من الامتنان الكوني، بينما كنتُ أستمني أمام الفاترينة الصّمّاء، وتمتّعتْ دموعي بجودة طَقْسية، تشبه قطرات المطر حين تُبلّل الأرصفة بالخارج. كل شيء كان رطبًا أو مبلولًا ما عدا مهبل العروسة الشرقية.

بلِّلي نفسكِ- أمرتُها.

مالتْ برأسها، وبصقتْ في اتّجاه عضوها، ووزّعت البصقات بأصابعها، ثمّ نظرتْ إلي، وقالت:

أنتَ خنزير، خنزير أوروبي.

لكنها قالتْها بنبرة تحمل الإثارة الجنسية، كما تحمل معنى الشتيمة. على أيّ حال، تصرّفتُ على أنها إثارة، بحيث غمضتُ عينَيّ، وتأكّدتُ من أن الفاترينة بالمرأة الشرقية كانت داخلي، تُشكّل جزءًا من كوكبتي، بحيث، ومن دون أن أتخلّى عن أن أكون رجلَ الشارب، كانت هي أيضًا في تلك اللحظة المرأة ذات الفَرْج المَخْلُوق.

كانت كونيّتي تتكاثر في اتّجاهات متعدّدة، مثلما حدث في تلك الفترة البعيدة عندما عدتُ إلى البيت بصحبة أبي، وغمضتُ جفنَيّ، لأرى الآليّينْ من جديد. هكذا، بعينَينْ لا تزالان مغمضَتَينْ، بينما أستمني بيدي اليمنى، ومحافظًا على مناديل المطبخ في مكانها بيدي اليسرى، كانت يداي المتخيّلتان تتسلّلان هذه الفاترينة، مثل أياد أخرى كثيرة على طول مشوار حياتي، وتتحسّسان ثمرة هذه العروسة المبلولة التي لم تكن تحتاج، وهي داخل كوني، إلى أن تُبلّل نفسها بلعاب فمها. وصلتُ إلى النشوة بقَذْفة كونية، وعندما فتحتُ عينَيّ، قرأتُ الحَيْرة في نظرة العروسة الصينية. ابتسمتُ، وهي أخرجتْ لسانها من فمها، فبدت لي محاولة متأخّرة للإثارة.

عندما خرجتُ، كان المطر قد توقّف، غير أن الشارع كان مبلولًا جدًا، والبنايات غامقة. أغلب الأشياء كانت تميل لحالة السيولة. مسّدتُ جسم إشارة مرور، وسحبتُ قطرات، وضعتُها بين أصابعي، ثمّ على أطراف

شاربي. كانت المرّة الأولى التي أخرج فيها إلى الشارع لابسًا شاربًا، وانتابني شعور استعراضي مراهق، كأن ما أستعرضه هو الحياة ذاتها وليس ترقيعة مستعارة. شاهدتُ امرأة تنفض سجّادة من الشرفة، وبدت لي أيضًا كلُعبة ميكانيكية، كآليَّةٍ، عندما تنتهي مدّة العُملة في الثقب، ستتوقّف حركاتها خلال دقائق قليلة أو خلال ساعات قليلة، فمن وجهة نظر كونية، لا فارق في التوقيت.

ركبتُ أيّ باص وجدتُهُ، وقعدتُ، وغمضتُ عينَيّ، لأتأكّد أيضًا من أن المرأة التي كانت تنفض السجّادة كانت بالداخل، مثل غرفة بيع الجنس المثير، أو الواجهات المبلولة، أو إشارات المرور. وبعد أن تجوّلتُ بجزء من كوني الداخلي متحقّقًا من أن كل شيء على ما يرام، فتحتُ عينَيّ، ورأيتُ أن بجانبي يجلس طفل زنجي. نظرتُ إلى رأسه بوقاحة، بحثًا عن فتحة، وحين لم أعثر عليها، فكّرتُ أنها ربّما تكون مختبئة تحت شَعْره المجعّد.

هذا المساء، حين وصلتُ إلى البيت بالشارب في جيبي، كانت لاورا قد قصّرتْ شَعْرَها، وفي انتظاري.

أخذتُ دابيد إلى الطبيب، وقصّرتُ شَعْري.

أنتِ أفضل هكذا، أصغر سنًا. والطفل؟

عنده التهاب اللوزتَيْنْ فقط. ونام بمُجرّد وصولنا. كان مُنهَكًا. قلتُ للمُساعدِة أن تنصرف.

تطلّعتُ إلى الممرّ، وتأكّدتُ من أنه لا يزال يتمتّع بالفوضى الهندسية للأبعاد الروحية.

سأُغيّر ملابسي- قلتُ.

توجّهتُ مهجوسًا إلى غرفة النوم، وبعد أن مشّطتُ الشارب قليلاً بأصابعي، احتفظتُ به في الخزينة، ثمّ خلعتُ المعطف، وعبرتُ للممرّ من جديد، بهاجس التّطلّع لغرفة ابني الذي كان نائمًا في سكينة. خلال ذلك، وعلى الطرف المواجه من هذا الوسواس، رأيتُ لاورا تخطو بشَعْر قصير. كان للممرّ أبواب، مثل بوّابات الأحلام. واختفتْ لاورا في باب، يؤدّي إلى المطبخ، فتتبّعتُها، غير أن ما رأيتُهُ عند دخولي كان غرفة بيع

الجنس المثير. كنتُ أكتسب خبرة في إدارة كوني، ولم يُكلّفني شيئًا أن أُخرِج الغرفة القابعة بداخلي.

أريني قفاكِ- قلتُ لها.

يا لكَ من مجنون!- صاحتْ مبتسمة، لكنها رفعت ذيل الحصان القصير، وأرتْني الوادي الغامق خلف رأسها. تأمّلتُهُ بنهم بصباص طائش، وانتبهتُ إلى أن تلك اللحظة كانت مثل صندوق مليء بالمفاجآت. اللحظة فتحتْ طريقًا في شقّ من شقوق حدسي، وأظهرتْ لي الثراء الأبدي الكامن بداخلي كلّه. وبشكل مُلفِت، تجلّى المُجرّد، الزمن، مثل شيء صلب، فيما الماديّ، الممرّ، اكتسب محيطات وسواس شبحية.

كانت لاورا ترتدي بُلُوفرًا من خيط رقيق جدًا، تمتدّ فتحته حتّى الكتفَيْن. حرّكتُ إليها إصبعًا غير ماديّ، بإيماءة مَنْ يشير إلى خريطة، وعدَّلتُ طرف الرقبة، لأرى شريط حمّالة النّهدَيْن الأبيض الذي كان يقسم الكتف إلى نصفَيْن. حينئذ استحال جسدها أرضًا، كانت جغرافيّتها تحتوي على ما يبدو إجابة جوهرية.

اخلعي البلوفر- قلت.

عبّرتْ نظرتها عن مقاومة متصنّعة، فاضطُررتُ لأطلبه منها مرّة أخرى.

اخلعيه- كرّرتُ.

تجرّدتْ هي من البلوفر، وتأمّلتُ أنا حمّالة نهدَيْها للحظات. كانت الحمّالة تبدو كقطعة جِلْد ثانية، تطمح إلى أن تستقلّ عن الجسد في منطقة الغلق، مثل قشرة عضوية تخفق تحتها ثمرة. رأيتُ بقعة زرقاء في الجزء المكشوف من نهدها اليمنى.

ما هذا؟- سألتُ.

هذا ما فعلتَهُ بي بالأمس- قالت بفم مفتوح في رأس شعره مقصوص.

وهل تركتُ علامات أخرى؟

أجل.

أريني.

سحبتْ لاورا قبّة الحّمالة، وأرَتْني علامة أخرى.

هل هناك علامات أخرى؟- ألححتُ.

أجل- قالت وهي تشير إلى نقطة تحت التّنّورة-. أتريد أن تراها؟

نعم.

رفعتْ لاورا التّنّورة، وباعدتْ قليلاً مطّاط السروال الداخلي، لأرى جزءًا من عانتها، حيث كانت ثمّة عضّة من أسناني. ركّزتُ في ثقوب النسيج، ومن خلالها لاحظتُ بقعة غامقة تحتها، تخيّلتُ فرج العروسة الصينية المحلوق.

وهنا أيضًا- أضافتْ وهي تستدير كاشفَة مؤخّرتها.

حينئذ باعدتُ نسيج السروال الداخلي الرقيق حتّى رأيتُ فتحة أو شقًا يشطر جسدها نصفَين، وتحسّستُ بأصابعي هذه المنطقة الغامقة التي لم تكن المنطقة الأكثر غمقانًا في جغرافيا زوجتي، إنما المنطقة الأكثر غمقانًا في المؤخّرة التي تأمّلتُها في الكنيسة، وكانت في حالة حداد. في

أثناء ذلك، كان جسدها قد بدأ يغلي، وكان لهيبه يتسلّل إليّ بطبيعية، فتخرج من جسدي صور، كانت تُشكِّل قِطعًا معمارية مهتزّة، بنايات متغيّرة اللون، تقيم وتهدم المطبخ والكنيسة وغرفة بيع الجنس المثيرة. لكن الزمن أيضًا كان يتفتّت، والتدريبات على الحبّ كانت تتحوّل إلى رحلة، تكتسب الأصابع فيها خصالًا طفولية، وكانت الشفاه تتعرّف على مذاقات قديمة، تفتح مفرداتها، بالإضافة لأثر الذاكرة، طريقًا في نسيج الجِلْد.

الكواكب كلّها التي كانت تُشكِّل جزءًا من تاريخ حياتي خطّتْ خطوطًا متخيّلة، لترسم كواكب في خطوطها، وفضلًا عن وجهي الحالي، كانت ثمّة صورة للمراهق المتوتّر ونظرة الطفل الشرّير. التدريب، إذنْ، تمتّع برفعة كونية لظاهرة جوّيّة، بحيث، كما يحدث هدوء ما بعد العاصفة، استطعتُ أن ألاحظ أن الأشياء تستعيد فرديّتها المبتذلة. ثمّة طاسة كانت قد سقطتْ على الأرض، وتتنفّس في الخفاء عبر ثقب مفتوح في يدها، بينما الأكواب، من خلف الفاترينة، تستغلّ حجم فمها لتوزيع زفيرها، هكذا لم يبلغ البخار زجاج المطبخ. أما لاورا، فقد انفتح فمها على ابتسامة فردية، كانت تستخدمها بحركة تكتيكية، بينما تعدل قِطَع ملابسها الداخلية التي لم أُجرّدها منها.

كان كوني أيضًا على وشك الانكماش، ليكوّن فردًا، غير أني تذكّرتُ الشارب المختبئ في الخزينة، وشعرتُ بوجوده في شَفَتَي، مثل هذه الأعضاء التي تظلّ ملتصقة بأجسادنا في شكل شبح، وتؤلمنا أو تسعدنا بكثافة كأنها واقعية رغم أنها باتت مبتورة. ذكرى الشارب كانت كافية، إذنْ، لتتفاعل على الفور أنسجة محيطي الكوني التي تأمّلتُ من خلالها حَيْرة لاورا المُرضية، لاورا التي ربّما لم تنتبه أيضًا إلى أنها كانت تتحوّل لأخرى. مع ذلك، كانت فرديّتها تدفعها نحو ما هو مُبتذَل، ربّما لذلك قالت:

غدًا سنويّة أبَوَيْكَ، لا تنسَ.

كان أبَوَاي قد ماتا منذ عام، ماتا في حادثة حريق، غير أني في حساباتي الحالية، وكل ما جرى لي في الأشهر الأخيرة، ويشبه عواء ألم مكتوم، لم يكن ذلك إلا محض حَدَث كوني، حدث بعيد عن مركز اهتماماتي، مثل اعوجاج في ظفر القَدَم. لم أتذكّر من جثّة أبي إلا شاربه الذي نجا من دون أذى، ولا تذكّرتُ من جثّة أمّي إلا ابتسامة مجمّدة، كانت تُظهر اعوجاج أسنانها العليا التي ورثتُها منها. لقد ورثتُ منها أسنانها، والخوف من ألا أكونَ شيئًا. ورغم أني لا زلتُ أحتفظ بالأسنان نفسها، بحسب ما تحقّقتُ بحركة من لساني، إلا أن الخوف قد تبخّر، وفكرة أن أكون شيئًا باتت غبارًا كونيًا، يعجز عن تركيز مفعوله في نقطة واحدة.

الذكرى السنوية، سنرى- قلتُ.

ألن تحضرَها؟

في تلك اللحظة، سمعنا صوت دابيد ينادي من غرفته.

سأروح أنا- قلتُ.

وصلتُ إلى باب المطبخ، وعنده تجسّد بالخارج الممرّ الكامن بداخلي، وواصلتُ إلى غرفة الطفل. كان قد استيقظ في التّوّ، وتأمّل وجودي بامتنان.

كيف حالكَ؟

أشعر بصداع داخل رأسي. احكِ لي حكاية أوليجاريو رجل الشارب، منذ بات أحمقًا.

لمستُ جبهة الطفل، وبدا لي ساخنًا بعض الشيء، لكن تأكيد هذه المعلومة لم يُحرِّكْ أيّ ساكن في عاطفتي.

اتّفقنا- قلتُ وأنا أقعد على حافّة السرير-. ستتذكّر أن أوليجاريو تزوّج أخته التي لم تتعرّف عليه بفضل الشارب المستعار.

ما معنى مستعار؟

رجل بشارب.

لكنْ، هل المستعار هو الرجل كاملاً أم الشارب؟

في البداية الشارب، لكنْ، حين تلبسه فترة طويلة، تنسى كيف كنتَ من قبل، ويغدو كل شيء مستعارًا.

طيّب، أكمِلْ.

حدث أن أوليجاريو شعر بالضجر، لأنه هو نفسه دائمًا دون أيّ تغيير، وذات يوم هجر أخته، وعاد إلى البيت المهجور في أطراف القرية، وهناك خلع شاربه، ليكون أحمقًا. بدأ من جديد في التردّد على المدرسة، ولأنه كان عنيدًا جدًا، وبذل مجهودًا، وتصرّف بأفضل شكل، استطاع أن يُنهي دراسته. على أيّ حال، ظلّ أهل القرية يظنّون أنه أحمق، رغم أنه لم ينتبه لذلك. ثمّ رأى كيف أن زملاء دراسته بدؤوا في العمل، بينما لا يزال هو عاطلاً في بيته المهجور، رغم أنه، حسنًا، لم يكن، في حقيقة الأمر، عاطلاً طوال الوقت؛ ما حدث أنه كان يدرس أشياءَ نادرة، على سبيل المثال، أثر تجشُّؤ الديناصورات على سخونة الأرض، وظهور الدفيئات. أتعرف ما هي الدفيئات؟

طبعًا.

تخيّل أن تجشُّؤ ديناصور واحد يُنتج الحرارة نفسها لثلاثة ملايين من التجشّؤات البشرية مجتمعة أو أكثر، لأن الديناصورات تتغذّى على نباتات، تُنتج غازًا يضرّ بالمحيط الجوّيّ في أثناء عملية الهَضْم.

كان ذكيًا جدًا.

لا، لا، كان أحمقًا، لذلك لم يتجرّأ أحد على أن يمنحه عملاً. حقيقةً أنه عمل في محلّ خردوات في فترة ما، لكنهم طردوه، لأنه كان يتأخّر كثيرًا في البيع: كلّما باع صمولة لزبون، شرح له قانون الروافع. هل تعرف ما قانون الروافع؟

لا يهمّ، أكمِلْ.

كان مُغرَمًا بالميكانيكا، بالأجهزة، لكنه كان مَهووسًا بشرح سرّ الأشياء للزبائن.

ما سرّ الأشياء؟

قانون الروافع. هل تريد أن أشرحَه لكَ؟

لا، أكمِلْ.

عند طَرْده من محلّ الخردوات، تأمّل كثيرًا حول ذاته، ووصل سريعًا إلى نتيجة مفادها أنه أحمق، على الأقلّ، لو قارن نفسه بأفراد من سنّه، إذ بلغوا سنًا، صاروا فيها مستقرّين في عمل، ومتزوّجين، وآباء. في الأماكن كلّها، كانوا يعاملونه بظرف، لكنه نوع من الظرف أو الطيبة، يُعامل به الحمقى.

حينئذ قرّر أن يهاجر إلى مدينة، لا يعرف أحد فيها نقيصته، وخطر له أنه سيكفيه أن يتخفّى حتّى لا ينتبه إليه أحد: لا ديناصورات، ولا تجشّؤات، ولا محاضرات عن قانون الروافع. استأجر في تلك المدينة غرفة، وكرّس وقته لمراقبة الناس الطبيعية، ليُقلّدها. كان يحمل في جيبه كرّاسة على الدوام، وكان يُسجّل فيها ملحوظات بالعبارات التي يسمعها، والتي تبدو له مفيدة بشكل خاصّ في إخفاء ظرفه. ثمّ، في أثناء الليل، وفي الغرفة، كان يحفظها وهو ينطق بها أمام المرآة مُقلّدًا إيماءات الآخرين. تعلّم أن يضع ساقًا على ساق، كلّما قال شيئًا هامًا، وأن يرفع حاجبَيْه بهذه الطريقة، كلّما تصنّع أنه لم يسمع شيئًا جيّدًا. وبعد شهر، عدّ نفسه جاهزًا. ارتدى، حينئذ، بدلة زرقاء وربطة عنق حمراء، وخرج ليبحث عن عمل. عثر على عمل في بيع الموسوعات للمنازل. كان يطرق أبواب البيوت كلّها، وبما أنه كان يخفي حماقته بامتياز، تمكّن من بيع موسوعات كثيرة، وربح الكثير من المال. حينها بدأ في مواعدة فتاة عادية، لم تنتبه أبدًا إلى أنه أحمق.

كان يتخفّى ببراعة، أليس كذلك؟

ببراعة، يا بني. لكن الحقيقة أن أوليجاريو بدأ يتعب سريعًا من هذه الحياة. كان حقيقة أنه يربح المال، وأن خطيبته كانت جميلة جدًا، رغم أنها ليست في جمال أخته، وأن رؤساءه كانوا يُقدّرونه، لكن ما كان يروق له في العمق هو أن يكون أحمقًا، ليتفرّغ لدراسة تجشّؤات الديناصورات، وشرح قانون الروافع. بالتالي قرّر أن يهجر كل شيء وأن يعود إلى القرية. لم يستطعْ رئيسه أن يفهمَه، ولم يفعل غير أن سأله، إن كان يريد أن يرفع له راتبه أم ماذا. حينئذ اعترف له أوليجاريو بأنه أحمق، لكنه أخفى حماقته، ليعيش حياة عادية. لم يُصدّقه رئيسه في البداية، غير أنه، حين رأى تصميم

أوليجاريو، قال له: "حضرتكَ أحمق. اطلبْ حسابكَ، وامشِ من هنا". أما خطيبته المرعوبة، فهجرتْه عندما عرفتْ أنها تخرج مع رجل أبله، فيما شعر أوليجاريو بسعادة، لأنه باستعادة هويّته الحقيقية تفرّغ لدراسة العواصف.

وعاد حينئذ إلى القرية؟

هذا ما سأحكيه لكَ في يوم آخر. الآن، هيّا، لتنام.

قلْ لي فقط ماذا حدث عندما عاد.

حدث أن أُخته كانت أنجبتْ طفلة، إذ إنه، من دون أن يعرف، كان تركها حاملاً حين هجر القرية. ولأنه غاب فترة طويلة، كانت الطفلة صارت شابّة جميلة جدًا، لدرجة أن شباب القرية كلّهم كانوا يطمحون أن يتزوّجها أحدهم.

وماذا حدث؟

أحكي لكَ في يوم آخر. الآن غمِّضْ عينَيْكَ، ونمْ.

في اليوم التالي، لم أحضرْ سنوية أبَوَيّ. وبدلًا من ذلك، لبستُ الشارب، وتجوّلتُ في الشوارع القريبة من الكنيسة، وأنا ألمس بطَرَف لساني اعوجاجَ أسناني الموروث من أمّي. تفكيري الكوني كان يشير إلى أن التوافق بين الذكرى السنوية والطَّرْد من العمل لا بدّ له مغزى، وينبغي العثور عليه، ولم أتأخّر كثيرًا في الوصول إليه: سأفتح حسابًا مصرفيًا بأموال التعويض، وأستأجر شقّة، أقضي فيها الساعات التي كنتُ أقضيها في المكتب.

عثرتُ على شقّة مفروشة في بناية غرفة بيع الجنس المثير نفسها، حيث تعمل المرأة الشرقية، وأودعتُ أموال التعويض في مصرف، يقع على الرصيف المواجه. قلتُ لزوجتي إنهم غيّروا هواتف المكتب كلّها، لأنهم أسّسوا مقسمًا آليًا، وأعطيتُها هاتف الشّقّة. في الصباحات، كنتُ أخرج في الساعة المعتادة، ألبس الشارب، بمُجرّد عبور ناصية شارع بيتي، ولا أخلعه إلا في منتصف الظهيرة. وكما كنتُ أصل لمكتبي سَيرًا، لأنه قريب، أصبحتُ أتنزّه للشّقّة كذلك. وعادة ما كنتُ أنام بمُجرّد وصولي حتّى منتصف الصباح، مستمتعًا بتلك الأحلام في غير موعدها، أحلام يبدو أنها كانت تشيد رسالة ما رويدًا رويدًا.

بمُجرّد تأسيس هذا الروتين، تحوّلت الشّقّة، أكثر من كونها مأوى، إلى مركز للعمليات، كنتُ أخطّط بداخلها لمستقبلي. احتفظتُ ببعض

عادات المكتب، مثل عادة قراءة الجرائد كلّها بعد اليقظة من النوم، بما فيها الجرائد الاقتصادية، لكني الآن أقرؤها كاملة حتّى الإعلانات المكتوبة وبريد القرّاء لهيئة التحرير والوفيات في اليوم السابق بالمدينة. كرّستُ ساعات لهذه المهمّة، بحيث استحالت الجريدة أرضًا مثيرة للعواطف: تحت الأقسام الموجَزة، كما تحت ملابس لاورا الداخلية، كانت تنفتح شقوق عندما أتطلّع منها بعين واحدة، كنتُ أرى أشياء مُشوَّشة، تُشكّل أكوانًا جديدة. وحين كانت قراءة الجرائد تصل بي إلى الإثارة المطلوبة، كنتُ أهبط إلى غرفة بيع الجنس المثير، وأطلب المرأة الشرقية ذات الفَرْج المحلوق، وكنتُ أتبادل معها النقود بمناديل المطبخ، من خلال ثقب مفتوح في زجاج الفاترينة. وكانت دائمًا تناديني بـ خنزير أوروبي، كلّما وصلت للنشوة الجنسية، وكان ذلك يروق لي.

مع ذلك، عند وصولي إلى الشّقّة ذات صباح، شعرتُ بهمّة مُثبَطَة، فاتّجهتُ إلى مرآة الحمّام، لأرى ماذا يحدث: جزء من الشارب قد تساقط على الجانب الأيسر، والمنظر العامّ كان في حالة مزرية. حاولتُ أن أُعيدَه إلى مكانه، وأمشّطه، لكن اللاصق فَقَدَ فعاليّته، والشَّعْر كان يقاوم العودة لأوضاعه الأصلية.

احتفظتُ به في جيبي، ونزلتُ إلى الشارع، أخذتُ تاكسيًا من أمام باب غرفة بيع الجنس المثير، ووصلتُ به في الحال إلى المركز التجاري الفخم، حيث حلّاقي المعتاد. عند دخولي في عالم البشاكير والمعاطف البيضاء انتابني، فجأة، شعور بأني وصلتُ إلى كون مجهول. لم أدخل أبدًا محلّ حلاقة في الصباح، وبدا لي أن المحلّ يتمتّع في هذه الساعات بأبعاد مختلفة.

وبينما كانت يدان خبيرتان تُدلّكان المنطقة التي كانت كثيفة الشَّعْر، ثمّ باتت صلعاء، تأمّلتُ مرواح ومجيء الفتيات الشّابّات المرتديات معاطف بيضاء قصيرة، تكشف من تحتها، بإثارة مكثّفة، أجزاء من الملابس الداخلية، وأدركتُ أن الواقع يختبئ هناك بالأسفل طريقة اختباء الكون نفسها خلف لافتات الإعلانات المكتوبة أو النعي. الحلاّق لم يكن إلا ذريعة، كما الأخبار في الجرائد ليست إلا ذريعة أخرى.

تفحّصتُ عبر المرآة أمامي كلّ ركن بالمحلّ، مركّزًا بالذات في منطقة الحاجز الكبير الزجاجي الذي يفصل منطقة الذُّكُور عن الإناث؛ ومن بين فتحاته، رأيتُ ذيل حصان، وبشاكيرَ على أكتاف عارية، وسمعتُ ضحكات تأتي من جانب من الحياة، لا أتذكّر أني تعرّفتُ عليها أبدًا من قبل.

تنفّستُ بعمق، وكانت رائحة جنس، مثل رائحة فتحة حصّالة ابني. ورائحة صابون. عرضتْ فتاة أن تقلم لي أظافري، وقبلتُ. لم أسمح لنفسي أبدًا برفاهية من هذا النوع: طموحاتي كانت امتلأت بإدراك مجيئي لحلّاق غالٍ. لكنني الآن كنتُ أحتاج إلى أن يقلموا لي أظافري، لأني أوشكتُ على استيعاب أن جسدي كان موجودًا حتّى تعثر الأظافر على مكان لها، بطريقة طباعة الجرائد نفسها، من أجل الأقسام الصغيرة. انتهتْ فتاة تدليك الشَّعْر من عملها، وجاء في الحال الحلّاق الذي يهتمّ بي عادةً. بجانبه، على اليمين فوق كرسي، كانت (المانيكير) مشغولة بأصابعي الكونية. أحيانًا كانت تدعكها، لكنها بدت لي لمسات. كانت شقراء وبضّة مثل المرأة الشرقية في غرفة بيع الجنس المثير، أو الآليّينْ الذين كنتُ أشاهدهم مع أبي عند الخروج من الكنيسة. المعطف، القصير جدًا، كان مفتوحًا من عند الصدر، بحيث يسمح برؤية حاجز حمّالة الصّدر المنتصب.

هل آلمتُكَ؟- سألتني وهي تسحب جِلْدي.

خطر لي أن الواقع كان موجودًا فحسب، ليحتوي تلك الفتاة التي، يا للغرابة، تُشكِّل مع أظافري ورسائل قرّاء الجرائد جزءًا من هامش حياتي. وهامش حياتي هو مركزها، فكّرتُ، بينما كنتُ أُغمض عينَيّ لأتأكّد من أن الفتاة بداخلي: ورأيتُها بالفعل منكمشة ناحيتي، وأجبرتُها على التّحرّك بالممرّ الذي كان داخلي أيضًا. وفي ظلّ الممرّ كان معطفها يلمع مثل بطن يراعة، مثل شَعْرها الأشقر.

هل آلمتُكَ؟

لا.

في أثناء ذلك، كان الحلّاق يلومني منذ دقائق على إهمالي الكبير لشَعْري.

لا يزال شَعْركَ يتساقط من هنا- قال-. إمّا نُدلّكه بشكل متكرّر لتنشيط بُصيلاته، وإما في خلال عام سيصيبكَ الصلع التّامّ.

كان لديّ سفريات كثيرة هذا الشهر، عمل كثير.

حين انتهت (المانيكير) من تقليم أظافر أصابعي، وانصرفتْ، أخرجتُ الشارب من جيب الجاكيت، وأريتُهُ للحلّاق. قلتُ:

انظرْ للكارثة. بالإضافة لذلك، سقط جانبه الأيسر.

وضعَهُ الحلّاق بين يَدَيْه، وأومأ إيماءة ألم، كأنه يتأمّل حيوانًا صغيرًا يحتضر.

بما تغسله؟

لم تُخبرني بأني يجب أن أغسلَه.

الشارب مثل الشَّعْر المستعار، شيء في مرحلة تطوّر مُستمرّة. يجب العناية به، كما نعتني بأظافرنا وجِلْد شَعْرنا. سأنصحك بشامبو معيّن. معذرة دقيقة، سأقول لهم ليُصلحوه.

كان الحلّاق يرتدي أيضًا لباسًا خاصًا أبيضَ مليئًا بتعقيدات وياقات، تشير لتدرّجه الوظيفي الأعلى. وبينما كان يبتعد في اتّجاه الجزء النسائي بالمحلّ، رأيتُ عبر المرآة أن شَعْره بدأ في التساقط في مكان تساقُط شَعْري نفسه. ثمّ، وأنا أراقب من خلال المرآة منطقة لم أنتبه إليها من قبل، اكتشفتُ فتحةً في الباب، لم أتمكّن من تحديد مكانها الحقيقي. ومن الفتحة الصغيرة كنتُ أرى نوعًا من الأرائك ترقد فوقه امرأة بشَعْر قصير وماسك أخضر؛ وكانت فتاة بمعطف أبيض تنتف لها عانَتها، أو ربّما فَرْجها. وفجأة لَفَتَ أحدٌ لوجود الفتحة، فصُفق الباب في طَرْفة عين.

عاد الحلّاق في الحال، وبدأ يعمل في رأسي من جديد.

هل يمكن أن أسألكَ عن شيء؟

تفضّلْ، حضرتُكَ.

من أين تأتون بالشَّعْر لصنع الشَّعر المستعار؟

ابتسم لي الحلّاق في المرآة.

يجب أن نكون حذرين في ذلك؛ كثير من الزبائن يشمئزّون من البقايا العضوية، رغم أنها ضرورية. هل يحدث لحضرتكَ الشيء نفسه؟

لا، زوجتي تقضي يومها كله بين البقايا العضوية، هي طبيبة شرعية، وتحكي لي عن تشريح الجثث خلال العشاء. هذا مُجرّد فضول.

بعض الزبائن، خاصّة النساء، يعتقدون أننا نأتي بالشَّعْر المستعار من الجثث، هذه ليست حقيقة. ثمّة أناس يبيعون شُعُورهم مثل هؤلاء الذين يبيعون دماءهم. ستندهش لو عرفتَ أسعار هذه السوق. هناك استيراد كبير من جنوب شرق آسيا، لكنه لا يروق لي، نضطرّ إلى أن نعالجه، ليكتسب نسيجًا أوروبيًا.

تذكّرتُ فرج المرأة الشرقية المحلوق.

وهل يُباع أيضًا شَعْر العانة؟

ابتسم الحلاّق في اتّجاه صورتي في المرآة.

لا، إنه رقيق جدًا، لا يرى ضوء الشمس أبدًا. بالمناسبة لا يُسمّى شَعْرًا، مهما كان طويلاً، يُسمّى عانة. نحن ننتبه جيّدًا إلى مصدر المادّة الخامّ. نشتري من أفضل الأسواق، بالإضافة، نتلقّى تبرّعات كبيرة.

تبرّعات للشَّعْر؟

أجل، خاصّة من السّيّدات اللاتي يُقرّرن تقصير شُعُورهنّ بعد أن اعتنين به خلال سنوات طويلة، ولا يرغبنَ الآن في إلقائه في سلّة المهملات. يشعرنَ بالرضا لأن شخصًا ما سيستفيد منه. كثير من النساء الآن، بسبب العلاج الكيماوي، غدونَ صلعاوات.

وشاربي؟ من أين جاء شاربي؟

أتريد أن تعرف الحقيقة؟

نعم.

غيّر الحلّاق المقصّ الذي كان يعمل به، بينما كان يبتسم بوجه شرّير. ثمّ مال ناحيتي بإيماءة ثقة.

صنعنا شاربكَ من شَعْر ساحرة، وهي موجودة هنا الآن. جاءت، لنعملَ لها وجهها، ونتنف ساقَيْها. وعلى الماشي، قرأت لي الورق، لأننا سنفتح فرعًا جديدًا. احتفظ بالسّرّ.

ساحرة؟

حسنًا، رائية أو منجّمة، لا أعرف. كان لها برنامج تلفزيونيّ، إنها شهيرة جدًا. بياتريث سماريتاس. ألم تسمعْ عنها؟

لا.

كان شَعْرها طويلًا جدًا، يصل حتّى خصرها، وكان أسود من الأسفلت. قصّرتُه، لتُجدّده، وتبرّعت به لنا. عملنا منه ثلاثة شُعُور مستعارة.

وشوارب؟

شوارب لا، شارب واحد. وبالصدفة طلبتَهُ أنتَ في اليوم نفسه لقَصّ الشَّعْر، واستفدنا من هذا القَصّ. نادرًا ما نتلقّى طلبيات بشوارب، لكننا نصنعها بمهارة.

بياتريث ماذا؟

سماريتاس، بياتريث سماريتاس. أتريد أن أعرّفكَ بها؟ إنها في هذه الغرفة.

أشار الحلّاق إلى نقطة في المرآة، رأيتُ منها من قبل امرأة على أريكة. أدركتُ حينها أن الانعكاس كان يأتي بدوره من انعكاس مرآة أُخرى، من هنا كانت صعوبة أن أحدّد مكان الباب.

هل تحبُّ أن تتعرّف عليها؟- ألحّ-. سيُسعدها ذلك.

تردّدتُ لثوان.

لا، الآن، لا. لكنْ، هاتِ لي بطاقة لها.

عدتُ إلى الشّقّة بالشارب بعد تصليحه، وحفظتُهُ في علبة سوداء مثل علب الـ (هارمونيكا) أو النعش. عدتُ كذلك بشامبو مخصّص للاعتناء بالشارب نفسه، وببطاقة مكتوب فيها: بياتريث سماريتاس، منجمّة نفسية، قراءة الكَفّ والتنجيم والـ (تاروت).

هاجمني وسواس بأن أهاتف الساحرة، لأحجز لديها ساعة، لكني قرّرتُ أن أترك الرغبة للتكاثر حتّى تبلغ بُعدًا كونيًا. عندما لبستُ الشارب، أضاء في رأسي صالون الحلاقة، وانفتحت من جديدة الفتحة التي طللتُ منها على بياتريث سماريتاس وهي بماسك أُخضر، يخفي وجهها. وتذكّرتُ ساقَيْها. كان محلّ الحلّاق، من مكاني في الذكرى، يبدو نسخة مضبوطة تمامًا من الفردوس: كان مُترَعًا بشَعْر النساء وفتحات صُدُورهنّ والبشاكير النظيفة، وكان البخار الناتج عن الماء الساخن يحتوي جزيئات من الجنس المعطّر. قرأتُ نشرة الشامبو المخصّص للشَّعْر المستعار، وبدا لي أن محتواه مثير للقلق مثل إعلان مكتوب جيّدًا، على الأقلّ كانت فائدته الوحيدة هو الاعتناء بالطبيعات الميتة. قرّرتُ أن أستخدمه أيضًا لأغسلَ رأسي.

كرّستُ الأيام التالية لتعزيز الروتين السابق. كنتُ في انتظار شيء، وكنتُ أعرف أنه يجب أن يكسر روتينًا مستقرًا حتّى أتمكّن من معرفة وصوله. وعند وصولي إلى الشّقّة كلّ صباح، كنتُ أترك الجرائد في الصالة، وأدخل السرير. هكذا، وفيما كانت الحياة تضجّ في شقق الجيران، كنتُ أغامر أنا خلال ساعتَيْن أو ثلاث في أحلام آخر، إذ كنتُ أحلم لابسًا الشارب. وعند اليقظة، أظلّ لبرهة بين الملاءات جامعًا نثريات تلك المغامرات، ومستمتعًا بكسل كوني تورّطتْ فيه مناطق جسدي الأكثر عُمقًا. ثمّ أغسل جسدي، أو آخذ دشًا، حسب الوقت الذي كرّستُهُ للكسل، وكنتُ أغسل شَعْري بشامبو الشارب بدقّة، كأني أتبع روشتة طبّيّة.

المُلفتُ أن الشَّعْر بدأ ينبتُ في المكان الأصلع. تأمّلتُ الظاهرة في البداية بحركة ارتياب كونية، لكني كلّما تطلّعتُ إلى نفسي في المرآة، ورأيتُ أن البُصيلات النابتة بعد المرّات الأولى من الغسيل تتحوّل إلى شَعْر حقيقي، أدركتُ أن شامبو الشارب يتمتّع بخصائص سِحْرِيّة، إذ بدأتْ تحدث بعض الأشياء التي من أجلها صنعت هذا الروتين الحلو رغم أنه شديد القسوة. حقيقة أنه مُجرّد حدث شَعري، هامشي، لكنه يضمّ في داخله، بلا شكّ، الإعلان عن نبوءات أخرى ربّما تنكشف بطريقة أكثر رقّة.

بعد الحمّام أو الدّشّ نشّطتُ ذهني بقراءة الإعلانات المكتوبة والنعي

بنظرة مترقّبة ومرتابة لمَنْ يتجوّل أطراف مدينة مجهولة. ضواحي الجريدة كانت تستحضر ضواحيّ، تلك الضواحي التي جئتُ منها. ومنها يمكن بلوغ المركز، إن تعلّمت جيّدًا قواعد اللُّعبة. وأنا بلغتُ المركز، حتّى ولو كنتُ الآن خارجه مؤقّتًا. كنتُ أدخل، إذنْ، للإعلانات المكتوبة بالشَّغَف نفسه، وبالحماس نفسه المُتطلّع الذي تجوّلتُ به في زمن آخر شوارع حيّ، وبالشغف والحماس نفسَيْهما، وصلتُ إلى المكان المهجور نفسه. لم يكن ثمّة مخرج، والحقّ أن أغلب الناس ظلّ بالداخل. مع ذلك، كنتُ في كلّ مرّة أصل إلى الفراغ، أعود إلى الوراء، وأطوي الطريق مجدّدًا بعقيدة عمياء بأن إحدى هذه الطُّرُق، بمُجرّد اللّفّ إلى الناصية المعتادة، سيفتح أمامي، مثلاً، شارع Fifth Avenue بنيويورك. وبالفعل انفتح. آخر مرّة كنتُ في نيويورك في مهمّة عمل، ساقتْني فطرتي الهامشية إلى شارع، يشبه جدًا شارع طفولتي: عيون المشاة اليائسة كانت تحارب نظرة الشبابيك الغامقة التي كانت، كما الثقوب، تنفتح في واجهات البنايات. كان بلاط الشارع مكسورًا وجِلْد الناس مُقنفِدًا. وبدأ الغروب، وشعرتُ بالخوف، إذ كنتُ أعرف أن تلك الشوارع لا تؤدّي إلا إلى مكان مهجور، لا يعيش فيه إلا الفئران. حينئذ اقترب شخص، وطلب منّي مالًا باللغة الإسبانية، وبفضل حيلة قديمة، تصنّعتُ أني أحمق، أبله، بالسرعة نفسها لحيوانات تتصنّع الموت، لتصرف عنها مُلتهمِيها. أما مُلتهِمي، فقد ابتعد في الحال، رغم أنه لم يتوقّف عن متابعتي من بعيد لبرهة، إذ ارتاب في ملابسي التي تتعارض مع ملابس بلهاء الحيّ. في النهاية، أعادني، بمعجزة، شارعٌ دخلتُهُ صدفةً إلى المركز، وأدركتُ فجأة أني في نيويورك مرّة أخرى، وأني كنتُ ناضجًا. شارعي، في النهاية، شارع طفولتي، قادني إلى مانهاتن، لأني لم أستسلم. وساعتها لم أكن أحتاج إلى إنكار تلك الأحياء، ولا إنكار ذاتي،

لأنها مثل الإعلانات المكتوبة والنعي كانت ضواحي لكونٍ ما، وبرؤية الأشياء من هذا المنظور الكوني، التفتُّ لأهمّيّتها التي تضاهي أهمّيّة أظافر القَدَم أو صحراء الظَهْر. وبعثوري على الباب المناسب، بلغتُ الصدر. وكان Fifth Avenue.

كنتُ أمسك بيدي دائمًا رَقْم هاتف بياتريث سماريتاس، كما المجرم يمسك بمسدّس، لكني لم أستخدمْه، ففطرتي كانت تُخبرني بأن اللحظة المناسبة لم تصلْ بعد. مع ذلك، كنتُ أفكّر كثيرًا فيها، في ساقَيْها الطويلَتَيْن المفرودَتَيْن على أريكة النتف، وفي الماسك الأخضر الذي تخفي وراءه وجه العرّافة. وفيما كنتُ أستحضر صورة بياتريث، كنتُ أتحسّس بطَرَف لساني الشاربَ المصنوع من شَعْرها، مُنقّبًا تحديدًا في حدوده المتّصلة بلحمية الشّفة؛ حينئذ تجلّى لي قَفَا لاورا العاري، والغامق رغم ذلك، والفرح اللامع لفتاة الجنس الشرقية. وحين كنتُ لا أحتمل أكثر، كنتُ أنزل إلى المحلّ الجنسي ذي المواعيد المتواصلة كالمحلات الكبيرة، وكنتُ ألعب مع العروسة الصينية التي كانت حركاتها، بفضل تعليماتي وصبري، تغدو متشابهة مع الوقت لآليّي طفولتي، وهو المشهد الوحيد الذي شاهدتُ فيه أبي مبهورًا. وبالإضافة لحصولي منها على حركات ميكانيكية ممتازة في محاكاتها، تمكّنتُ من أن أُحوّلها بالتدريج إلى كلبة، إلى فأرة، إلى ثعبان، إلى جعران وسلحفاة، من بين حيوانات أخرى تتمتّع بجنس كوني. أحد الحيوانات القليلة التي لم أطلب منها أن تمثّلها كان الخنزير، لأن هذا الدور حجزتُهُ لنفسي: كان ثمّة اتّفاق ضمني بموجبه، عندما تبلغ اللُّعبة حدًا بعينه، تلتفت هي نحو جانب الفاترينة، حيث أتطلّع إليها، وتصرخ فيّ:

خنزير أوروبي.

وحينها كنتُ أقذف بشكل كوني في منديل المطبخ المدفوع أجره، وقبل الخروج، أُلقي بالمنديل في سلّة تضمّ ماءً، أو ربمّا، لرائحتها، سائلًا مُطهّرًا ما.

كنتُ أتغدّى في الشّقّة عمومًا، حيث كان مطبخها يمتلئ رويدًا رويدًا بالتموين، فيما كنتُ أستسلم لمرافقة ضجيج التلفزيون رغم أني لم أكن أشاهده. كنتُ أكرّس هذا الوقت لتخيُّل أوليجاريو، رجل الشارب، ومغامراته السّفاحية، مغامرات كنتُ أحكيها لابني. وبالفعل، أنجبتْ أخت أوليجاريو ابنةً منه، وكبرتْ سريعًا، وغدتْ أجمل شابّة في المكان. وسريعًا ما بدأت تعاني من تحرُّش المعجبين الكثيرين، كما عانت أمّها في زمن آخر، لكنها كانت ترفض الجميع، كأنها في انتظار شخص متأكّدة من وصوله. والذي وصل، بالطبع، كان أوليجاريو، إذ بعد أن أرهقَهُ بيع الموسوعات في المدينة، قرّر أن يلبس شاربًا، ويعود. والشّابّة أعطتْه يدها، وتزوّجا في حفل مهيب.

كنتُ أتغدّى خارج الشّقّة مرّتَيْن في الأسبوع، لأحافظَ على علاقتي بالمطاعم الغالية، وهي أحد انتصاراتي الأهمّ في حياتي العملية. في ذاك اليوم، رحتُ لمطعم إيطالي يقع في المركز التجاري نفسه، حيث يقع الحلّاق. المناضد كلّها كانت مشغولة بمُديرين، رغم وجود نساء أيضًا ملفوفات في ورق هدايا. أكلتُ بضمير، وتذوّقتُ كل شيء، ولأُبدي بَذَخي، طلبتُ من النادل قطعة (تشيز كيك). عند دَفْع الفاتورة، فزتُ في قرعة إليكترونية برعاية بطاقة (الفيزا) برحلة لشخصَيْن إلى جزيرة ماديرا.

عدتُ إلى الشّقّة مسرورًا بضربة الحظّ هذه، وبدتْ لي علامة جديدة. في البداية ولا حتّى فكّرتُ في القيام بالرحلة، خاصّة أني لا أعرف ما هي ماديرا غير أنها جزيرة، لكنْ، في تلك الليلة، وبعد أن نام دابيد، واطّلعتُ في الموسوعة على أيّ نوع من الجزر هي، بدا لي أنها مكان لا واقعي، أو بمعنى أفضل أوتوبيوجرافي، إذ قصّة الجزيرة وقصّة حياتي متشابهتان جدًا. فاجأتني لاورا وهي تُطلّ برأس مائل فوق الكتاب، وتتحسّس شَعْري الذي بدأ يغطّي منتصف رأسي.

مستحيل، الشَّعْر بات ينبتُ في نصف رأسكَ- قالت.

إنه ترقيع- أجبتُ وأنا أرفع رأسي من الجزيرة.

قعدتْ بجانبي، وشدَّتْ شَعْري حتّى شكوتُ.

تقصد أنه زَرْع- قالت فذكّرتْني بفرج المرأة الشرقية المحلوق: كان فَرْجها وقَفَا لاورا وجِلْدي المُشعِر كأنهم من الأرض نفسها، لكنْ، في ظروف جوّيّة مختلفة. مثل ماديرا التي يرجع اسمها لغابة كثيفة، اختفت الآن. هل هي جزيرة محلوقة الشَّعْر؟ كان مناخها، المختلف بدوره عن مناخ قَفَا لاورا وفَرْج امرأة الفاترينة، مُلفِتًا، رغم أن الأكثر لفتًا كان سقفًا من السحابات يستقرّ فوق الجزيرة لعدّة أشهر في السنة، مثل مرآة أو مثل تهديد. أثارتْ فضولي فكرة الجزيرة المحلوقة، المرتبطة بأراض أخرى عضوية، بحيث مرّرتُ يدي من تحت تنّورة لاورا بدافع البحث عن شيء، أودعتُهُ هناك منذ زمن قديم.

إلى ما تنظر؟- سألتْ.

لو هَزَزتِ مؤخّرتكِ قليلاً سأقول لكِ.

هزّت لاورا مؤخّرتها، ومن دون أن أتوقّف عن الاستكشاف، حكيتُ لها أني كنتُ أجمع معلومات سكّانية عن ماديرا، حيث تفكّر مؤسّستي أن تفتح مصنع ورق هناك، وقد أُضطرّ للسفر إليها قريبًا لعمل دراسة ميدانية لمواردها البشرية.

إنها جزيرة بركانية، مثلي، ومحلوقة، مثل قَفَاكِ - أضفتُ.

إن كانت محلوقة، من أين ستستخرجون الخشب لصنع الورق؟

سنرى. هزّي مؤخّرتكِ مرّة أخرى. هكذا.

أبعدتُ السروال الداخلي قليلاً، وواصلتُ البحث عمّا فقدتُهُ. هي

مالتْ قليلاً، وسندتْ كُوعَيْها إلى الموسوعة، وحرّكتْ لسانها خارج فمها، في اتّجاه صورة الجزيرة، كأنها تشير إلى شيء. استسلم نهداها بثقلهما كليهما، من تحت البلوزة، إلى نزق الجاذبية.

لماذا تحبّينني؟- سألتُ.

أكمِلْ- قالت وهي تحاول الضغط على أصابعي بين فَرْجها.

وأنا واصلتُ العَبَث بسروالها الداخلي، كأن شيئًا رطبًا قد كُتب في هذا النسيج، ويثير قلقي. شعرتْ لاورا بهيجان متوهّج، وطلبت منّي أن أحملها إلى غرفة النوم. حينئذ، سحبتُ الممرّ الذي كان بداخلي إلى الخارج، وبمُجرّد اجتيازه من خلال غيمات تشبه جدًا الغيمات التي تهاجم ماديرا، بلغت الغرفة. هي دفعتْني إلى السرير، وشعرتُ بأني لا أريد شيئًا آخر، هكذا سيطرتُ على إثارتي، واقتربتُ من غرفة دابيد، لأتحقّق من أنه يغطّ في النوم. على أيّ حال، بعد أن مسّدتُ على رأسه سريعًا، أمسكتُ بالحصّالة من على الرّفّ، وتشمّمتُ رائحة عضو الفتحة المعدنية. لكنْ، فيما أفعل ذلك كله، كنتُ أفكّر في ماديرا التي يبدو أن لها شكل الكِلية، وتتمتّع بتنوّع كبير في النباتات الكبدية، رغم أنها تفتقر إلى الشواطئ والثدييات. وبحسب الموسوعة، كانت الجزيرة قمّة بركان غارق بعمق في المحيط، ونُقلت من الغرب إلى الشرق عبر سلسلة جبلية مرتفعة، تقطعها وديان عميقة، كانت تمنح للمنظر مشهدًا لا واقعيًا أو فانتازيًا، جريئًا جدًا في الأحوال كلّها، مثلي أنا تمامًا عندما ألبس الشارب. فكّرتُ في ثلاثة أيّام كاملة أقضيها هناك، بشارب ألبسه أربعًا وعشرين ساعة بجانب تلك السواحل الحجرية والصخرية. كانت قاحلة من الداخل، وكانت القرى والنجوع متجمّعة عند الساحل، بجانب مصارف الوديان. أكثر من كونها جزيرة، كانت تبدو كاستعارة.

حين عدتُ إلى غرفة النوم، سخرتْ منّي لاورا بتأثّر كبير.

لديكَ متلازمة الآباء الكبار- قالت-: يعتقدون أن أبناءهم قد يتبخّرون أو شيء هكذا، ويحتاجون إلى رؤيتهم من حين لحين.

ابتسمتُ مُذعِنًا، بينما كنتُ أتجرّد من ملابسي. قلتُ:

الآباء كلّهم الآن كبار نوعًا ما- ودخلتُ السرير عاريًا، وسألتني لاورا، وهي تعانقني في الحال:

وأنتَ، لماذا تحبّني؟

وأنا غمضتُ عينَيّ، لأسافر إلى ماديرا، بينما كنتُ أُجهّزَ إجابة.

حينها رأيتُ داخل نفسي بابًا صغيرًا، له هيئة باب لم يُفتَح أبدًا. أزلتُ العنكبوت، ثمّ دفعتُ الورقة لأرى ما الذي يمكث في الجانب الآخر، وفجأة عرفتُ أني ميت. بالإضافة لأحمق، ميت.

أحبّكِ لمهنتكِ- قلتُ-. تُحلّلين الأجساد، الأكباد، الكِلى الخالية من حياة، الجثث أو قِطَعًا من الجثث. ويروق لكِ.

نعم- قالت بمكْر.

لذلك تحبّينني، لأني ميت، خطر لي ذلك في الحال.

كيف ذلك؟

من دون أن أتخلّى عن تظاهري بأني في الخارج، بجانب لاورا، استمرّيتُ في بحثي الداخلي، في المكان الرطب الذي قادني إليه باب، ظلّ مغلقًا

لزمن طويل، ومن خلاله، وصلتُ في الحال إلى مدخل بيت طفولتي الرطب. بإيجاز، ما حدث في ذلك الزمن البعيد كان ما يلي: ثمّة أختان عازبتان، في السّنّ نفسها تقريبًا، والقوام ذاته، كانتا تعيشان في الشّقّة المجاورة لنا، وكانتا ترتديان فساتين متشابهة. ومن دون أن تكونا توأمين، كانتا متشابهتَيْن عمليًا، بسبب هذه العملية المعقّدة التي توصّل المرء إلى التحوُّل إلى أكثر ما يبغضه. مع ذلك، كانت شخصية كلّ منهما على الطرف النقيض من الأخرى: كلّما اجتاحتا أرضًا عضوية، يشتدّ فيها تشابههما، كانت كلّ واحدة تُسمِّرُ فيها عَلَمًا، يحمل مَلْمَحًا من شخصيّتها المختلفة. كانتا برهانًا على أن السّمّ والعطر يمكن أن يتعايشا في الزجاجة نفسها، وتُقوّضان يقينًا عامًا بأن الوجه مرآة الروح: واحدة كانت طيّبة، في النهاية، والأخرى شرّيرة. لكنْ، حين كنتُ أرى أيًا منهما منفردة، على السّلّم الرطب أو في الشارع المكسور، كنتُ أستغرق برهة لأميّز إن كنتُ أمام إميريتا- الطّيّبة-، أم أمام باكا- الشرّيرة-. هكذا، عندما كنتُ ألعب في مدخل البيت، وأرى إحداهما نازلة على السّلّم، كنتُ أراهن نفسي رهانًا داخليًا: "هي باكا، وإلا سأصلّي صلاة الريبة ثلاث مرّات"، أو "هي إميريتا، وإلا سأصلّي السلام عليكِ، يا مريم، ثلاث مرّات". مع باكا كنتُ أراهن دائمًا على صلاة الريبة، بينما مع إميريتا كنتُ أصلّي السلام عليكِ، يا مريم، ربّما لأن الريبة كانت تبدو لي جافّة مقارنة بعذوبة السلام عليكِ. الحقيقة أنه مع مرور الوقت كانت أهمّيّة الصلوات تتضاءل، هكذا غدوتُ أرفع قيمة المراهنات حتّى وصلتُ ذات يوم إلى المراهنة على حياتي: إحداهما كانت تنزل من تلك السلالم التي ربّما لم أخرج منها، وأنا كنتُ ألعب في المدخل بعلبة أحذية، أحدثتُ فيها ثقبًا، فقلتُ لنفسي: "هي إميريتا، وإلا سأدفع حياتي". ثمّ انتظرتُ بوجه ساذج وبغصّة في حلقي أن تقترب، وحين وصلتْ بمحاذاتي، ركلتِ العلبة، وقالت:

ابتعدْ من هنا، يا معتوه، دائمًا أنتَ مُزعج.

وكانت باكا، وأنا أصبحتُ ميتًا. لذلك أيضًا ينبتُ شَعْري، لأن الأموات تنبتُ شُعُورهم خلال فترة، خاصّة لو أكلوا الكثير من البصل، وفي بيتنا، كنتُ آكل الكثير من البصل. إذنْ، أحبّكِ من أجل ذلك، يا لاورا، لأن أكثر ما يتطلّع إليه أيّ ميت هو أن يتزوّج من طبيبة شرعية، تُشرِّح له جثّته كل يوم. إنه زواج ثياب ممزّق بترقيعة نفسه. غير أن حكاية باكا وإميريتا لن تنتهي هنا. في النهاية، بالنسبة لطفل مثلي، جعل من النظرة المصدر الرئيس لمعلوماته حول الواقع، كان منظر الأختَيْن يتمتّع برعب مُبهِر. أحيانًا، ومن نافذة غرفتي، ومختبئًا وراء خطوط الستارة كَلصٍّ يسرق الصور، كنتُ أشاهد إحدى الأختَيْن تنشر الغسيل دون أن أتمكّن، أقول لنفسي، من التّحقّق إن كانت الأولى أم الأخرى. وفي هذ التّشوّش، أفكّر الآن، كنتُ أقرأ تشوّش العالم الذي لا نعرف إن كان طيّبًا أم شرّيرًا حتّى يُطبطب علينا أو يمُزّقنا، وفي الأحوال كلّها لا يَحدث ذلك إلا متأخّرًا جدًا. هكذا، عندما كنتُ ألتقي واحدة من الأختَيْن، كنتُ أجهل أيّهما هي حتّى تمسّدَ بيدها على شَعْري برقّة، أو تبصق عليّ ببذاءة. ولولا أني رأيتُهما معًا في أكثر من مناسبة، لربمّا فكّرتُ أنهما جسد واحد بهويّتَيْن مختلفَتَيْن. الرعب، ربمّا، كان يكمن في الحيادية الظاهرة، وهي أيضًا حيادية أن تتقنّع الحياة لتصفعَنا بصفعات أشدّ قسوة. في النهاية، بعد قليل من هذا الرهان الذي خسرتُ فيه حياتي، وذات يوم كنتُ عائدًا فيه من المدرسة، رأيتُ في المدخل لافتة بحجم ورقة نَعي، تُعلن وفاة إميريتا، الطّيّبة. وعند صعودي للبيت، كان أبي يُعلّق التعليقات المعتادة عند مواجهة أيّ موت مفاجئ، غير أن أمّي، فجأة، أدخلتْ للحوار مزحة، تحمل أيضًا رغبة متوارية. قالت، ربمّا لأنهما متشابهتان، قد أخطؤوا، وكانت الميتة هي باكا. وأنا تشبّثتُ بهذه

الفرضية، لأنها فكرة غير مُحتمَلَة ألا أشاهد عند السّلّم في المستقبل إلا المرأة الشرّيرة. كان ذلك مثل تخيُّل مصير لا يحوي إلا جانبه المرير، إذ كان التبادل بين الطّيّبة والشرّيرة قد مثّل حتّى تلك اللحظة التبادل بين الفوز والخسارة، وبهذا المعدّل كانت الأشياء تقريبًا تتراوح ما بين الخير والشّرّ، وباختفاء الطرف اللطيف في هذا التتابع العشوائي بدا لي أن الشّرّ مؤبّد.

قرّر أبَوَاي أن يجتازا بسطة السّلّم، ليعزّيا الأخت الحيّة، وأنا التصقتُ بهما متمتّعًا بالاختفاء الذي يكتسبه الأطفال حينما يناسبهم. فتحت الباب باكا الحيّة بالطبع، وتحدّثت معنا على البسطة، من دون أن تدعونا إلى الدخول. أبَوَاي قالا كلمات السلوى المعتادة، وتصنّعا الاهتمام بملابسات الوفاة، فيما لم أعِرْ أنا أيّ اهتمام لذلك كلّه: لم أكن أنتظر إلا سؤال أمّي لها إن كانت متأكّدة من أن المتوفّاة هي إميريتا، وليست مَنْ تُحادثنا في تلك اللحظة. وبشكل لا يُصدّق، كان الوقت يمرّ دون التّوصّل لطَرْح هذه المسألة الحاسمة لمستقبلي. نهاية، عندما أدركتُ أنهم لن يزيلوا هذا الغموض، طرحتُ أنا السؤال بنفسي:

وهل أنتم متأكّدون من أن المتوفّاة هي إميريتا؟

تلقّيتُ في الحال لكمة، غيّمتْ بصري، أكثر الأعضاء التي أُقدّرها. خشيتُ أن أكون دخلتُ مرحلة ملعونة، ربّما تستغرق حياتي كلها، لكنها لم تكن كذلك؛ ومنذ ذلك الحين، كلّما اختبأتُ وراء نافذة غرفتي، كنتُ أرى باكا، كنتُ أتأمّلها ملهوفًا باستغراب مَنْ يتأمّل جثّة، من دون أن يراه أحد. في نهاية المطاف، كنتُ أنا ميتًا أيضًا، وكان يلائمني أن أعتاد على أهل هذه المملكة. لذلك، حين كنتُ أتقاطع معها على السّلّم الرطب، أو في الشارع المكسور، كنتُ أحاول إقناع نفسي بأني أتقاطع مع ميتة.

ولم أكن أدري إن كانت تلك فعْلَتي أم فعلة الحياة، لكن الحال أن باكا بدأت تموت بالفعل، وراحت إميريتا، الطّيّبة، تنبت عبر ذاك الجسد رويدًا رويدًا، في عملية بطيئة، لكنها ملحوظة، حتّى إنها لفتت أنظار الكبار.

منذ ماتت إميريتا تغيّرت باكا، تحاول أن تكون أكثر لطفًا. لابدّ أنها تشعر بوحدة كبيرة-كانت أمّي تقول-.

لكني كنتُ أعرف أن الحكاية ليست هكذا، إنما، لأنهما متشابهتان، أخطأ الموت، واختار إميريتا، والآن يأتي ليُصحّح خطأه بأكثر الطُّرُق سرّيّة. عرفتُ أن عملية الموت والبعث قد اكتملت ذات يوم حين تقاطعت خطواتنا في المدخل، وبدلًا من رَكْل علبة الأحذية، ربتت بيدها على شَعْري، بكلّ حنان، كما كانت إميريتا تفعل، فيما كنّا نتبادل نظرة تواطؤ تقول إننا، أنا وهي، نعرف الحقيقة.

في حالتي، ربمّا بدأتُ أتصنّع الحماقة، التّخلّف، حتّى يعبرني الموت حين يأتي ليُحصّل دَيْنَهُ. لا أعرف بالتحديد إن عبر بالفعل أم أن شخصًا آخر بدأ ينبتُ بداخلي، كما حدث لجسد باكا، فاحتفاظي بملامحي لا يعني، مع ذلك، أني أنا. لأن تخلّفي، أفكّر في هذا الآن، لم يظهر إلا متأخّرًا، وحين وصلتْ من أحياء أخرى كلماتٌ مثل شخصية، لم أكن أفهم ما معنى أن يكون لديكَ شخصية، ولا حتّى أفهمها الآن.

التفتُّ وتحقّقتُ من أن لاورا كانت قد نامتْ. حينها، هجرتُ المكان الداخلي، من خلال الباب الذي دخلتُ منه، وبدأتُ أحلم بـ ماديرا التي ترتاح قواها الصخرية في نعيم، بحسب الموسوعة، من دون أن ترى في أيّ نقطة بأرضها أعمدة من الدخان، ولا ينابيع ملتهبة، ولا حفرات نشطة. وكان المناخ صحّيًا، والمحيط الذي يطوّقها كان يُغرِقُها في أبخرة طوال العام.

في اليوم التالي، جلستُ في سريري برشاقة جثّة، وبينما كنتُ أحلق ذقني وشاربي، لألبس الشارب المستعار، قدّرتُ بجدّيّة احتماليةَ أن أكون ميتًا، أني أحمل بداخلي ميتًا منذ أربعين عامًا في النهاية، من دون أن أنتبه لهذا الظرف، بالطريقة نفسها التي نسيتُ بها أني أبله حتّى رفدوني من المؤسّسة. في تلك الحالة، قد أكون ميتًا كونيًا، ما يفتح أمامي المجال لأتصرّف براحتي، لأن داخل الميت كان يسع لأشياء أكثر من داخل الحيّ. هكذا، كلّما غمضتُ عينَيّ لا أرى السّلّم الموسيقي الذي يُشكّل دكك الكنيسة فحسب، حيث كانت ترقص العلامة الموسيقية المكوّنة من مؤخّرة أمّي، إنما أيضًا فاترينة المرأة الشرقية ومدخل بيتي المظلم والشارع. الشارع أيضًا كان بداخلي، والممرّ والآليّون. وكان بوسع الميت أن تنبتَ له إرادة، وأن تتمدّد كالدخان، وتضمّ جزرًا وقارّات في نعش الجثّة.

حين وصلتُ إلى الشّقّة، رميتُ نفسي على السرير، من دون خَلْع ملابسي، وفكّرتُ في ماديرا، لكني فكّرتُ أيضًا في بياتريث سماريناس، الساحرة التي منها يأتي شاربي، وفي المرأة الشرقية والإعلانات المكتوبة. من أين أبدأ. كانت الشّقّة باردة والشراشف رطبة، كأن أبخرة ماديرا أو عَرَق جدران مدخل بيتي أصابتْها بالعدوى. الآن كل شيء كان قريبًا، لأن كل شيء كان بداخلي. لم يكن الواقع إلا منطقة بالجسد، ربمّا في ركن ما من التفكير؛ كان يمكنني التّحرّك فوق الواقع مثل التّحرّك فوق الأظافر أو

تمسيد الشَّعْر. وكان بوسعي أن أبتر نفسي من الواقع، إن أردتُ أو إن رأيتُهُ مناسبًا. كان يكفي أن أقصَّ من هنا أو هناك، حتّى الألم. حينها أشعر بألم بسيط في ضرسي، وحين أتحسّس المنطقة الموجوعة بطرف لساني، كان يبدو لي أن الضرس الذي ألمسُهُ ضرسُ أمّي: ماتت أمّي منذ عام، ولا يزال ضرسها جزءًا من فمي، ربمّا أجساد الموتى تتبادل أعضاءها، وتنصهر فيما بينها بطريقة مختلفة عن الأحياء الذين اعتادوا على وضع حواجز، ومن العالم الآخر، تأتي أعضاء أو ربمّا يرتسم خطّ، يبدأ من جسدي إلى هناك، أو من هناك، وينتهي بكبدي. أزهار كبدية. ولو نهضتُ الآن لأنظر لمؤخّرتي في المرآة، ربمّا أجد أيضًا مؤخّرة ماما.

حرّكتني هذه الأفكار، هكذا هبطتُ إلى الشارع، واشتريتُ من صيدلية الناصية علبة سراويل داخلية ورقية، كنّا نصنعها في مؤسّستي، وهي مؤسّسة تابعة للدولة، وأقول إني لم أكن من قبلُ أفهم الدولة، لكني منذ غدوتُ ميتًا وأبلهًا وبتّ أتمدّد لأُشكّل شبكات متداخلة مثلها، صرتُ أفهمها أفضل، وأدرك أن الدولة تخلّتْ عنّي، فاشتريتُ سروالًا داخليًا ورقيًا، ودخلتُ محلّ الجنس المثير، واتّصلتُ بالفتاة الصينية، وعندما ظهرتْ في الجانب الآخر من الفاترينة، ومرّرتْ لي عبر فتحةٍ قطعةً من مناديل المطبخ المصنوع أيضًا في مؤسّستي، المؤسّسة الحكومية، حتّى أقذف فيها، أعطيتُ لها في المقابل سروالًا داخليًا ورقيًا، وطلبتُ منها بالإشارات، لأنها لا تفهمني، أن ترتديه، وأن تُريني مؤخّرتها، وهي استدارتْ، وبدأت تهزّها بسروالها الداخلي، وكانت مستديرة أيضًا، مثل علامة موسيقية من تلك التي لا ذيل لها، لا أعرف إن كانت ثلاثية الأسنان أو ذات السّنّ(*)،

*) أشكال مختلفة في العلامة الموسيقية، الأولى تُسمّى بالإنجليزية thirty second note وبالثانية Eighth note(المترجم).

لا يهمّ، كانت نقطة، نقطة وجودي النهائية، رغم أنها أيضًا نقطة بدايتي. لو تأمّلتُ النظر، عبر الورق كنتُ أحدس أن مؤخّرتها مُجرّد نقطة مقسومة لنصفَيْن، بينهما ثقب كبير أو هوّة، سلسلة جبلية مقلوبة في النهاية، أسير فيها من الشمال للجنوب، وتقدّم احتماليات كثيرة مثل ماديرا التي كانت بدورها نقطة مفقودة في وسط الأطلنطي، حتّى لو كانت نقطة في شكل كِلية، كما أقول، أو مُترَعَة بأزهار أطلسية، ويمكن الدخول إليها من خلال بطاقة (فيزا) بمُجرّد ما تُدخِله في ثقب، يبصق عليكَ مالاً من ثقب آخر، بحيث قلتُ للصينية أن تلفّ، لأرى الثقب الأمامي الذي أراه من السروال الداخلي الورقي الحكومي، حينها انطفأ نور الفاترينة، لكني أدخلتُ البطاقة في الثقب، أو ربّما أدخلتُ عُملة، لا أتذكّر، فأُضيئت الفاترينة كما تُضاء محلات لُعَب الأطفال في ليلة الملوك المجوس، وإلى الملوك المجوس يجب أن أشير بشيء، لأنكَ من مكانكَ في الموت ترى أنهم حقيقيون لذلك، للحاهم المستعارة، والحال أن ثقب الصينية الأمامي يتمتّع بقوّة شمّيّة، كأنها تتنفّس من خلاله، هكذا كان الورق الحكومي يضغط على حافّتي شَفَتَيْه، وأنا طلبتُ منها أن تُبلّل نفسها، أن تُبلّل السروال الداخلي، هيّا، لتُمثّل حدثًا طقسيًا، وهي مالت بوجهها الشرقي، وعندما بصقتْ بمهارة وإصرار على السروال الداخلي الحكومي، أظلمت الفاترينة بعض الشيء، مثل الشارع، ومثل مدخل بيت طفولتي من أحد جوانبه، ولو كنتَ ذكيًا يمكنكَ أن تصل إلى نيويورك. أو إلى ماديرا. الحال أن العلامة الموسيقية لمؤخّرتي، والتي ربّما تكون مثل ضرس أمّي، نَبَتَ من جزئها الأمامي ذيل، حوّل المكان كله إلى علامة موسيقية، كما ينبغي، علامة موسيقية، لَفَفْتُهَا برقّة في منديل المطبخ الحكومي، لئلا يهرب منها أيّ سائل قبل الأوان، وحينئذ طلبتُ من الفتاة الصينية، دومًا بالإشارة، أن

تجرّد، أن تمزّق سروال الدولة كما النمور، لأنه كان من الورق، وأن تُمرّره لي عبر الفتحة. هي فعلتْ ذلك، وأنا وضعتُ في فمي بقايا الدولة المبلولة، وطلبتُ منها أن تتصنّع الاستمناء وحينئذ، أو في أثناء ذلك، بدأتْ تستمني حقيقةً، لأنها في الواقع كانت تتصنّع، مثل حالة الملوك المجوس مع اللحية، وفيما كانت تناديني بالخنزير الأوروبي، لأصل إلى النشوة، ركزتُ في فَرْجها بالقوّة ذاتها التي سأركز بها في وديان ماديرا العميقة، وأدركتُ بغتة أنها لم تكن تحلق فَرْجها، بل إن فَرْجها أجرد، مثل منتصف رأسي قبل أن أبدأ في علاجه بالشامبو المخصّص للطبيعات الميتة. أو أنه مثل ماديرا بعد حريق هائل، دمّر غابتها الشاسعة التي كانت تداري طبيعتها البركانية، طبيعة كانت تغلي، كما يقولون، سبع سنوات أو سبعين، لا أعرف، لكنه مجموع السنوات التي ظلّ قلبي خلالها يغلي قبل أن أنتبه إلى أني أبله، أو أني كنتُ ميتًا، ولذلك كنتُ أغلي سنوات طوال بجانب الأحياء المعاصرين، متّخذًا مواقف أخلاقية ووجهات نظر سياسية، حتّى نسيتُ أني مُعاق ذهنيًا، أني أبله. وفي لحظة نسيان ذلك، بالطبع، عدتُ لأكونه مجدّدًا، أقصد لأكون أحمقًا، واصطادوني. لكنْ، لأني الآن ميت، سيعرفون أني سأعود، حتّى لو كنتُ لا أعرف كيف، كما عاد أوليجاريو، رجل الشارب، ليتزوّج بالتوالي أمّه وأُخته وابنته، وسأضاجع كل ما يمكن مضاجعته، من دون وجهات نظر أخلاقية، ولا مواقف سياسية، مُتصحّرًا من هذا الفراغ الذي يُسمّونه ضميرًا، لأن الأكوان تفتقر إلى الضمير الأخلاقي، وأنا كنتُ كونًا مكتفيًا بذاته، أو يحتوي بداخله ذاته، ولا يفتقر إلى هذا الصوت، صوت الضمير الذي يتكفّل في الروايات بملء التجويف الأخلاقي الذي يُشكّل ضمير الحكاية، أو عدم ضمير الراوي، بحسب. المسألة أني بينما كنتُ أضغط على الكيلوتات الحكومية بين أسناني وضرس أمّي،

فكّرتُ أن أعطي للصينية، ذات الفَرْج الأجرد مثل سطح ماديرا، قليلاً من السائل، أقصد شامبو الشارب المستعار حتّى يعود إليها الشَّعْر. وحينئذ، أو في الوقت نفسه، قذفتُ، وانطفأ الضوء، لكني لم أُدخِل أموالًا أخرى في الفتحة، لأن المهمّة تمّت بالفعل، هكذا احتفظتُ بالسروال الورقي الحكومي في جيبي، وبينما كنتُ أُعيد ذيل العلامة الموسيقية إلى مكانه، اختفت الصينية وراء الستائر نفسها التي رأيتُ من خلالها اختفاء أهمّ الأشياء في حياتي، وأتذكّر الآن أنها كانت بالألوان ذاتها تلك الستائر التي اختفى وراءها تابوت أمّي، وتابوت أبي بالمناسبة (ماتا معًا في حريق عرضي) نفس ألوان الطريق إلى دكان حرق الجثث، يا للوفرة، أو الطريق إلى الجحيم، هكذا وأنا أراجع ستائر حياتي، خرجتُ لممرّ غرفة الجنس المثير، ولأوّل مرّة أتسكّع فيه، وأنا أتأمّل السلع المعلَن عنها على الحيطان، ثمّ توجّهتُ إلى مَشْرَب الحانة الداخلية بالمكان، وعندما هممتُ بطلَب قهوة، سمعتُ جملة استجوابية في ظهري:

ألا زلتَ تتصنّع الحماقة؟

التفتُّ، ورأيتُ رجلًا من سنّي، وفي مكان وجهه كرة ضبابية، أقصد لم يكن ممكنًا تمييز أيّ مَلْمح من ملامحه، رغم أنكَ في لحظة ما قد تميّز شيئًا مألوفًا؛ لم يكن، إذنْ، يحمل ضبابًا، بل كان وجهًا يذكّرني بـ لويس، أحد جيراني في الشارع، بل أكثر من ذلك، كان رئيس الشارع الذي كان ينظر إليّ بازدراء، كلّما لعبتُ دور الأحمق، وأظنّ من خلال هذا الازدراء، أو ربّما من ضحكته، بدأتُ أتعرّف على نفسي كأحمق، وبداية من ذلك الحين بدأ أيضًا مشروع خَلْق الذكي من هذا الأحمق. أقول كان لويس، وأنا كنتُ لابسًا الشارب، هكذا كان ذلك أوّل لقاء لـ "رجل الشارب" مع

ماضيه ذاته، وهذا ما عرفتُهُ فورًا كأنه إلهام. تصرّفتُ بلباقة، يا لويس، كم أوحشتَني! وهو كرّر العبارة، ولا يزال بتلك الإيماءة المتعالية التي يتخفّى وراءها مَنْ يعانون من إعاقة أكبر من إعاقتي بكثير، لكنْ، ربمّا لذلك وجد نفسه مضطرًا للتّخفّي بشكل أفضل، والحقيقة أنه لم يبدُ فيه أيّ سمتٍ لأحمق، وفي الواقع، كان أصلعًا، وهذا أعطاه سنًا أكبر، رغم أنه على الطريقة اليساريمقراطية، أقصد، بصحّة جيّدة. قال ماذا تفعل؟ وأنا قلتُ لا شيء، هناك صينية تُصيبني بالجنون، وآتي لتُرقِّص لي مؤخّرتها. حكيتُ له الحقيقة، لكنها مغلّفة. كنّا في كامل أناقتنا نحن الاثنَيْن، مع أني كنتُ بملابس مُجعّدة قليلاً، لنومي على سرير الشّقّة، وهو كان يلبس زرارين من الذهب في كُمَّيْه. كيف تسير أمورك؟ ألحّ، وفيما تعمل؟ لديّ مكتب هنا بأعلى البناية لأكون قريبًا من الفتاة الصينية، مكتب استشاري، لقد اشتغلتُ للدولة في مؤسّسة ورق، كما تعرف، كنتُ مسؤولاً عن خمسة عشر ألف وظيفة، لأني كنتُ مدير الموارد البشرية، كنتُ لحد هنا من المشكلات وبراتب حكومي، كما ترى، في النهاية وصل اليسار الديمقراطي، وبدؤوا في عمليات الخصخصة الجزئية، وكان يجب أن يعملوا، أن يُنظّفوا، كما تعرف، ويُخوِّفوا الناس، ثمّ يرفدونهم من أعمالهم، وكانوا يُسمّوننا نحن المسؤولين عن المُوظّفين باسم المفترسين. وأطلب ويسكي لا أعرفُ لماذا، فالجثّة الكونية لا تحتاج إلى ويسكي لتؤثّر في أبله، يومئ بإيماءة مخصّصة لمَنْ يشمّ رائحة الخراء طول الوقت، وخاصّة في الصباح، لكن ما حدث أني أطلب ويسكي، وأواصل، أقول، أو بمعنى أصحّ، أناور بحثًا عن مخرج، عن أموال، ثمّ أقيم شغلي الخاصّ. والحال أني أُنشئ عملي، وأعمل الآن من أجلهم، لكنْ، من الخارج، أكتب تقارير عن الوضع، مثلاً، أضطرّ إلى زيارة ماديرا، لأرى إن كان ممكنًا إنشاء مصنع ورق هناك بدعم

أوروبي، وجئتُ هنا لأُودّع الصينية، لأُودّع مؤخّرتها المُبهِرة. وأصمت قليلاً، لكن المَدعوّ لويس يواصل النظر بتعالٍ، كأنه ميت أكثر منّي، أو كأن ما أحكيه يبدو له قليلاً، في النهاية يقول إنه صديق مقرّب لرئيس مؤسّستي، مؤسّسة الورق، لكنه يقولها بطريقة، جعلتني أسمع أنه من عصابته، إنهما من العصابة نفسها هو ورئيسي، قانون العالم لا يزال قانون الشارع، شارعي، الشارع الذي كان هو رئيسه المطلق، وبات فردًا في عصابة. لم أعرف بماذا أجيب، لكني حينئذ ركّزتُ في صلعته اليساردیمقراطية، في رأسه، وأقول إن لدي منتجًا من أجلكَ، لإنبات الشَّعْر. تركيبة سرّيّة، لا أستطيع أن أضيف أكثر، انظرْ إلى منتصف رأسي، أقول، ركّزْ، كان متصحّرًا، ثمّ بدأ شَعْري يَنبتُ. لا أريد تسويقه الآن، لكنْ، سأعطيكَ القليل، لأنك من شارعي. مَنْ كان سيقول لنا إننا سنخرج من ذاك الشارع، قلتُ وأنا أفكّر في أن كلّاً منّا بالداخل، رغم أني أكثر منه ربّما لأني لا أستطيع السكوت، الويسكي، أظنّه الويسكي، لكن عينَيّ رائحة الخراء هذا لَمَعَتا مع إشارتي، لمُنبِّتِ الشَّعْر ،وهكذا استحوذتُ عليه، أعرف أني استحوذتُ عليه من شَعْره، ولم أُطلق سراحه، لأني بالإضافة رأيتُ أن مَنْ يدخل ويخرج يحييه، كأنه من روّاد المكان، أو كأنه رئيس عمّال. أتعرف الصينية التي أحدّثك عنها، فتاة المؤخّرة؟ عندها مشكلة صلع أيضًا، لكنْ، في فَرْجها. أقول، إن سحبتَها من الفاترينة للحظة، وعرّفتَها عليّ، أعطيكَ قليلاً من مُنبِّتِ الشَّعْر. ولويس يتكلّم مع شخص، وبعد قليل تظهر الصينية بتنّورة مقاس البتلة وحذاء يصل إلى الركبة وبلوزة بنفسجية، لها حمّالتان، تُحدِّدان وَرَمَيْن عاريَيْن، لم أتمكّن من فكّهما، بطريقة عدم تمكُّني من العثور في سراويل أحد على شيء، لابدّ فَقَدته هناك منذ زمن بعيد. إنها عروسة لُعبة، الفتاة البضّة ترسل لي قبلة، وأنا أقول للويس إني أتمنّى أن أراها خارج الفاترينة،

لكنْ، ليس الآن، لأني يجب أن أنصرف، حينها سيُسجّلون هاتفي، ويعطونني رَقْمًا يكون، في الوقت نفسه، كلمة السّرّ، ليسمحوا لها بالخروج عندما أطلبها، لا بدّ أنها صينية غير شرعية، هذا أفضل.

وأنتَ فيما تعمل؟ سألت في النهاية عندما انصرفت العروسة الصينية بينما، مثل أوليجاريو، أُقلّد إيماءة دفع المشروبات، رغم أنه طلب من النادل بحركة من أنفه ألا يحاسبني، وأشعل سيجارة، هكذا لم يكن ذكيًا جدًا، ولا يساريديمقراطيًا جدًا، إذ لم يستطع أن يتوقّف عن التدخين، فيما توقّفتُ أنا. يشعل السيجارة بقدّاحة من الذهب، بحجم علبة ساردين، وبعد أن يسحب نَفَسًا يقول لي إنه يدير شركة قابضة. بمعنى أنه يدير شركة قابضة بالتلقائية نفسها التي سأُسافر بها إلى ماديرا، بفضل قرعة بطاقة (الفيزا). يا للعظمة! أقول، شركة قابضة، وأنتبه، من دون أن أعرف لماذا، إلى أننا في منطقة من شركته القابضة. هذا المكان ملككَ؟ أسأله. مع بعض الأصدقاء، يجيبني. وألحّ، وماذا تعمل؟ ماذا تعمل أيضًا؟ مجلات، يقول، مجلات متخصّصة، أشياء عن العالم الآخر، وهذا هو نواة الشركة، مجلات عن العالم الآخر، الناس أصابها الجنون بالعالم الآخر منذ بداية احتضار القرن. وأنا كنتُ أشمّ رائحة شيء مقبل، لأن العالم الآخر هو الموت، وأنا، كما أقول، كنتُ ميتًا، ربّما من أجل ذلك تعمل زوجتي طبيبة شرعية، ورئيس شارع طفولتي يعمل في أشياء عن الضّفّة الأخرى. بالإضافة، كنتُ لابسًا شارب بياتريث سماريتاس، الساحرة، هكذا لو سألتُهُ إن كان يعرف بياتريث سماريتاس، سيبتسم بتلك الإيماءة التي تقول مستحيل أن تشكّ في ذلك. التفتُّ حينئذ إلى أن الويسكي يتسلّل لأنسجتي الدخانية، فأقرّر أن أتغطّى منسحبًا وناظرًا في الساعة بوجه مصعوق، لديّ أشياء يجب أن أُنهيها. يعطيني بطاقة، وأقول له سأتّصل بكَ عند عودتي من ماديرا. يقول

لا، سنلتقي غدًا، يجب أن تعطيني مُنبّت الشَّعْر. آه، معكَ حقّ، أقول، لن أسافر قبل الاثنَيْن، بالتالي نلتقي غدًا في الساعة نفسها، وبما أن المكتب بالأعلى، سأنزل لكَ دقيقة، وأعطيه لكَ. أخرج، أصعد لشقّتي، ولا أستطيع حتّى، من استثارتي، النظر للإعلانات المكتوبة، إذ يبدو أن خطوط طول حياتي وخطوط عرضها بدأتْ في رَسْم شيء ذي مغزى، بدأتْ تدور مثل الأرض حين تبلغ خطَّ الاستواء، فتُكرِّر صوب الأسفل الحركة نفسها التي أدّتْها بالأعلى، لتُغلق على نفسها، لتحتوي نفسَها، أقول. لا أعرف لماذا، لكني أشكّ أني سأردّ للويس، رائحةَ الخراء، الإهانات كلّها التي عانيتُها على يده في الشارع عندما كنتُ أحمقًا، بالإضافة للإهانة الأخيرة التي حدثت في نضجي، إهانة طَرْدي من مؤسّسة الورق، إذ يبدو واضحًا أنه ينتمي لفصيلة مَنْ طردوني نفسها. يبدو لي أنه مشروع جيّد لميت، لكني أحتاج إلى استراتيجية. حينئذ أنادي على بطاقة (الفيزا)، وأقدّم نفسي كالمحظوظ الذي ربح رحلة لفردَيْن إلى ماديرا في المطعم الإيطالي الفخم، وأقول إني سأسافر بمفردي، لكني أريد غرفة مزدوجة على أيّ حال، بسريرَيْن، لا أعرف لماذا بسريرَيْن، لكن قول ذلك يمنحني ثقة. الأسبوع المقبل سيرسلون لي التذكرة إلى الشّقّة. جيّد. ثمّ أُهاتِفُ بياتريث سماريتاس، لأحجز لديها ساعة، وستحبّ أن أذهب إليها في الحال، لكني لا أستطيع الذهاب في الحال، لأن لديّ سفرية عمل، إلى ماديرا، وألاحظ أن ماديرا يرنّ صداها عند الآخرين كأنها العالمُ الآخر، في النهاية، نتّفق على موعد بعد العودة، العمل أوّلًا. ثمّ أهبط إلى الشارع، وأضطرّ للمرور على أربع محلات لأدوات التجميل حتّى أحصل على شامبو الشارب، لأنه مستورَد، الشامبو، لكني اشتريتُ ثلاث عبوات، على سبيل الاحتياط، وأشتري من محلّ الهدايا أيضًا زجاجة ذات غطاء فضّيّ، وأُفرّغ فيها جرعة من مُنبّت الشَّعْر للويس.

ثمّ يسير بقية اليوم ببطء، هكذا تغدو الساعات متمهّلة بعد أن ننتهي من الأشياء بسرعة، لكنْ، على أيّ حال، جاء الليل، وأراد دابيد، ابني، أن أحكي له حكاية أوليجاريو، رجل الشارب المستعار، وأنا، بفاترينة في رأسي كأني طفل في ليلة ملوك المجوس، أقول له إن أوليجاريو، وكان لا يزال صغيرًا جدًا، ذهب ذات يوم ليشاهد ملوك المجوس في المحلات الكبيرة. كان ثمّة أناس كثيرون، حشود، وهرب الولد للحظة من يد أبيه، وتاه منه، تاه من أبيه، وبدأ يبحث عنه بدمعة مخنوقة في حلقه، لكنه لم يعثر عليه، وهكذا بينما كان يجرّب مشاعر الاستسلام لليأس، للبكاء، شاهد رجلًا بشارب، وحانقًا مثله، لأنه فقد ابنه، وكان يبحث عنه أيضًا بين الحشود المحمّلين بالهدايا. حينئذ اقترب منه أوليجاريو، ومدّ له يده بتلقائية، كأن هذا الرجل أبوه، والرجل ذو الشارب، بعد أن تردّد لثوان، مَدّ له يده، وخرجا معًا من المحلات الكبيرة، وتظاهر كلّ منهما أنه بالفعل عثر على ما كان يبحث عنه. وعند الوصول إلى البيت، تظاهرتْ زوجة رجل الشارب أيضًا بأن أوليجاريو ابنها ذاته، هكذا واصل أوليجاريو العيشة معهما، والتفتُّ في الحال إلى أنه ابن أفضل من الابن الحقيقي، لأن الابن الحقيقي، مثلًا، كان يتبوّل في السرير وهو لا؛ في النهاية كان البدل من مصلحة الأبوَيْن، ومن مصلحة أوليجاريو أيضًا بسبب الشارب (لم يكن لأبيه الحقيقي شارب، وكان مستحيلًا أن يتخفّى فيه)، وهكذا استمرّت حياتهم كعائلة وَهْمية، مدارين الحقيقة كما أداري أنا حماقتي، لم أقلْ له ذلك بالطبع، وعاشوا سعداء رغم أنهم لم يُكرّروا زيارة ملوك المجوس في المحلات الكبيرة خشية أن يصادفوا الأب الحقيقي، أو الابن الحقيقي، وتحتّم عليهم التواطؤ في عملية التبديل.

حدث أني كلّما حكيتُ هذه الحكاية لـ دابيد أتذكّر أنها حكايتي أيضًا،

لأنها خطرت ببالي في تلك السنوات، واحتفظتُ بها في الجانب الآخر من الباب حتّى تلك اللحظة، بجانب حكاية باكا وإميريتا. أقصد أنه ذات يوم اصطحبني أبي للمحلات الكبيرة لأشاهد الملوك المجوس، وكنتُ قلقًا جدًا، لأني راهنتُ على حياتي، وخسرتُ الرهان، ولم أكن أعرف كيف أتحاشى تسديد الدَّيْن للموت، هذا إن لم أكنْ قد سدّدتُهُ بالفعل، إذ الحقيقة أني كنتُ أفتقر إلى المعلومات لأعرف إن كنتُ حيًا أو ميتًا: كنتُ أجهل هل بعد الموت سأستمرّ في فعل الحماقات ذاتها التي أفعلها وأنا حيّ؛ على أيّ حال، كان وسواسي هو العثور على طريقة، لا أُسدّد بها الدَّيْن، وخطر لي حينها أني ربّما أتوه بين الحشود المحملة بالهدايا، ويأخذني رجل بدلًا من ابنه الذي فَقَدَهُ، هكذا يصيب الموتُ الطفلَ الآخرَ الذي سيعثر عليه أبي بين الأطفال المفقودين من المحلات الكبيرة. الحال أن الأشياء التي نفكّر فيها في هذه السّنّ لا يعرف المرء إن كان تخيَّلها أم أنها حدثتْ بالفعل، إذ في تلك الفترة مثَّلتُ في البيت دورَ طفل آخر، وهكذا أقلعتُ عن التبوّل في السرير، مثلًا، وبدأتُ أتصرّف كَمَنْ يتحتّم عليه أن يكسب رضا أبَيْن، لم يكونا أبوَيْه. لكنْ، في الوقت ذاته، تأمّلتُ مؤخّرة أمّي، من دون أن يُشعرني ذلك بالذنب، لأنها لم تكن أمّي، وفي الكنيسة، كنتُ أقف في الدكة خلفها، وكنت أبحث عن حزّ السروال الداخلي في تنّورتها، كأني قد فقدتُ شيئًا في مثلّث سروالها الداخلي، ولم أعثرْ عليه بعد، لأني لا أعرف ما هذا الشيء.

حينئذ، كبرتُ ولديّ فكرة أني ابن حرام، ورغم أن أبي أطلق شاربه بعد ذلك إلا أني لم أكن ابنه، ولا ابن أمّي. كان دابيد مأخوذًا بحكاية أوليجاريو الجديدة، وأنا كنتُ أتساءل كلّما نظرتُ إليه إن كان قد بدأ يراهن أم لا، وهل قد راهن ذات مرّة على حياته، فغدا ميتًا مثلي. حينها، لا أعرف

كيف، انتبهتُ إلى أننا، أنا والطفل، كلٌّ واحدٌ. أنا نصف الكرة الشمالي، مثلاً، وهو النصف الجنوبي. الأشياء نفسها التي كانت تُثير حنقي كانت تُثير حنقه، لأنه بدا مطمئنًا مثلاً أن أوليجاريو لم يتزوّج أمّه في النهاية، لأنها لم تكن أمّه الحقيقية. ودون قصد، كنتُ أُقلّص أبعاد زنا المحارم السابقة في هذه الحكاية، وكان ذلك تنهيدة راحة. لكني فكّرتُ أيضًا أن سلسلة أوليجاريو إن لم تنته، فذات يوم، بعد أن يصبح عجوزًا، وبعد أن يكون قد تزوّج تحت أيّ ظرف بنته وبنت بنته، ربّما تقتحم رأسه فكرة استعادة أبَوَيْه الحقيقيَّيْن، أقصد أن يذهب للبحث عنهما تحت ضغط الحاجة الغبية للأبطال، لمعرفة جذورهم، لأن الأبطال يستسلمون للكوارث كلّها، باستثناء كارثة أن يكونوا أبناء حرام، وحينئذ، ربّما، عند دخوله بيته الحقيقي، يحصده الموت الذي انتظره وقتًا طويلاً لتسديد رهانه من قبل حتّى أن يصل إلى غرفته، ليطلّ على لُعَبه. أو حصّالته. لكن هذه اللحظة لم تصل بعد، لأن دابيد نام في الحال، وهو ربّما يفكّر أن الأشياء التي يتخيّلها مع أمّه، لاورا، زوجتي، ليست غاية في السوء في النهاية، إن لم يكن، لأيّ سبب كان، ابننا الحقيقي.

بعد أن نام، شممتُ رائحة فرج الحصّالة المعدنية، ودخلتُ مُستثارًا غرفة النوم، حيث كانت لاورا تقرأ مجلّة في السرير، وحينها طلبتُ منها أن تحكي لي تفاصيل عملية التشريح، وبينما كانت تشرح لي ضاحكة عبارات تحليل الميت المختلفة، كنتُ أتحسّس بيدي منطقة السروال المبلولة، كأن هذه القماشة تُخبّئ سربَ عشّ نمل، أو ربّما كنزًا، لا أعرف، الحال أني كنتُ ألمسه ببلاهة، ودون تعمّد واضح، كما الطفل، وهذا ما كان يروق لها، ربّما في تلك اللحظة، لم أكن أنا خيسوس، إنما دابيد، لأن المتزحلق قد انزلق من جانب الملعب لجانب آخر فوق جليد سيرتي الذاتية، ثمّ

نمتُ، وأنا أفكّر أن هذا ليس كونًا، بل بيضة كونية: نقطة عديمة الحجم، لكنها ذات كثافة لا نهائية عندما تنفجر لا حلّ لها إلا التّمدّد، رغم أنها، كلّما نمتُ، عادتْ ذاكرتها إلى النقطة عديمة الحجم صفر والكثافة اللا نهائية، تلك النقطة المحتواة ربّما داخل السراويل الداخلية أو في جرف ماديرا المظلم: نقطة البداية.

في اليوم التالي، التقيتُ بـ لويس رائحة الخراء في حانة الجنس المثير لعدّة ثوان، وسلّمتُهُ العبوة بالغطاء الفضّيّ ومحتواها شامبو من أجل الطبيعات الميتة. أزال لويس الغطاء، وتشمّمه بإيماءة مَنْ يقترب بأنفه من سلّة مهملات.

اغسلْ رأسكَ به مرّتَيْن في اليوم- قلتُ-، كأنه شامبو، وافرك السائل جيّدًا في المكان الأصلع حتّى يتسلّل للبُصيلات. حينما أعود من ماديرا، سنرى إن كان ينبغي أن نُزوّد الجرعة، أو نُقلّلها.

كان يبدو متشكّكًا، لكنه جرّب كل شيء، كما قال، حتّى الزّرْع الذي نقل له عدوى، ولن يخسر شيئًا إن حاول مع حماقة جديدة. لم أناقشْه؛ لقد استرددتُ السيطرة على نفسي، على كوني، ولم يكن رائحة الخراء أكثر من ضاحية نائية، واحتفظتُ بنبرة رصينة، ووضعتُ مسافة كَمَنْ يتحدّث عن نفسه بالضمير الغائب، بمهنية أكثر من العاطفة. وفي هذه اللحظة، طرح لويس سؤالًا غير مُتوقّع. قال:

هل مات أبَوَاكَ؟

نعم، الاثنان. وأبَوَاكَ؟

أبَوَاي كذلك.

بعد تبادل هذا اليُتم، كنتُ على وشك أن أعترف له بأني أيضًا فَقَدْتُ حياتي في مراهنة، لكني، بدلًا من ذلك، فضّلتُ التنازل عن مشاهدة مؤخّرة الفتاة الصينية، وخرجتُ إلى الشارع بضمير الغائب أيضًا، بحركة قاطعة لمَنْ يُمثّل عملًا أو يُمثّل وجودًا. توجّهتُ إلى المكتبة الكبيرة، وتصفّحتُ قسم الروحانيات، واخترتُ كتابًا بعنوان "أبجديات الشعور بما هو خارج الحواسّ" و"كتيّب عملي عن التجسيد"، وفي فهرسه، قرأتُ موادًا، قد تكون مفيدة لميت. عند عودتي إلى الشّقّة، وضعتُ الكتابَيْن على منضدة الصالة، وظللتُ أتأمّلهما لبرهة بنهم مَنْ ينظر إلى هدية مُغلّفة. ثمّ، لأشدّد قليلًا على المسافة ما بين الرغبة وتحقيقها، أخذتُ الجرائد، وشرعتُ في التجوال بهوامشها، برغبة تُشبه مَنْ يجد نفسه في مدينة، فيزور ضواحيها قبل حتّى أن يزور منطقتها التجارية وآثارها. وفجأة، كأن الكُتُب التي لا تزال مغلقة، قد فَتحت بداخلي قناة شعورية جديدة، أدركتُ أن الإصرار الذي أتحرّك به بين النعي والإعلانات المكتوبة له الصفة الشاردة نفسها لتسكّعات طفولتي القديمة. ما كنتُ أبحث عنه حينذاك في نواصي الحيّ ومداخل الشوارع هو ما كنتُ أحاول العثور عليه نفسه عندما أُقلّب في الإعلانات: مخرجًا، في النهاية، مخرجًا إلى الواقع، كأن شارعي يفتقر إلى درجة من الواقع، والمرء ينتظر العثور عليه في الوجود. العودة، إذنْ، إلى الإعلانات المكتوبة بعد سنوات طوال من إقامتي في أقسام الاقتصاد والبورصة أو صفحات السياسة الدولية، كان مثل العودة إلى الضواحي، إلى الحيّ، وبشكل ما كانت نهاية القرن ضاحية أيضًا للزمن، ضاحية مُترَعَة بمآسٍ حول العالم الآخر، كانت خرابًا، في النهاية، خرابًا يسارديمقراطيًا. حقيقةً أني عثرتُ بالفعل على فتحة، تربط شارعي بشارع Fifth Avenue أو بـ إليسيون(*)، الأماكن التي سافرتُ إليها في السنوات

*) جزيرة الخالدين بحسب الميثولوجيا الإغريقية (م).

الأخيرة كلّه في مهامّ عمل أو للمتعة لم تكن، والآن أنتبه إلى ذلك، أماكن واقعية، رغم أنها كانت أكثر راحة من مدخل البيت الرطب الذي كنتُ أعانق فيه علبة الأحذية، وأترقّب وصول باكا أو إميريتا، الخير أو الشرّ، الحياة أو الموت. وكان الأبله لا يزال يعمل بداخلي، طالبًا منّي أن أكتشف فتحاتٍ أخرى، مخارج أخرى، أبوابًا أخرى تُفتَح على ما هو واقعي، على ما أتمنّى أن يكون واقعًا. والآن، فجأة، كنتُ أدرك أن الأكثر واقعية في الجريدة هو الصيدلية الليلية، قائمة موتى اليوم السابق بالمدينة، طلبات صغيرة غير مُوقَّعة، بلا أب: تلك كانت الأخبار الحقيقية بالجريدة، وليست الإعلانات الكبيرة في الصفحة الأولى. هكذا كانت ثمّة حقيقة، يا إلهي، في إعلان يقول تبديل زيّ ألحان عسكرية بشيء، أو أبيع أسطوانة غاز فارغة، أكثر من مقالات هيئة التحرير أو الأخبار المالية بقسم البورصة. هكذا كنتُ أظلّ مَرميًا في مدخل البيت بعلبة الأحذية، أو في الشارع، متجادلًا مع لويس رائحة الخراء والآخرين في معنى عبارة "عنده شخصية"، أو ما سرعات السيّارات المختلفة. ربّما، بعد جولات كثيرة، لم أتقدّم كثيرًا، لكني الآن كنتُ أعرف، على الأقلّ، أنها لم تكن مشكلة مسافة، أن ما كان يفصل بيتي عن الواقع لم يكن عدّة كيلو مترات، بل شيء آخر، لكنْ، ما هذا الشيء، يا إلهي؟ ربّما كان بابًا سرّيًا، فتحة، فخًا متواريًا في أقلّ الأماكن توقّعًا، بل حتّى داخل علبة أحذية، لها فتحة في سطحها، تحاكي عضو حصّالة جنسيًا، صار مع الوقت عضوًا في ماكينة سحب آلية، وعرائس آلية، وعضو ملائكة، كانت تعرض أجنحتها المقطوعة كعضو في فاترينات الجنس المثير.

استويتُ على الكرسي مثارًا، وتمشّيتُ في الصالة، من جانب إلى جانب، وأنا أتحسّس الشارب المستعار. كان ضروريًا ألا أفقد هدوئي،

وأن أتصرّف كأني شخص ثالث، لا يتكبّد مسؤولية تلك الإثارة: حتّى تلك اللحظة، لم أكن قد وصلتُ إلى ماديرا، جزيرة الزهور الكبدية، البركان الذي فَقَدَ بُعْدَهُ الجوفي، نقطة الصفر المطلَق رغم أنها ذات كثافة لا متناهية، التائهة في المحيط، والمُبحِرة في بحر وعيي الأطلسي مثل بيضة كونية، ما إن تنفجر لا يمكن أن تتوقّف عن التّمدّد. ولا قابلتُ بياتريث سماريتاس، الساحرة التي من شَعْرها ينحدر شاربي السّفاحي، وربّما في سروالها الداخلي ثمّة شيء سرّيّ، لم يتعرّض للنَّتْف. من جانب آخر، كانت علاقتي بـ لويس رائحة الخراء قد بدأت، وكان في علم الغيب إن كان شَعْره سينبت أم لا. وفي النهاية، كانت الفتاة الصينية التي يمكنني أن أراها خارج غرفة الجنس، ما كان يعني أني بلغتُ الجانب الآخر من الفاترينة، أو من الحياة. تلك الأشياء كلّها، من دون أن تكون قارة، كانت تُشكّل فضاءً للتّجوّل بانتظام. وكما أن المُدُن يناسبها التّطلّع إليها من النهر، إن كان لها نهر، لأن حوله شيدت حكايتها، فكذلك هذه الأحداث كلّها كانت تحتاج إلى مكان، نتأمّلها منه، وهذا المكان كان الضمير الثالث الذي ينتقي الموادّ السَّرْدية، ويُوزّعها على الورق طبقًا لاستراتيجية ما، مرّة أخرى الاستراتيجية، وبعد الاستراتيجية، أو قبلها، لا أعرف، تأتي عادة الشروط الموضوعية في النهاية طبقًا لحسبة، تضمن تأثير الدفعات إلى جدول هيراركي، للحصول على أكبر فائدة من الموارد الكونية التي يتمتّع بها.

أخذتُ، إذنْ، كُتيّب التجسيد العملي، وقعدتُ هذه المرّة إلى كرسي بمسند، تمكّنتُ فيه أن أفرد ساقيّ على مقعد. ما إن قرأت عدّة صفحات حتّى فقدتُ الوعي بجسدي، ومعه فقدتُ الوعي بالكرسي، وبأثاث الشّقّة الغامق. وجدتُ نفسي في مكان بلا مناخ، بلا ظواهر طقسية، بلا هواء. وكان الكتاب يقترح منهجًا للسفر من وجود إلى وجود آخر مثل مَنْ يتجوّل

في غرف مختلفة ببيته، وأنا كنتُ مستسلمًا لتجارب مَنْ كانوا يذهبون ويعودون ممّا كانوه، أو أرادوا أن يكونوه. كانت هناك طريقة أيضًا للسفر نحو المستقبل: إن غمضتَ عينَيْكَ، على سبيل المثال، كان يمكنكَ تخيُّل- أو رؤية كما يقول الكتاب- باب يقودكَ إلى المستقبل. فتحتُهُ، لأنه لم يكن ثمّةَ فارق بين وعيي ووعي النصّ، كأن الكتاب اِلتَهَمَني بقدر التهامي لصفحاته. كنتُ أقول فتحتُهُ، ورأيتُ كتلة صخرية تبزغ من بين نتفات ضبابية، منظرًا لم يكن من هذا العالم، مُنفِّرًا ومُرحِّبًا في الوقت ذاته. هكذا، بينما كنتُ أقرأ، أو بينما كنتُ مقروءًا، خرج الضغط السابق كلّه سيّالًا من فتحات جسدي المختلفة، ورحتُ أغرق في حُلْم ليس حُلْمًا، إذ كان وعيي لا يزال يقظًا، في النهاية، كان التّجوّل بأماكن الحلم يتساوى مع عودة المرء إلى بيت عائلته، إلى بيت أبَوَيْه، إذ يمكنه أن يخرج من غرفة لغرفة مُتكبّدًا مسؤولية الشعور الذي يثيره الممرّ في الفرد، لكنْ، أيضًا الشعور الذي يثيره الفرد في الممرّ، ففي هذه النقطة يتجلّى حائط ضبابي، فيزيل الحدود بين وعي البيت ووعي الزائر: الحائط الضبابي نفسه الذي ضبّب الحدود بين وعيي ووعي الكتاب. رقدتُ، إذنْ، وسمعتُ بكاء طفل، لكن الأمر الآن ليس مُلتبسًا عليّ، لا تأتي النهنهة من الغرفة المجاورة، ولا من شقق الجيران، النهنهة كانت تأتي من صدري، وأنا كنتُ أسمعها بيقين هَلْوَسَة وجلائها. والطفل استطاع أن يتواصل مع الرجل الناضج. سألتُ نفسي منذ متى وأنا أبكي، منذ أردتُ أن أكون مقيّدًا من دون أن أنتبه إلى ذلك، وكم رسالة أُلقيَتْ في زجاجات، واستقرّتْ في محيط وعيي الأطلسي، ليس فقط من دون أن أفتحها، بل حتّى من دون أن أراها. وأنا، هذا المطرود إلى الحياة، والمشغول بمداراة نقائصي وبلهي، كنتُ قد صفقتُ الأبواب التي تُبعدني عن ذاك الطفل، عن ذاك الحيّ المُترَع ببيوت رطبة ومتغضّنة مثل علبة الأحذية

الراقدة في العراء. ظننتُ أني عثرتُ على مخرج، لأني حقّقتُ شبه انتصار بتقليدي لإيماءات أندادي، وهكذا وصلتُ إلى منصب مسؤول الموارد البشرية في مؤسّسة حكومية، تصنع الورق ونمر الورق(*) وكرّاسات من ورق وسراويل من ورق وورق المطبخ وورق التواليت، وكان هذا الأخير، المسمّى بالورق الصّحّي، مصنوعًا من أجل أكثر العمليات قذارة، يا للحماقة. الحال أن الطفل كان هناك، في مكان ما من كوني، يفصله عن الرجل الناضج باب أو ورقة كما الورقة التي تفصل فصلاً عن فصل في الكُتُب، على مسافة يمكن قياسها بمقياس الذاكرة. في تلك اللحظة، سقطَ منّي جناح شاربي الأيمن، فأعدتُهُ إلى مكانه بالحركة نفسها لإله ردّ كوكبًا إلى مسيرته، بإصبع كوني، أو ردّ مجرّة.

مرّ وقت طويل، إذ بعد قراءة كتاب التجسيد، بدأتُ في كتاب الحدس فوق الحواسّ، ورغم أنه مختلف العنوان إلا أنه يتناول الموضوع نفسه. لا أعرف ماذا رأيتُ فيه، فالحال أني بمُجرّد نهوضي من الكرسي، بدأ جسدي الكوني في استعادة حركته، وشعرتُ بأني وصلتُ توًا من رحلة طويلة، لأني عند خروجي من الشّقّة، بدا لي أني أنزل من قطار. وبالفعل، رغم أن الشارع كان الشارع نفسه، إلا أنه تغيّر، وأنا لم أكن إلا أجنبيًا بشارب، يتسلّل إلى مدينة مجهولة. تحرّكتُ بين المشاة بشعور أني غير مَرئي، كَمَنْ يعرف أن أحدًا لا يمكن أن يعرفه، لأنه ينتمي إلى عالم آخر، وقبل أن أصل إلى البيت، خلعتُ الشارب بوعي مَنْ سيرتكب خطيئة زنا.

نادتْني زوجتي بـ خيسوس، وناداني الطفل ببابا. وأنا تجوّلتُ في الشّقّة

---

*) مصطلح صيني في الأساس، تُرجم حرفيًا إلى اللغة العربية واللغات الأوروبية، يُقصَد به «شيء يبدو مخيفًا على عكس حقيقته الهزيلة»، والمؤلّف يستخدمه هنا بسخرية من نفسه، ومن مؤسّسة الورق(م).

بكلّ طبيعية، كأن هذا المكان ينتمي لي، محاولًا ألا أُبدي أيَّ استغراب: كنتُ قد درستُ خصائص تلك العائلة وذاك الأب الذي يجب أن أتقمّص دوره، وكان للُّعبة جاذبية الأحداث التي يلعب فيها المرء دور الوجود. وعند نومه، طلب منّي دابيد أن أحكي له مغامرة لأوليجاريو، وأنا بعد أن حفظتُها من قبل، لم أواجه أيّ صعوبة في استعادة فانتازية طفولتي ذاتها، إذ يمكن نسبها بسهولة إلى رجل الشارب المستعار: حدث أن أوليجاريو، وكان في سنّكَ تقريبًا، يا ابني، استمعَ لبرنامج في المذياع، كان فيه مُنوّم مغناطيسي يُجبر الناس على فعل الأشياء التي يريدها هو. اندهش أوليجاريو من التكنيك الذي يمكن من خلاله السيطرة على إرادة الآخرين، كان مثل أن يكون لكَ جسدان تابعان لعقل واحد. فكّر أن لو كان أمر التنويم المغناطيسي حقيقيًا، لاستطاع السيطرة على العالم أكثر حتّى من سيطرته بالشارب. الحكاية أنه ذات يوم، حين راحت أمّه إلى السوق، اقترب أوليجاريو لأبيه الذي كان يقرأ الجريدة وهو على الأريكة، وقال له:

سأُنوِّمكَ مغناطيسيًا.

والأب، من أجل المشاركة في اللُّعبة، ترك الجريدة، ونظر بتفحّص في عينَي الطفل. وبدأ أوليجاريو يستخدم لغة مُنوِّم المذياع الرتيبة.

أنتَ مُرهَق، مُرهَقٌ جدًا، تحلم بالنوم، وجفونكَ ثقيلة عليكَ، تموت لتُغمضها، لتستريح ...

وأبو أوليجاريو، مُتسلّيًا، تصنّع بأن كلمات الطفل تُحقّق هدفها، هكذا غمّض جفونه، وسقّط رأسه، كأنه لا يستطيع حمل ثقله. وأوليجاريو، مدهوشًا، واصل ترتيله خشية أن يهرب منه الضحية، لو توقّف عن الكلام.

وفي برهة، استمرّت لثوانٍ بالكاد، انتبه الأب إلى أن كلمات الابن ونظرته الفاحصة تمارس فعلاً موتّرًا على وعيه، لكنْ، لم يتّسع له الوقت، ليأخذ ردّ فعل، لأنه في اللحظة التالية كان قد فَقَدَ إرادته، وغدا ملكًا للطفل بشكل غامض.

مذهولاً، أمر أوليجاريو أباه أن ينهض، فاستوى الأب بحركة شبه ميكانيكية، وبقي ساكنًا، كأنه في انتظار تلقّي أوامر جديدة. أمر أوليجاريو أباه، خشية أن يكون مازحًا، أن يفعل أكثر ما يكرهه: أن يمرّ على بيت جارتهم، وأن يطلب منها سَلَفًا بيضَتَيْن، وقليلاً من الملح. خرج الأب، وعاد بعد قليل ببيضَتَيْن في يد، وبالملح في الأخرى. حينئذ أمره بأن يضع كل شيء في المطبخ، وأن يُنظّف قيشاني الحمّام. في أثناء ذلك، توجّه إلى غرفته وفتح الخزانة، وأخرج لُعَبَهُ، وبعثرها على الأرض وفوق السرير. وحين حوّل الغرفة إلى فوضى، نادى لأبيه من جديد، وأدهشه أنه لم يعترض. ولأنه اشتاق إلى التوبيخ، أمره بأن يغضب في تلك اللحظة. غضب الأب، وبدا أوليجاريو أكثر هدوءًا. مع ذلك، أخذ حصّالة من الطين كانوا أهدوها له منذ فترة قريبة، ورماها على الأرض، لتتكسّر لألف قطعة. ظلّ الأب جامدًا، وطلب منه أوليجاريو، الذي لم يستطع تحمّله، أن يضربه بالسوط. استرخى الابن بمُجرّد أن ضُرِب، وأمر أباه حينئذ أن يلمّ كل شيء، ويُرتّب الغرفة.

حين عادت الأمّ من التسوق، وجدت الاثنَيْن في الممرّ، زوجها يلعب حصانًا، وأوليجاريو يلعب فارسًا. بدا لها حسنًا أنهما في كامل الانسجام، وامتدحت بريق قيشاني الحمّام. مع ذلك، وبّختْ زوجها في أثناء العشاء، لأنه كان غائبًا جدًا.

يبدو أنكَ ثمل- قالت له.

بينما حاول أوليجاريو تذكُّر الصيغة التي يفكّ بها التنويم المغناطيسي، لكنه لم يستطع، وبالتالي، وقبل أن يتّجه إلى السرير، أمره أن يتصرّف بطبيعية، كأنه ليس مُنوّمًا، بمعنى أن يُوبّخه، وأن يتشاجر من آن لآخر مع أمّه، وأن يقرأ الصحافة طوال الوقت. وخلال الأيّام التالية، استخدم سلطته على أبيه بأشكال مختلفة: على سبيل المثال، كان يأمره بأن يشتري له باستمرار كراميل وآيس كريم، حتّى وقع مريضًا، فأدرك معنى الأشياء الممنوعة كلّها. مع ذلك، ومن قبل أن يغدو طيّبًا، أمر أباه الذي لا يزال مُنوّمًا مغناطيسيًا أن يسافر في رحلة عمل لمدّة أسبوع، ليبقى مع أمّه على انفراد، ويستمتع بعنايتها في غيابه.

وبمُجرّد اختفاء الأب، حملت الأمّ أوليجاريو إلى سريرها حتّى لا تنام وحيدة، وبين المرض والنقاهة عاشا قصّة حبّ، من دون أن تُلقي نظرات الأب أو تعليقاته الرقابية ظلالها عليهما، كما يحدث في حالات أخرى. وحين عاد الأب من سفرية العمل، لم يعرف الطفل بأي شيء سيأمره، إذ شعر بالإضافة بشيء من الضيق، كأن صوتًا يقول له إن ما يفعله شرّ. طلب منه مجدّدًا أن يتخفّى، بمعنى أن يتصرّف كأنه ليس مُنوّمًا، وقرّر ألا يعود لاستخدام سلطته عليه.

وهكذا مرّت الأسابيع وبعدها الشهور، ثمّ السنون، حتّى نسي أوليجاريو هذا الحدث الذي تسبّب له في تأنيب الضمير. والأب عاش مُنوّمًا مغناطيسيًا، لكنه أخفى ذلك جيّدًا، كما أخفى أوليجاريو بلاهته، وهكذا لم ينتبه أحد إلى شيء. حقيقةً أنه مع مرور السنين، حين لم تتطوّر شخصيّته، خطر لهم أنه بات أحمقًا، لكنهم أرجعوا ذلك إلى أمر وراثي، ورغم أن أمّه تردّدت أكثر من مرّة في زيارة الطبيب، إلا أن الأعراض لم تبلغ الخطورة التي

تُبرّر هذا القرار. بالأحرى، كان يُضحِكُهم أن أباه، رغم أن أوليجاريو صار كبيراً، يصرّ على توبيخه، كأنه لا يزال طفلاً، لكنْ، ثمّة آباء كثيرون لا يحتملون أن يكبر أولادهم، ويُفسّرون هذه السلوكيات على أنها علامات حبّ.

عندما كان أوليجاريو في الثامنة عشرة، شاهد في التلفزيون في أحد برامج المنوّعات ضيفًا، يعمل مُنوِّمًا مغناطيسيًا، فتذكّر حدث طفولته، ونظر إلى أبيه الذي كان مُنوَّمًا بشكل جلي، فشعر بتأنيب ضمير، لا يمكن احتماله. تعلّم حينئذ تكنيك إيقاظ المنوّم، بما فيها الحالات المستعصية، وذات يوم، مستغلاً خروج أمّه، أمر أباه بأن يعود من حيث كان. وبدا أن أبا أوليجاريو يستيقظ من حلم طويل، ونظر حوله بايماءات مَنْ لا يتذكّر البيت، لأنهم عزّلوا من البيت القديم منذ سنوات، كما لم يتذكّر ابنه نفسه، وبدأ يتفوّه بكلام غير مترابط. وفي ذاك اليوم نفسه، اضطرّوا لإدخاله مستشفى المجانين. أما أوليجاريو وأمّه، فقد باعا الشّقّة، وراحا ليعيشا في شقّة أصغر، وعاشا سعيدَيْن جدًا. ومرّة كلّ شهر، كانا يزوران الأب بـ "بونبون"(*) روحي.

قرّرتُ أن أنهي القصّة عند هذه النقطة، لكن دابيد لم يكن قد نام؛ وبعيدًا عن ذلك، كان يبدو مُنوّمًا مغناطيسيًا من الحكاية. قال:

إذنْ، لم يكن الأب الذي نوَّمَه أباه الحقيقي، أليس كذلك؟

كلا، يا ابني، هو الأب نفسه الذي وجده في المحلات الكبيرة يوم ذهب إلى مشاهدة الملوك المجوس.

مستكينًا لهذا التوضيح الذي يُقلّل حدة زنا المحارم، غمّض دابيد

---

*) البونبون: مصطلح عن الفرنسية يشير إلى الحلوى الصغيرة تسمى (سكاكر) أيضاً.

عينَيْه، ونام في الحال. وأنا نهضتُ، وتشمّمتُ فتحة الحصّالة الجنسية قبل أن أخرج من الحجرة.

عندما خرجتُ إلى الممرّ تكوّنتْ لديّ رؤية ممكنة لما حدث في حياتي: كنتُ طفلاً، وتخيّلتُ إمكانية تنويم أبي مغناطيسيًا، ضيّعتُ حياتي في رهان، لعبتُ دور ابن الحرام، كلّها روايات مختلفة عن ذاتي، ذاع صيتها، وحملتُ كلّ واحدة منها حيوات متباعدة فيما بينها، هكذا عشتُ ممزّقًا، من دون أن أعرف شيئًا عن آناتي الأخرى التي ربّما كانت قد انتصرتْ في السياسة أو في التجارة، أو ربّما كانت قد تدمّرتْ، وحملت معها، في النهاية، حياة المتسوّلين. وكلّها، تلك الآنات كلّها، ظلّت في الوقت نفسه دخيلة على حياة الطفل الذي كان يبكي بين تجاويف صدري. هكذا كنتُ قد عشتُ حياتي كرجل مُنوَّم مغناطيسي والآن، عند يقظتي بعد سنوات، لم أتذكّر شيئًا ممّا كان يحيط بي، وبالتالي كنتُ مضطرًا لأتخفّى، وأتصنّع بأني أُصدِّق أن لاورا كانت زوجتي ودابيد ابني، وأن أتصرّف كأب وكزوج حتّى لا يلتفتَ أحدٌ إلى جنوني، فيُدخلوني مستشفى المجانين، مثل أبي أوليجاريو. وأنا لا أحبّ "البونبون" الروحي.

حياتي كلّها كانت قناعًا: أوّلًا، حتّى لا يلتفتوا إلى بلاهتي؛ ثمّ كيلا يلتفتوا إلى أني ابن حرام؛ وبعد ذلك، حتّى لا يعرفوا أني ميت. حتّى إني تصنّعتُ في فترة ما أن لديّ همومًا سياسية، وبعدها، حين أصبحت الأشياء هكذا، تصنّعتُ توجّهات يساردیمقراطية وتجارية واهتمامات عائلية. لكنني الآن، بينما أتوجّه عبر الممرّ ناحية غرفة النوم، حيث كانت لاورا تنتظرني، أدركتُ أني كنتُ أسافر بالعكس، ناحية أصل الأشياء، ناحية النقطة التي تنبثق منها خطوط الحياة، بطريقة العثور على خطوط الطول

في القطبَيْن نفسها، أو أصحاب الطفولة في حانة الجنس المثير. وكلّما كنتُ أقطع ممرّ حياتي بالحسّ المعاكس سيرًا، كنتُ أكتسب إدراكًا بأني لم أكن ميتًا فحسب، وإنما طفلاً أبلهًا، يحاول فَتْح الباب الذي يؤدّي إلى مكان الأشياء الواقعية. والأشياء الواقعية كانت الحبّ والمال اللذَيْن حصلتُ عليهما من دون مجهود، من دون بذل طاقة، من دون مكاسب عاطفية أو اقتصادية، تضع مسافة بين ما أراده الواحد وما صار إليه بالفعل.

لم تكن لاورا قد تعرّتْ؛ وجالسَة على حافّة السرير، كانت تشاهد تلفزيون غرفة النوم باهتمام غريب. التفتتْ إليّ لمّا دخلتُ، وتردّدتْ لثوانٍ، ثمّ سألتْ:

هل نام دابيد؟

نعم، بعد الحكاية كالعادة.

ضغطتُ على "كالعادة" حتّى تلاحظ أني أعرف عادات العائلة، إذ بدا لي أن لاورا كانت تريد أن تسأل عن شيء آخر؛ شيء مثل مَنْ أنتَ في الحقيقة؟ أو كيف ينمو شَعْرَكَ الآن، إن كنتَ أصلعًا؟ ماذا يحدث لكَ؟ ألاحظ فيك تغيّرًا، إلى آخره. وفي الحال، بدأتُ أومئ بإيماءات خيسوس زوجها الروتينية، وكرّرتُها حتّى أمحو أيّ شك لديها. لكنْ، فيما كنتُ أغسل أسناني في الحمّام المجاور لغرفة النوم بضجيج من الحنفية والغرغرة، حدستُ أن لاورا، على الجانب الآخر من الجدار وأمام التلفزيون، غارقة في الارتياب. فكّرتُ أنها لو كشفتْني ستنتبه في الوقت ذاته إلى أني أبله، وأني ميت. والشارب، أين تركتُ الشارب؟ تذكّرتُ أني احتفظتُ به في جيب الجاكيت قبل دخول البيت. لم تكن لاورا تفتّش أبدًا، لا جيوبي ولا

أدراجي، لم تكن هذا النوع من النساء، لكنْ، يروق لها تفتيش الأحشاء، كانت طبيبة شرعية، لكنْ، مَنْ يدري؟!

خرجتُ من الحمّام، وفتحتُ خزانتي، كأني أبحث عن شيء بداخلها. ودسستُ يدي في جيب الجاكيت، وتحقّقتُ من أن الشَّعْر المستعار هناك. هي لم تتحرّك من حافّة السرير، وظلّتْ أمام التلفزيون.

أيّ نوع من القصص تحكيها لـ دابيد؟

القصص المعتادة، كما تعرفين، زنا محارم، حكايات عن قتْل الآباء، زوجات الأب، الأطفال التائهين، أكلة لحوم البشر. لكني أُحدِّثُها قليلاً، لأُسهِّلَ فَهْمَهَا. على سبيل المثال، بدلاً من تيه الأطفال في الغابة، أجعلهم يتيهون في المحلات الكبيرة.

ومَنْ هذه الشخصية التي تُسمّى أوليجاريو؟ إنه مَهووس به.

أوليجاريو؟ أنتِ لم تقرئي قصص أطفال كثيرة، أوليجاريو في القصص كلّها. إنه هذا النوع الأحمق الذي يظهر في النهاية أذكى من الجميع، مثل بولجارثيتو.

لكن بولجارثيتو لم يكن أحمقًا، بل صغيرًا.

عندما يقول النصّ إنه صغير، فالمقصود في الواقع أن يقول إنه أحمق؛ قصص الأطفال تدور كثيرًا، لتشرح الأشياء. ما يريدون أن يُبرهنوا عليه بقصّة بولجارثيتو أنكَ لو داريتَ حماقتكَ جيّدًا لن ينتبه أحد إلى إعاقتكَ. في الحيّ الذي وُلدتُ فيه كان ثمّة صبيّ أعرج، لو لم يعترف بعرجه ما انتبه إليه أحد، لأنه كان يعرف التّخفّي. بالمناسبة، الآن أتذكّر أنه كان يُدعى أوليجاريو.

ضحكتْ لاورا، وضحكتُ معها، وتذكّرتُ فجأة طفل شارعي الذي كان بالفعل يؤكّد أنه أعرج، رغم أن أحدًا لم يلحظ عرجه. وكان الوحيد الذي تجرّأ، وواجه لويس، رائحة الخراء، والأوّل في هجر الحيّ. ومن حين لآخر، كان يعرج، وأنا فكّرتُ دائمًا أنه يفعل ذلك، ليبرهن على صدق ما قاله. أكثر ما يلفتني أني حتّى تلك اللحظة لم أكن قد ربطتُ اسم أوليجاريو بهذه الصورة. لقد ظهر أوليجاريو بلا وجه من ظلمات الذاكرة، وها وجهه الآن يظهر مرتبطًا باسم، مثل السمكة في الغماز. منذ بدأتُ الصيد في مياه الوعي، من دون أن أدري، بات لكل كلمة وكلّ إيماءة غمازة ترشق، عاجلًا أو آجلًا، في رأس.

على أيّ حال، كان الخطر قد مرّ. لاورا واصلت الضحك مع حكاية أوليجاريو، الأعرج المتخفّي، وأجواء الشكّ قد ذابتْ مع ضحكاتها. مع ذلك، كان يجب أن أتّخذ احتياطاتي كلّها في المستقبل. على سبيل المثال، الآن وأنا أشاهدها تتعرّى أمامي بطبيعة تُغري، قمعتُ رغبتي في البحث عمّا وراء جفونها، أو وراء سروالها الداخلي، حتّى لا تعيد إليها شدّة رغبتي الجنسية شكوكها في أني رجل آخر. دخلْنا في السرير معًا، وكان التلفزيون مشتعلًا، وسألتْني، قبل أن تعطيني ظهرها، عن مدّة سفري لـ ماديرا.

أسبوع على الأكثر- قلتُ-. لو أنهينا كل شيء سريعًا، ستكون خمسة أيّام.

من دون أيّ معلومات عن ماديرا، باستثناء المعلومات الواردة في مقال الموسوعة، ركبتُ الطائرة التي حلّقتْ فوق الأطلنطي في طريقها إلى الجزيرة بعد ترانزيت قصير في لشبونة. كنتُ اشتريتُ من المطار بعض المجلات الميتافيزيقية المطبوعة في شركة لويس رائحة الخراء، وبعض كُتُب أخرى حول التجسيد والموت؛ كلّها كانت تدور حول الموضوع نفسه، وبالتالي تعمّقتُ في القراءة، وعندما رفعتُ عينيّ لأطلّ من النافذة، كانت الطائرة قد هبطت قليلاً، فتمكّنتُ من مشاهدة الأرخبيلات المهجورة التي تُحدّد الطريق. لم أتأمّلها، مع ذلك، بأداء مَنْ ينظر إلى شيء خارج ذاته، بل بشعور مَنْ يتطلّع إلى أحشائه ذاتها.

كانت هذه الجزر الصخرية، المهجورة، المفقودة في محيط وعيي، تمثّل الصلابات التي كانت تمنعني من الدخول لما هو واقعي، لما يريد أن يكون واقعيًا. انتهيتُ من قراءة مقال عن الخبرات فوق الجسدية، لكني، بعيدًا عن شعوري بانفصالي عن جسدي، كنتُ أشعر بأن كل ما أراه يكمن داخل الجسد نفسه. وعرفتُ عند نزولي من الطائرة في مطار فونشال أني، أبعد من الانتقال من مكان إلى مكان، قد سافرتُ بين طَرَفَيّ ذاتي. في الحال، بدا لي أليفًا ضوء الجزيرة: شعلة مضاءة، تفتح لنفسها طريقًا بين قباب الذاكرة. تضاعف هذا الإحساس بالمألوفية خلال الجولة من المطار إلى

الفندق، هكذا شعرتُ، عند دخول الغرفة، بأني وصلتُ إلى بيتي، على الأقلّ، إلى مكان ما في بيتي حتّى تلك اللحظة، لم أتردّد عليه إلا قليلاً.

بعد رَصّ الملابس، فتحتُ باب الشرفة، وبحثتُ عن البحر. في الفندق المواجِه لفندقي، ثمّة عجوز، خرجتْ لشرفتها بالمَنَامَة، وتأمّلت السماء الغائمة. كان في الغرفة سريران، لكنني لم أكن قادرًا في تلك اللحظة على اتّخاذ قرار في أيّ سرير سأنام. نزلتُ لأتغدّى، والتقيتُ في المصعد بزوجَيْن عجوزَيْن وشقراوَيْن، متقنّعان في شكل لاعبي تنس، وتبادلتُ معهما الابتسام.

كان الغداء لطيفًا، ولم يحدث شيء جديد بالذِّكْر، باستثناء انفجار طَعْم البيرة في حَنْجَرَتي، مع ذلك، عرفتُ في تلك اللحظة أن شيئًا واقعيًا على وشك الحدوث. بإيجاز، هذا ما حدث لي: كنتُ آكل في شرفة المطعم المغطّاة، وأنا أتأمّل محيط وعيي الأطلنطي الممتدّ حتّى عتبة الفندق عندما انتبهتُ إلى أن الأزواج الذين يحيطون بي كانوا كلّهم عجائز يتقنّعون، مثل زوجَي المصعد، في شكل لاعبي تنس عمومًا، لكنْ، أيضًا في شكل راقصين أو غوّاصين أو أزواج سعداء. بعضهم كان عجوزًا بالفعل، أقصد أنهم برغم الشورت أو الملابس الرياضية كان يُلاحظ أنهم يعانون في صعود وهبوط السّلّم المؤدّي إلى حمّامات السباحة المالحة، بجانب البحر، خاصّة لو أصرّوا على التّنفّس في الوقت ذاته. والحال أنه في ماديرا، كما في داخل روحي، ما من شواطئ تسهّل الانتقال إلى المحيط، من هنا كانت غزارة السلالم. بمشاهدة البانوراما، توصّلتُ إلى نتيجة مفادها أني بالفعل ميت، رغم أني الميت الوحيد في سنّي، فالآخرون كانوا قد تجاوزوا سنّ التقاعد.

ولأنه قد خطر لي أن الميت لا يصيبه أيّ ضرر، طلبتُ قهوة وعلبة

سجائر ماركة وينستون، وهي الماركة التي كنتُ أدخّنها في حياتي ما قبل مرحلتي اليساريديمقراطية، ثمّ توقّفتُ عنها خشية أن يصيبني سرطان الحَنْجَرَة أو الرئة، لا أعرف لماذا، ولم أشغل بالي أبدًا، وأشعلتُ سيجارة، نشّطتْ بعض خلايا التفاؤل أو النشوة التي لم أعرفها طيلة حياتي. كنتُ أشعر براحة مع الموت، الراحة نفسها التي شعرتُ بها مع سيجارتي الأولى في الراحة الأبدية. في أثناء ذلك، كان عجوز في المائدة المجاورة يراقبني، كان يمسك بين أصابعه أيضًا سيجارة وينستون أو مارلبورو، لا أعرف، وتبادلْنا إيماءة تواطئ، وأعتقد أنه كان يلاحظ أنفاسي في رئتَيْه، كما كنتُ ألاحظ أنفاسه في رئتَيّ، إذ في ذلك الجانب لا تبدو الحدود بين فرد والآخر واضحة تمامًا كما الحدود بين الأحياء، وقد يكفي أن يمارس أحدهم الجنسَ حتّى يشعر الباقون بالمتعة. والحال أن هذه السيجارة بعد سنوات طويلة، برفقة القهوة وصخب البحر، جعلتْني أتأمّل اللحظة بتوقٍ إلى الماضي، وهكذا تذكّرتُ لماذا دخّنتُ، لكنْ، بالتحديد، لماذا دخّنتُ وينستون. حينئذ غمّضتُ عينَيّ، ثمّ فتحتُ بابًا مُتخيَّلًا، لأصل إلى لحظة في حياتي، كنتُ فيها في العاشرة أو الثانية عشرة تقريبًا، أو ربمّا أكثر، لا أعرف، على أيّ حال، لم أكن قد بدأتُ في التّخفّي رغم أني كنتُ أبلهًا، لأن البلاهة كانت مرسومة على وجهي، وحينها كنتُ داخل محلّ خردوات، أنتظر دوري لأشتري خبزًا، أو علبة مُربىً، أو أيّ شيء آخر، يثير الحزن، وبدأتُ في التحديق في شخص طويل وأشقر مثل ملاك، كان في سنّ أبي، أعتقد، رغم أنه يبدو أصغر، وكان يرتدي جاكيتًا وربطة عنق في ذاك الحيّ، يا إلهي، كان له شارب مثل شاربي الذي لم أخلعْه منذ خرجتُ من البيت، في النهاية، كان مُذهِلًا بالنسبة لي في تلك السنوات، مُذهلًا، لأنه كان ثريًا حين كان يعدّد الأشياء التي يريد شراءها، بينما يُخرِج

علبة سجائر من جيب الجاكيت، فعرفتُ حينها أن للجواكيت أيضًا غرفها السّرّيّة، ثمّ أخرج قدّاحة من الذهب، وأشعل سيجارة. كان واضحًا أن هذا الرجل قد وصل، وأنا استسلمتُ أيضًا للوينستون عندما استطعتُ لأُوهِم نفسي أني قد وصلتُ، لأن الخوف الأكثر انتشارًا في شارعي كان ألا نصل، لنكون شيئًا. مع ذلك، لم أصلْ لامتلاك قدّاحة من الذهب، لأن ما لم أصل للتّخلّي عنه أبدًا كان تقشّفي. لذلك كنتُ أتمتّع بأنصاف الأشياء، هكذا كنتُ أدخّن الوينستون، نعم، لكني كنتُ أُشعل السجائر بقدّاحة بلاستكية رخيصة، رغم أني كنتُ مدير الموارد البشرية بشركة ورق كبيرة. ودائمًا ما لاحقني التّقشّف، أعتقد كنوع من الإخلاص للجذور، مع أنها كانت أيضًا طريقة للحفاظ على صراع الطبقات بداخلي، لا أعرف كيف أتجرّأ على ذِكْر هذا الصراع الآن، صراع الطبقات، فالحال أني كنتُ أسيطر بالتّشقّف على نسخة من ذاتي كنتُ فيها ابن قحبة، كنتُ حوتًا مُلتهِمًا، يتمتّع بالموارد البشرية بسعر السوق في شركة الورق هذه: كان التّشقّف طريقةً لسيطرة الأبله على اليساريمقراطي طوال الوقت، لا أعرف، وربّما كانت سيطرة البائس، الطفل البائس الذي لا يزال يبكي عند مدخل بيت رطب، شارع كان، في واقع الأمر، بداخل نفسه ذاتها.

والآن قد بدأ المطر، ليس هناك في الشارع، بل هنا، في ماديرا، فوق بحر وعيي ذاته، كأن الطقس يستجيب لرغباتي، لأن التوق للماضي يلائمه قطرات المطر، كما يلائم القهوة قطرات البراندي. مَنْ يريد أن يكون متقشّفًا؟ هكذا أحضروا لي كأس كونياك فرنسيّ، لم أشربه منذ سنوات، وأشعلتُ سيجارة أخرى. يا لمتعة أن تكون ميتًا! يا للنشوة! تحت هذه الشرفة المغطّاة بسقف زجاجي، بينما تُمطر على مهل بداخلي، بينما بخار الدخان والكحول يُحلّل عقدًا قديمة، وأرى لون السماء الأسود، ويبدو لي

أن لهذه الجزيرة مزاج أمّي، هكذا من الشرّ أن يسوء الطقس، لأنها تمُطر، ومن الشرّ أن يتحسّن الطقس، لأنها ذات يوم ستُمطر. لكنْ، لا يبدو لي الآن شرًا أن تمُطر، بالعكس، المطر يتيح لي أن أتجوّل في بنايات الفندق، ولو تحسّن الطقس، سأضطرّ للخروج، وأنا أكره الخروج. هكذا وأنا أُمسكُ بكأس الكونياك بيدي، حيث إني فَقَدْتُ التّشقّف يوم فَقَدْتُ الحياة، تجوّلتُ في بهو الفندق الكبير، وأنا أتفرّج على فاترينات المحلات الفخمة، وعلى العُجّز غرباء الأطوار الذين فاجأهم الموت بينما كانوا يلعبون التنس، أو يتدرّبون على الكاراتيه، أو يرقصون، والآن أرى، بالمناسبة، أنهم جثث شمالية، أقصد فنلنديون وسويديون ودنماركيون، رغم أن هناك موتى من وسط أوروبا، خاصّة ألمان. لا أرى أيّ ميت من الجنوب، ولا واحدًا من بلدي، يا للغرابة! لكني لن أعذّب نفسي لذلك كما أفعل حيًا.

في أثناء ذلك، يصادفني سهم يشير إلى مدخل لبناية مخصّصة للمسّاج والساونا. هذا ما يُسمّى تقشّف، أني لم أدخل أبدًا أيّ ساونا، رغم أن لديّ الأسباب الكافية للساونا والمسّاج. لم أعمل مسّاجًا أبدًا، زملائي في شركة الورق كانوا يرتادونها باستمرار، ويعودون جددًا، كانوا يقولون إنها أفضل من ممارسة الجنس، لكني لم أقتنع، بمعنى آخر لم أعرف محاكاة حركات زملائي، وبدؤوا يلاحظون أني أحمق، لذلك طردوني من المؤسّسة. لكني الآن ميت، ويمكنني أن أستغني عن وساوسي حين كنتُ حيًا، لذلك أهبط إلى الساونا، لأن هناك سلّمًا، بالكأس في يدي، وأرى فتاة مذهلة، فتاة ميتة، تُربكني بمعطفها الأبيض مثل معطف العاملات في محلّ الحلاّق، حيث صلّحتُ شاربي، معطف أبيض يشفّ الملابس الداخلية كلّها، بما فيها السروال الداخلي. تقول لي بالبرتغالية من الأفضل أن تنتظر حتّى تهضمَ. سأعود لاحقًا، قلتُ لها، وبيدي الكأس وبأناقة جثّة

من أوروبا الوسطى، ورغم أني من الجنوب إلا أن أداء هؤلاء العُجّز المميّزين ينقل لي العدوى.

حينئذ أدخل في صالة كبيرة، فيها بيانو، ومدافئ منطفئة، حولها كراسي وأرائك إيزابيلية، لا أعرف، أقول حتّى أقول شيئًا، أقصد أنها فخمة، أو ربّما قديمة، والحال أني أجلس، وأطلب كأس كونياك فرنسي آخر، وأُشعل سيجارة وينستون أخرى، بينما أتذكّر جوابًا لمدير التحرير، قرأتُهُ في إحدى المجلات الروحانية، حين كنتُ أُحلّق فوق الأطلنطي. جوابًا تحكي فيه امرأة أن أباها الميت ظهر لها عندما كانت في الحمّام، وكان ينظر لبطنها، كأنه يريد أن يقول لها شيئًا؛ وأحيانًا كان يتقاطع معها أيضًا في الممرّ، ويحسّس على بطنها بإصبع. أجابها مدير تحرير المجلّة أو الخبير في الأشباح، لا أعرف، بأن أباها يريد أن يقول لها احملي، لأنه يريد العودة إلى الحياة، وأفضل طريقة لذلك أن يُولَد من ابنته. الخبير أضاف بأنه من المعتاد أن يلدَ الأبناء آباءهم، خاصّة في حالة علاقة داخلية جيّدة بينهم.

أقول إني كنتُ أتذكّر هذه الحكاية، وأفكّر في أني لن أعودَ عبر شيء إلى العالم، يا للضيق! عندما رأيتُ فجأة أبَوَيّ يدخلان من باب الصالة الكبيرة، حيث المدافئ والأثاثات الإيزابيلية. المفاجأة أصابتني بالشَّلَل وأنا أشاهدهما يتقدّمان نحوي، فلا أستطيع النهوض، لأُقبّلهما، لكني أراهما يبتسمان لي، كأنهما لا يعرفانني، ربّما بسبب الشارب، ويجلسان في الأريكة الخالية المجاورة لي، ويتحدّثان فيما بينهما باللغة الدنماركية، كما يبدو، ما يعني، بما أنهما صارا دنماركيّيْن، فقد تطوّرا كثيرًا. دنماركيان وشقراوان. أبي الآن أكثر صلعًا ممّا كان عليه حين كان إسبانيًا، غير أن الشَّعْر الباقي بجانب أذنَيْه أشقر ورقيق، مثل الخيط الحريري. كان بلا شارب، في

الوقت الذي وضعتُ فيه شاربًا، خَلَعَهُ هو، مع ذلك، لم يكن في شفته العليا أيّ أثر للدناءة التي كنتُ أفترضُها فيه. لقد هرم في أحسن حال في نسخته الدنماركية من الحياة، أفضل من النسخة الإسبانية؛ ويلاحظ أنه رغم مرور السنوات لا تزال عضلاته متماسكة الألياف. وبالنظر إليه بتأمّل، هذه حقيقة، يُلاحظ في نظرته شعور بالهجران أمام هجمات أمّي الغاضبة أو المجنونة، لكنه شعور يتخفّف حتّى يمكن قراءته كأثر للطِّيبة.

أما أمّي، فقد تحسّنتْ كذلك، يا إلهي، تحسّنتْ كثيرًا. يُلاحظ أنها أكثر هدوءًا، كأنها قد بلغتْ نوعًا ما من التراضي مع نفسها، أو أنها فَقَدَتْ تلك القوّة التي ربّما لم تكن قوّة، بل يأسًا بسيطًا، لا أعرف، والآن تتمتّع بعلامات الرِّقّة التي كانت تبلغها من قبل بعد تناول حبّة الأرق، أو الحَبَّتَيْن. بالإضافة، لا تشرب كذلك في نسختها الدنماركية، إذ لم تطلب من النادل إلا كوب ماء فحسب. شَعْرها الأبيض ملموم وراء أذنَيْها، وتبدو جميلة جدًا. عجوز نحيفة، نحيفة جدًا، وتتقنّع في شكل لاعبة تنس، وأبي مثلها. أموت وأقول لهما إني ابنهما، نسخة إسبانية من ابنهما، أدفع أيّ شيء لأقول لها يا ماما، لكني أكبح نفسي، وبدلًا من ذلك، بما أني لا أعرف الدنماركية، أسألهما بالإشارة إن كان يضايقهما أن أدخّن، ويقولان لا بابتسامة، لقد غَدَوَا متسامحَيْن، وبالتالي أبقى بجوارهما، من دون أن أفعل شيئًا، إذ أخرجا من حقيبة مضرب التنس كتابَيْن، وبدآ في القراءة. يقرآن كُتُبًا أيضًا، قبل ذلك لم يقرآ. حينئذ أتلفّتُ حولي، وأنتبه إلى أنه صالون للقراءة، لأن كلّ زوجَيْن عجوزَيْن يقرآن، باستثناء عجوز يُلاحظ أنها عمياء، وتستمع لما يقرؤه زوجها في أذنها حتّى لا يضايق أحدًا.

وأنا لا أكفّ عن النظر إلى أبَوَيّ الدنماركيَّيْن، ويسعدني رؤيتهما هكذا،

قريبَيْن جدًا، وأنا بالقرب منهما، كأننا عائلة، لا أعرف، وأشعر بأني أتحرّر من ذنب، كأني كنتُ سببًا في سوء حالهما في نسختهما الإسبانية. تمرّ ساعتان أو ثلاث، وتصل جثّة مقنّعة في شكل موسيقار، يشرع في العزف على البيانو، فيتوقّف العُجّز عن القراءة، ويخرجون من الصالون شيئًا فشيئًا، كأنهم لا يرغبون في جرح مشاعر عازف البيانو الميت الذي بقي، في النهاية، وحيدًا، أقصد معي، وكنتُ حتّى على وشك أن أنصرف كذلك بمُجرّد أن أنتهي من هذه السيجارة.

وانتهيتُ منها، ورغم نظرة الموسيقار المراقبة أنزل إلى الساونا، وأقول ما يروق لي، ساونا ومسّاج، مع أني لا أعرف بأيّ ترتيب يعمل. ألتقي فتاة المعطف الشّفّاف، أو شبه الشّفّاف، حيث ترتسم حلمتاها على القماش كعقدَتَيْن، لم يستطع أحدٌ فكّهما، تعطيني ثوب حمّام، وتقودني إلى مدخل صالة الساونا، وتتركني هناك دون شرح. بعد أن أراقب قليلاً، أتجرّد من ملابسي، ثمّ آخذ دشًا، لأن هناك دشًا، وأفتح بابًا مموّهًا، يؤدّي إلى جحيم صغير. هو الساونا بلا شكّ، كما رأيتُها في السينما. أنا هنا بمفردي، هكذا أخلع ثوب الحمّام، وأجلس على دكّة خشبية، ويغزوني العَرَق، وبينما أتعرّق، يتجمّد جِلْد شَفَتَيّ ووجهي كمكواة حديدية على الزرّ الأحمر، بالتالي أُلقي قليلاً من الماء بملعقة خشبية فوق بعض الأحجار الحمراء، كما شاهدتُهم يفعلون في السينما، لأني أحتاج إلى قليل من الرطوبة، لكنْ، ربّما بسبب الرطوبة أو الحرارة، لا أعرف، يسقط الشارب، وألتقطه من الأرض، وأُعيد لصقه، لكنه يسقط مرّة أخرى، لأنه فَقَدَ مادّته اللاصقة؛ لديّ في الغرفة لاصقٌ خاصّ، رغم أني لن أخرج لأحضره، فماذا ستقول عنّي فتاة المدخل؟! ولا يمكن أن أدخل للمسّاج هكذا، فقد يفكّرون أني حلقتُ شاربي في الساونا، وهو ليس المكان المخصّص لذلك. يا للكارثة!

أحاول لصقه من جديد، وفي تلك اللحظة، يُفتح الباب، ويدخل أبوَاي الدنماركيّان الجحيمَ الصغيرَ. يبتسمان لي بتلقائية، بينما يتجرّدان من ثوبيْ حمّام الفندق، ويجلسان عاريان على دكّة خالية على يساري. وأنا أواصل لصق شاربي بإصبعَي السبابة والبنصر على شَفتي العليا، لا يمكنني أن أسحبهما من هناك، وبالتالي أتّكئ بكوع على فخذي، وأتّخذ وَضْع مَنْ يفكّر، بينما أرى بجانب عيني جسد أمّي العاري، وكذلك جسد أبي. الحقيقة أني لا أريد رؤية أيٍّ منهما، يُوتّرانني، رغم أن عيني تخونني، والحال أن أمّي تهرم بطريقة مذهلة في نسختها الدنماركية، ولها خبرة في العالم أو في الساونا، لا أعرف، لأنها تتحرّك بتلقائية، وتعرف الفترة المحدّدة لإلقاء ماء في الأحجار الجهنمية، وفي كل مرّة تلقط الملعقة الخشبية، وترفع ذراعها، أرى حلمَتَيْن كبيرتَيْن مثل عقدَتَيْن جوهريَّتَيْن، يستحقّان أن يفكّهما أحد، لا شيء آخر. بالإضافة، كانا يخرجان ويعودان مبلولَيْن، بمعنى أنهما يستعملان الساونا والدش بالتعاقب، لكني لا يمكنني أن أخرج وأنا ساندًا الشارب، وبالتالي أستمرّ في التفكير وأنا أتجفّف في مكاني، لأن مسامّ جسمي كلّها تحوّلت إلى مضخّة، وحينئذ، ودون أن أعرف السبب، أشرع في البكاء، لكنهما لا ينتبهان لي، لأن الدموع تختلط بنبع العَرَق، ويمكن أن أبكي كما أشاء دون أن يثير ذلك أيّ فضيحة في الساونا. أعتقد أني أبكي من أجلهما، ومن أجلي، لأننا لم يتح لنا الوقت لأيّ شيء، لو كان عندي الشجاعة، وكنتُ أعرف الدنماركية- لم نتحدّث أبدًا اللغة نفسها- لكنتُ حكيتُ لهما قصص أوليجاريو التي أحكيها لـ دابيد، حفيدهما، هما لم يحكيا لي قصصًا، قالا لي فحسب أن أنتبه لنفسي، ولأني انتبهتُ لنفسي، وصلت لمنصب مدير الموارد البشرية بواحدة من أكبر مؤسّسات الورق. هواء الساونا يحرق رئَتَيّ، كلّما تنفّستُ، وأسأل نفسي إن كنتُ حقيقةً في

الجحيم مع أبَوَيّ، إذ لم يكونا طيّبَيْن كذلك، حينئذ أنظر للباب، وأتخيّل أحدًا قد صكَّه من الخارج، فأشعر بنوبة رُهاب الاحتجاز، وأنهض من دون أن أسند شاربي، لأتحقّق أن الباب مفتوح، يا للحماقة! إنها ساونا، وليست الجحيم، أخرج، وفي طريقي آخذ دشًا باردًا وأنا أسند شاربي بأصابعي، وأشرب من ماء الدش، رغم أني أرى ثمّة منضدة من الخُوْص، عليها عصائر فواكه، لابدّ أنها، بلا شكّ، عصائر أبَوَيّ الدنماركيَّيْن. كلّما خرجا، شربا، وهكذا لا يتجفّفان. رائع أنه يمكن أن يحضروا لكَ شيئًا من المَشْرَب، مَنْ كان يتخيّل ذلك؟!

بعد أن استحممتُ، وشربتُ، أقصد بعد أن ارتويتُ، أشعر برغبة جديدة في البكاء، هكذا أدخل الجحيم مرّة أخرى لاصقًا شاربي بيدي اليسرى تارة، وباليمنى تارة، وأقعد هذه المرّة أكثر قربًا من أمّي، وهي في نسختها الشمالية عجوز ضئيلة الجسد ضئيلة الصدر كبيرة الحلمَتَيْن، وبالتالي لم تكن عرضة للتجاعيد الكثيرة، ولا لسقوط الجِلْد. أما أبي، فقد هرم بشكل أسوأ، وصار له كرش صغير، لكنه في مقابل ذلك، فَقَدَ حركته كرجل مُنوِّم مغناطيسيًا؛ على أيّ حال، من المتعة أن أراهما معًا، من دون شجار، لقد توصّلا للتوافق، فلا يتجادلان حتّى من أجلي، بل ويمكن أن نجتمع ثلاثتنا من دون نشوب معركة ما، ولهذا أبكي، إذ إنهما سعيدان بعد أن تخلّيا عن تقشّف، كان يخلق فيهما التعاسة، وربّما لم يكن التّقشّف، بل الفقر.

حينئذ يُفتَح باب، وتطلّ فتاة المدخل، لتُخبرني بالبرتغالية أنه وقت المسّاج، هكذا أسحب ثوب الحمّام، وأضعه تحت إبطي، لأني لا أستطيع ارتداءه بينما أسند شاربي بيد، وأودّع أبَوَيّ الدنماركيَّيْن بيد على فمي، كأني

أسعل- اكتشفتُ أني حين أسعل يمكن أن أسند الشارب بكل تلقائية-، وخرجتُ من الجحيم الصغير متصنّعًا نوبة سعال. أشارتْ لي فتاة المعطف الأبيض الشّفّاف، أو شبه الشّفّاف، أن أستحمّ قبل المسّاج، أمرٌ طبيعيّ بسبب العَرَق، كانت أيضًا هدنة، تنهيدة، قوسَيْن مفتوحَيْن لأفكّر ماذا أفعل. حينئذ أرى في غرفة الدش صابونة، أكسر منها قطعة بأسناني، يا للقرف! لأصنع بالقطعة معجونًا، ألصق به الشارب بالشّفة، لو نجوتُ، وأخرجُ من الدش، بسبب قصّة الشارب، عاريًا من دون أن أنتبه، لكن الفتاة لا تهتمّ، تُقدّم لي بشكيرًا، وتسير، فأتبعها في الممرّ وأنا أُجفّف جسدي، ولا أتوقّف عن النظر لمؤخّرتها، بينما أُثبّتُ الشاربَ الذي فُكَّ مع حركة جسدي.

نصل إلى غرفة بلا نوافذ، بسريرَيْن خاليَيْن، فأترك البشكير في واحد منهما، وأرقد على الآخر على ظهري، مثل بياتريث سماريتاس في مركز التجميل. هواء الغرفة، رغم فخامة الفندق، هواء معسكر أو صالة تشريح، وأنا أبدو جثّة، انتهوا من تجهيزها قبل تحليلها، لكنها بدلًا من ذلك، من تحليلها، تدهن الفتاة يَدَيْها بكريم، وتبدأ دَهْن قَدَمَيّ، وتصعد متّبعة نظامي العضلي، ويبدو أنها تخلقه في لحظة لَمْسي. أُغمض عينَيّ، وأرى فتاة المعطف الأبيض بداخلي؛ لقد بلغتْ فخذَيّ، وأنا أوشك على البكاء من المتعة، لم يلمسْني أحدٌ قطّ هكذا، يجب أن تُميتَ نفسكَ، لتحصل على هذه الأشياء. الشارب لا يزال يتعامل بأناقة؛ إن لم أحرّكْ وجهي، سيستمرّ في مكانه. أنا بالداخل، بعينَيْن مغمضَتَيْن، أنا رحِبٌ، أنا كونٌ، وهي، هذه الفتاة، نجمة جوّالة، تجول في فراغ فلكي، لتبلغ بطني. وأنا ميت أيضًا فوق أريكة صالة التشريح، وهذه المرأة التي تميل فوق بطني لتدعكَ عضلاتي تُجهّز جسدي، لتتجسّد فيه نسخة أخرى من ذاتي، وأفكّر

بشيء من الحزن، ليس حزنًا كبيرًا في الحقيقة، في لاورا ودابيد، هي أرملة، وهو يتيم، لأن خيسوس الذي يعرفانه مات، وجسدي على وشك العودة بهوية أخرى. عودة الرجل ذي الشارب المستعار. ربّما لا يكون اليُتم شيئًا سيّئًا لـ دابيد، أنا أستطيع أن أتصنّع أني أبوه لفترة على الأقلّ، ثمّ عليه أن يبحث عن أبيه، عندما يكبر، سأدفع له ثمن رحلة لماديرا.

وفي لحظة ما أتأمّل الأريكة المجاورة، الخالية، وأشعر بأن رجلاً غير مَرئي يتلقّى هناك مسّاجًا من امرأة غير مَرئية، كأنهما انعكاس غير مَرئي لنا. تصنع فتاة المعطف دوائر حول حلمَتَيّ، فتنتصبان، كأنهما حلمتا امرأة، حلمتا أمّي، التي أمتلك أيضًا لثّتها. أفتح عينَيّ، وأرى جانب وجهها مائلاً على لوحة صدري، تقوم فوقه بعملية حسابية عنيفة، وقد وسّعت فتحة المعطف قليلاً، وظهرت منها حمّالة نهدَيْها المنفصلة قليلاً عن تدويرة صدرها، كأنها نسيج عضوي، طبقة جلد أخرى تنفصل عنها أكثر منها قطعة ملابس داخلية، يا للجنون! بعد أن مهّدت الصدرَ، تأمرني أن أنقلب على وجهي، ولابد أن أنتبه لشاربي الذي لا يزال يقاوِم، مَنْ لا يقاوم هو أنا، إذ برؤية نفسي هكذا، على بطني، شاعرًا بأصابعها تعتلي مؤخّرتي برقّة خطوات على رمال شاطئ، تواتيني رغبة عارمة في البكاء من المتعة، لقد كنتُ متقشّفًا جدًا، وارتعبت الفتاة، قد تكون في سنّ ابنتي، قليلاً في البداية، لكنها، بعد ذلك، تدرك شيئًا، لا أعرف، الحال أنها قبّلتْني في ظهري، وضربتْني ضربات خفيفة على رقبتي، حينها نسيتُ الشارب، وحين رفعتُ رأسي قليلاً لأقمع البكاء، رأيتُهُ ساقطًا على بعد شبر من فمي، هي لم تنتبه، هكذا لصقتُه، لكنه فُكّ بسبب الدموع أو المخاط، لأني بكيتُ بمخاط، كما كنتُ أبكي وأنا صغير، يا للراحة!

أخرج كاملاً، بشاربي وبكل شيء من هذه البناية، وأتّجه إلى غرفتي.

يبدو أنهم بدّلوا جسدي، غدا جديدًا، باهيًا، ويروق لي أن أُظهرَه، لكنْ، لمَنْ؟ عليّ أوّلًا أن أعدّل شاربي. أن أجفّفه قبل أن ألصقه بلاصق، وأضعه على شَفَتي أمام المرآة. ها أنا أستعرضه. أتمشّى في الغرفة وأنا مُدرِك لحركة ساقَيّ، ولحركة ذراعَيّ، ولدقّات قلبي، ولكمّيّة الهواء التي تخرج من رئَتَيّ. تروق لي القراءة، فأسحب المجموعة الروحانية من الخزانة، لا أعرف كم ساعة سأبقى هنا، وأقرأ أشياء عن العالم الآخر، بمعنى عن الموت، عن التجسيد، وبرغبة في زيارة بياتريث سماريتاس، عندما أعود لقارة نفسي ذاتها، سأتمكّن من قضاء بقية حياتي متنقّلاً من مكان لآخر داخل ذاتي، أنا كبير، نحن لا يمكن الإحاطة بنا، هذا ما تقوله هذه الكُتُب، لقد قرأتُ كتابًا لبياتريث سماريتاس، تؤكّد فيه أننا كبار جدًا من الداخل أكثر من الخارج، وهذه حقيقة، لأني حين أُغمض عينَيّ، أرى داخل ذاتي شاطئًا، مثلاً، وعلى الضفاف، يمكن أن أتصوّر ما أريد، أمّي في نسختها الدنماركية وهي تتنزّه عارية على الضّفّة، عارية، كما رأيتُها في الساونا، بعقدَتَيْن تشبهان حلمَتَيْن، تتحدّى بهما الكون، كأنها تسأل هل ثمّة أحد في الأفق قادر على فكّ هاتَيْن العقدَتَيْن؟ حينها أظهر أنا، وتغيم السماء لأنني ترافقني أحداث طقسية، أظهر، كنتُ أقول، بشارب، مثل أوليجاريو، حتّى لا تنتبه إلى أني ابنها، وهي تلتزم الهدوء، فيما أقترب أنا بجسد جديد، دون استعراضه، فألتقط حلمَتَيْهَا بين أصابعي، وشيء ما يبدأ في الانحلال بداخلها، إذ تضعف، وتنظر إليّ بتعبير الشهيدات، بمعنى، نظرة تتوسّل أن أستمرّ في حلّ جسدها حتّى يبلغ الكمال، وجسدها يتحلّل بين يَدَيّ أو، أكثر من التّحلّل، يتسلّل إليّ عبر يَدَيّ، مثل كريم يتخلّلنا عبر أصابعنا، ونحن الشيء نفسه. الحال أني أفتح عينَيّ بشكل مُتخيَّل، وأرى الغرفة، أنا فوق السرير، ومبلولًا، وهي ستأتي في الحال، لتُغيِّر لي ملابسي.

نحن من الداخل أكبر من الخارج، نعم، أُنظّف نفسي، وأواصل قراءة مقال بياتريث سماريتاس، ثمّ أنزل للعشاء في أحد مطاعم الفندق، لا رغبة لي في الخروج رغم أن المطر توقّف، ولا بد أن نقاء الجوّ يساعد على التّنفّس. أدخل المصعد، غرفتي في الطابق الخامس، أُغمضُ عينَيّ، وأنتبه، كما كانت بياتريث سماريتاس تقول في مقالها، إلى أني لستُ مَنْ يهبط داخل المصعد، بل إن المصعد مَنْ يهبط بداخلي، نعتقد أننا نتجوّل العالم، لكننا لا نفعل شيئًا آخر إلا الانتقال من جانب لجانب آخر من ذواتنا، لأن العالم بداخلنا، وعند تجوُّله يتجوّلنا.

في المطعم، ثمّة عُجّز مقسّمون إلى أزواج، وأحيانًا أربعة في أربعة، لكني لا أرى أبَوَيّ، لا بدّ أنهما راحا للعشاء بالخارج.

نمتُ في السرير الأقرب من الشرفة، إذ ربّما نشب حريق. دائمًا ما بدتْ لي الشرفات المكان الأكثر أمانًا، حتّى لو كانت في الطابق الخامس. وفي السرير المجاور، نامت نسختي غير المَرئية. فبالإضافة لأحمق وميت وابن حرام، كنتُ أيضًا غير مَرئي خلال فترات ما. كنتُ قد نسيتُ ذلك، لكني كنتُ أتجوّل في الحيّ أحيانًا، أو أصعد الباص بِنِيَّةِ ألا يراني أحد، وبالفعل لم يكن أحد يراني، أو ربّما لم يكونوا ينظرون إليّ. لا أعرف متى تخلّيتُ عن ممارسة هذه اللُّعبة التي كانت لها مخاطرها أيضًا، لكنْ، رغم توقّفي عنها، لا بد أن نسختي غير المَرئية واصلت النُّمُوّ في بُعْدٍ ما موازٍ لبُعْدِي، ربّما من أجل ذلك، كلّما كنتُ أسافر على حساب شركة الورق الحكومية، كنتُ أطلب أن يحجزوا لي غرفة بسريرَيْن؛ ليس أني كنتُ أبحث عن صحبة، هذه حقيقة أخرى، إنما لأُفسح مكانًا لهذا الرجل غير المَرئي الذي، من دون أن أعرف، وإن كنتُ أحدس، كان يصحبني إلى كلّ مكان، كإحدى الترجمات الممكنة لحياتي. أعرف أنه نام على السرير المجاور، لأن تنفّسه اليائس أيقظني ليلاً. كان يتنفّس مثل رجل مُنهَكٍ، مثل رجل كان النوم بالنسبة إليه، أكثر منه هدنة، تطلّعًا أخلاقيًا، نظامًا. محتمل أن حياته كانت كارثية من دون أن يراه أحد. قلتُ له أن ينام في أمان، إننا معًا مرّة أخرى، وبدا لي أن إيقاع نَفَسِهِ غدا مستكينًا، بحيث غططنا في النوم بعد قليل.

اليوم التالي أصبح مشمسًا. خرجتُ إلى الحديقة بعد الإفطار، والتفتُّ

إلى الزهور، وكانت في كلّ جانب، بحجم الأحلام وشكلها، لكنْ، ينقصها الرائحة. هبطتُ من السلالم المؤدّية إلى المحيط، ولَفَتَني فجأةً أن هذه الجزيرة بلا طقس، رغم أنها تُمطر أحيانًا، هكذا لم تكن الجزيرة مكانًا، بل حالة، مثل الجحيم، مثل الجنّة، مثل الوعي، فحتّى لو كانت مُترَعَة بالزهور، فالزهور بلا عبق. وكانت النباتات الطافية على أرض المكان البركانية بلا رائحة أيضًا رغم أنها كبيرة وفجّة. يبدو لي أن الزهور الاستوائية هكذا: يمكن أن تتّخذ أشكال الوعي الأكثر تعذيبًا وسمانةً، غير أنها تعاني من عقاب خُلُوّها من أيّ عَبَق، هكذا لا يستطيع الواحد أن يهتدي بالشمّ، ليعرف إن كان يتصرّف بخير أو بشرّ، إذ تصمت حاسّة الشمّ حين تنفجر طبيعة الفرد البركانية.

عبر شارع ضيّق يُسمّى "بينيا" بـ لاروا دا فرانكا، واصلتُ الهبوط حتّى المحيط، لكنني اكتشفتُ، في أثناء سيري، كنيسة، ولم أدخلها، إذ من المؤكّد أن نسخة منّي بداخلها، ولا يروق لي أن أقابلها. لم يكن بوسعي أن أتحمّل فجأة كلّ مَنْ كُنْتُهُم. ثمّ، وبعد أن استسلمتُ لقرون استشعار تقودني، بدأتُ أبتعد عن المنطقة السياحية، حيث تقع الفنادق والمحلات الغالية، وتمشّيتُ حتّى وصلتُ إلى الفونشال الحقيقي، ووجدتُهُ نسخة من حييّ: وكانت أرصفته أيضًا مكسورة. وعبر لاروا دو كارمو وصلتُ إلى تقاطع شوارع، نوع من ميدان مُعوّق أو مُشوّه، هذا التقاطع أو الميدان رأيتُهُ في مُدُن العالم كلّها التي عرفتُها، وبسببه كنتُ أبحث عن مخرج للهروب من الحيّ، حتّى أكبر وحتّى أكون شيئًا، حتّى أفرّ من الموت الذي يلاحقني، ليُحقّق رغبته في تحصيل دَيْن قديم. كان المخرَج نفسه، وسكنتُ في مكاني، وأنا أتشمّم انبثاقات، تخرج من المَشَارب، لأنّ المَشَارب، على عكس الوعي والزهور، لها رائحة طعام رخيص، وكان ذلك واقعيًا. لقد بلغتُ الواقع، وتنهّدتُ، أقصد وتنهّدتُ مجدّدًا، حينما خرج شخص له

شارب من مدخل بناية مظلم بذاك الشارع المكسور، وكان يحمل تابوتًا طفوليًا تحت ذراعه بتلقائية مَنْ يحمل رغيف خبز نفسها. اتبعتُهُ على طول لاروا دو كارمو لمدّة عشر دقائق، ورأيتُهُ يدخل مدخلًا قاتمًا آخر، مثل مدخل بنايتي، ويصعد السّلّم. عرفتُ أن التابوت كان من أجلي، لأن ذاك المدخل كان المدخل نفسه الذي راهنتُ فيه على حياتي أمام صندوق أحذية كان يسعُ العالم، عالمي.

هكذا لم أكن في حاجة إلى الهروب، لأن تلك الترجمة لكينونتي، حيث كنتُ ميتًا، كانت تواصل طريقها، مثل ترجمة الرجل غير المَرئي، وفي نقطة ما من ذاك البُعْد الآخر، كانت جثّتي تتمدّد على هواها. لم يكن عليّ إلا التفكير فحسب في البحث عن مقبرته، لأضع عليها بعض الزهور. وبدأتُ أدرك أن وجودي كان يقترب من قطب، تتقاطع فيه خطوط حياتي الطولية والعرضية. لذلك كنتُ أحيانًا شخصًا، وأحيانًا أخرى شخصًا آخر، إذ كانت نسخي كلّها تهرب في اتّجاهات مختلفة بذاك الشارع، وذاك المدخل، وذاك الحيّ، لتبلغ مكان تقاطع الطُّرُق، وأنا كنتُ أعبر من بُعْد بذاتي إلى بُعْد آخر بالسهولة نفسها التي تنتقّل بها في بيتكَ من الصالة إلى المطبخ، معتقدًا بأنكَ الشخص نفسه في هذا المكان، أو ذاك. يا للراحة!

وهاربًا من لاروا دو كارمو عبر أحد المخارج الجانبية، وصلتُ إلى شارع يُسمّى "مبرّد" وهناك ظللتُ متجمّدًا، ليس لأن الطقس بارد، فلا علاقة بذلك، بل لأني أدركتُ أن المبرّد، حين يكون فقيرًا، يمكن أن يمثّل تطلّعًا أخلاقيًا أيضًا، نظامًا يدفع فيه الواحد أيّ ثمن، بما في ذلك ألا يكون واقعيًا. الحال أني تهتُ وأنا أتأمّل واجهات (السوبر ماركتات) ومحلات المجوهرات المُقلّدة، مثل مجوهرات حييّ، بساعاتها البلاستكية، وسلاسلها النحاسية المعروضة في الفاترينات، تهتُ، أقول، لكنْ، ليس في داخل فونشال، إنما

في داخل ذاتي، لأنها حقيقة أنه بين شوارع الكون كلّها ثمّة شارع واحد يؤدّي إليكَ أنتَ، وأنا عثرتُ عليه، يا إلهي، وكان لاروا دو كارمو. هكذا كانت تلك المحلات مع محلات الفخّار الثمينة هي في الواقع مناطق ذاتي التي أهملتُها جدًا، لأُقلّد زملائي.

كان من الممكن أن أتغدّى في واحد من تلك المَشَارب الرخيصة، غير أني قرّرتُ أنّ الأَرْيَحَ هو العودة لمنطقة الفندق، حيث تنتظرني نسختي الميتة، ميتٌ أفضل من بائس، وهكذا أخذتُ تاكسيًا، وفي مكتب استقبال الفندق، نصحوني بمطعم غالٍ، هناك التقيتُ بموتى آخرين من شمال أو وسط أوروبا، في شرفة تطلّ على البحر. وبمُجرّد ما بدأتُ مهاجمة الكابوريا وشرب البيرة، وصل أبَوَاي الدنماركيان، وقعدا في المائدة المجاورة. كان بصحبتهما رجل مشبوه، عجوز بأنف حادّ، وقبّعة كولونيالية، وظريف لطبيعة مهنته، كان يحاول أن يبيع لهما شيئًا. انتبهتُ في الحال، من خلال نظرة أمّي، ولأنهما الآن يتحدّثان بإسبانية مكسورة، إلى أنه يحاول النصبَ عليهما. العجوز ذو الأنف الحادّ كان إسبانيًا؛ عرفتُ كذلك أن أبي الدنماركي كان يعمل في شركة سيمينز، وأنه بعد الحرب، لا أعرف أيّ حرب، أرسلوه إلى إسبانيا، ووصل إلى منصب مدير سيمينز هناك، وكانت لديه ذكرى طيّبة عن ذاك البلد، رغم أنه لم يُجِد اللغة، إذ كان يخلطها بأجزاء من جسد البرتغالية والإيطالية صانعًا بيترل يحتاج إلى تأويل. على أيّ حال، أدركتُ أن العجوز الميت الذي يرتدي قبّعة كولونيالية رجل وقح، يستغلّ توق أبي الدنماركي إلى الماضي، ويحاول أن ينصبَ عليه في أموال من مدخّراته، ليقيم مشروعًا آمنًا هنا، في ماديرا، عبارة عن عدّة شقق، لم تُشيد بعد، أو شيء من هذا القبيل، وقال له إن المحالين إلى التقاعد يقضون نصف العام في ماديرا وعددهم في ازدياد، والآن يأتون من شمال ووسط أوروبا، لكنْ، سريعًا ما سيأتي اليابانيون، إنه مشروع آمن. وأمّي، رغم أنها مهذّبة

جدًا في نسختها الدنماركية، كانت تمتعض من دون أن تستمتع بالجمبري المشوي الذي قدّمه لها النادل في التّوّ.

العجوز المثير للاشمئزاز انصرف قبلهما، لقد كان واضحًا أنه نزيل في فندق آخر، لكني أعتقد أنه يعيش في نُزُل، بشارع المبرّد، أو شيء هكذا. وبعد أن انصرف، احتدّ النقاش بين أبَوَيّ بالدنماركية وبدا لي أن أمّي على وشك البكاء. ثمّ، حين نهضا، اتّبعتُهما حتّى الفندق، استلمتُ مفتاحي من الاستقبال وأنا خلفهما، وسمعتُ موظّف الاستقبال يعلن عليهما رحلة بالجزيرة، تأجّلتْ في اليوم السابق لسوء الجوّ، وستكون في اليوم التالي. ركبْنا المصعد نفسه، وفكّرتُ أنهما قد يتذكّرانني في هذه المساحة الضّيّقة: تخيّلتُ أني خلعتُ شاربي، وحدث مشهد مؤثّر، لكنهما ولا حتّى نظرا إليّ، كنتُ أبدو غير مَرئي. ماما كانت محتقنة جدًا. الحال أن غرفتهما كانت أيضًا في الطابق الخامس، بعد غرفتي ببابَيْن. وكان ذلك سلوى.

دخلتُ السرير، وحاولتُ قراءة كتاب عن تِقْنِيّات العرض الإبداعي، لكني لم أستطع التركيز فيه: كنتُ منفعلًا لمعرفتي أني بجوارهما، ومشغولًا بماما المحتقنة. كنتُ مضطرًا للتفكير في طريقة لحمايتهما من هذا الرجل الوقح. هبطتُ إلى الاستقبال، وأبلغتُهم اهتمامي بالرحلة حول الجزيرة؛ كان ثمّة أماكن شاغرة، وبالتالي سجّلتُ اسمي، هكذا سأكون بالقرب منهما طوال اليوم، ويمكنني أن أساعدهما، إن احتاجاني. ثمّ، عند عودتي للغرفة، رأيتُ أن بالسقف ممرًّا صغيرًا، له فتحة متحرّكة، بحجم جسد، هي مدخل إلى نفق، لا بدّ أنه يضمّ وصلات المكيّف وأسلاك الإضاءة. لو الأمر كذلك، فثمّة ماسورة، تربط غرف ذاك الجناح كلّها. أثارتْني الفكرة، فطلبتُ من نسختي غير المَرئية أن تتحرّى في ذلك. علّقتُ على الباب لافتة عدم الإزعاج، وبفضل كرسي، أزحتُ الغطاء، وجمعتُ قدرتي غير

المَرئية مع مرونة جثّة، وتسلّلتُ إلى الماسورة، وبدأتُ أزحف صوب أبَوَيّ. عبرتُ من دون مشكلة الحاجزَيْن اللذَيْن يفصلاننا، وبلغت غرفتهما. من عمق الغرفة، كانت تأتي نهنهات مشتعلة من الغضب، هي نهنهات ماما بلا شكّ. وكان بابا يحاول تهدئتها بالدنماركية، لكني لاحظتُ من نبرته أنه لم يكن مستعدًا للتراجع عن فكرته، أيًا كانت، والتي كما أخشى كانت تكمن في التنازل للنّصّاب ذي القبّعة الكولونيالية عن مدخّرات حياته كلّها، ليشارك في هذه التجارة الغامضة. تخيّلتُهما فقراء في هذه السّنّ، بمعنى، عودتهما إلى نسختهما الإسبانية، وبدتْ لي فكرة لا تُحتمَل، لكنْ، ماذا بوسعي أنا أن أفعل؟ كان من سمات بابا التورّط في أشياء تُدمّر أعصاب ماما. تلك المشادّة كانت تمزّق قلبي، مثلما كان يتمزّق وأنا صغير حين أسمعُهما يتشاجران من غرفتي، حتّى عندما أسدّ أذنيّ، لأن صراخهما كان يتردّد بداخلي. أيضًا هناك، وأنا مقرفص، سَدَدْتُ أذنيّ، وبلغتْني الحسرات الدنماركية بالنقاء نفسه الذي به كانت تبلغني الحسرات الإسبانية، ورغم أني لم أكن أفهمها إلا أنها كانت تعذّبني كثيرًا بمقدار القديمة نفسها. شعرت بكره لأبي حد أني وددت إزالة الحاجز والقفز لمنتصف الغرفة وخلع شاربي، كَمَنْ يُشهر سيفه، لأقف بجانب ماما. لكني أتصرّف بنسختي غير المَرئية، ولن أجني من ذلك أيّ شيء. بالتالي، درتُ للخلف، وعدتُ على أربع لغرفتي، حيث استعدتُ في الحال ترجمتي المَرئية، إذ رأيتُ نفسي، عند مروري، في مرآة الحمّام. انتابني ضيق حدّ أني ظللتُ بقية النهار ملقًى على السرير، مدخّنًا سيجارة وراء سيجارة، أقصد وينستون باستمرار، ولم أخرج من الغرفة حتّى اليوم التالي، في ساعة الرحلة.

انطلقت العربة بعد الإفطار، في العاشرة صباحًا. جلستُ في الجزء الخلفي، من حيث رأيتُ صعود أبَوَيّ، وملتصقًا بهما العجوز الإسباني بقبّعته الكولونيالية التي فوق حزامها ثمّة بقعات عَرَق مثل التي كنتُ أشاهدها أعلى القيشاني في مطبخ بيتي. جلسوا على بُعْد أربعة أو خمسة صفوف منّي، ماما بجوار النافذة، وبابا في كرسي الممرّ، حتّى يستطيع التّحدّث مع الوقح ذي الأنف الحادّ، حيث جلس في المكان نفسه، بالصّفّ المجاور. أعطونا خريطة صغيرة للجزيرة، كانت لها بالفعل شكل كِلية مُتورّمة، وكان طريقنا مخطّطًا بقلم ملوّن: سنأخذ الشاطئ حتّى ريبيرا برافا، ومن هناك، نعبرها لنصل إلى طرفها الشمالي، حيث سنتغدّى في قرية، اسمها سان فيسنتي، يا للصدفة! اسم أبي الإسباني.

نبّه علينا المرشد أننا سنعبر بفصول السنة الأربعة على طول جولتنا التي لا تتجاوز الخمسين كيلو مترًا، وبالتالي، ورغم أننا خرجْنا من فصل صيفي، قد نجد في الطريق قِطَعًا من الخريف وبقايا الشتاء، مع وجود قطعة أو أخرى من الربيع: ما كان يحدث لي نفسه، فأحيانًا، عندما أُغمض عينَيّ، أعبر من دون نظام ولا وعي من المناطق الأكثر دفئًا بخيالي إلى الأراضي الأكثر قَفْرًا بتفكيري. كنتُ مأخوذًا قليلًا بأن أرى في الخارج ما أحمله بالداخل، وتحقّقتُ في الحال أني كنتُ محقًا، إذ بمُجرّد وصولنا لـ

ريبيرا برافا، والبدء في الصعود نحو الشمال، غدا الجوّ مغيّمًا، ومن بين فواصل الضباب، بدأتُ أرى أركان وعيي التي لا يمكنني التّسلّل إليها، وأكّد المرشد أنه في الأيّام الرائقة تمتلئ بالوديان الأخّاذة التي تسير بجانبها العربة عشرة كيلو مترات في الساعة، إذ الطريق وعر وضيّق مثل طُرُق النَّفْس. وصعدْنا بميناء جبلي، أبعدَنا عن مستوى البحر بسرعة الانتقال من بُعْد لبُعْد، وكان شتاءً بالفعل، شتاءً رطبًا، يترك ضبابه على زجاج السّيّارة، وعبر الزجاج، مع ذلك، كان يمكن تقدير أكثر الأشكال عذابًا للذكاء. أحيانًا، كان يظهر في وسط الطريق أحجار كهفية وقاتمة، مثل الوساوس، تتساقط من إفريز، يلتصق به الباص بشكل تلقائي، ليتجنّب القرب من حافّة مفتوحة على الجانب الآخر. وأحيانًا أخرى، كنّا نبلغ هضاب حِمَم، يخرج منها فروع عشبية متعرّجة، تُذكّرنا بمناطق عثّة بالشَّعْر، تظهر في رؤوس الصُّلْع الناجين من كارثة نووية. رغم كلّ شيء، أكثر ما لَفَتَنا كان التّوغّل في أنفاق منحوتة في الصخرة، مضاءة بمصابيح نيون، أو بمصابيح ضعيفة، وعبرها كان يتسلّل عَرَق تأنيب الضمير المظلم. والمرشد، من دون أيّ رحمة، كان يتمتّع بحكاية الأصل البركاني لتلك التضاريس كلّها التي نحملها بدواخلنا، وبلغات مختلفة، مسرّبًا تفاصيل مُسلّيةً مثل أن الجزيرة بلا حيوانات، وأنها كانت أكثر الغرابات التي لَفَتَتْ انتباه المكتشفين، أنها بلا ثدييات، طيور فقط، وبعض الزواحف، وكان ذلك من قبل الحريق، إذ تعرّضت الجزيرة لحريق مُدمّر، استمرّ سبع سنوات، وربّما سبعون، لا أعرف، على أيّ حال، كان حريقًا كثيفًا جدًا مثل هذا الحريق الذي التهمَني أنا. ثمّ، كما يبدو، أعاد تعميرها أنواع منحدرة من أماكن أخرى، بطموح ألا تنتمي إلى الجزيرة، لكنها تجذّرت في هذه الأرض القاتمة التي تمخّضتْ عن تقيّؤ بركان بآمال ضخمة.

كنتُ أراقب أبَوَيّ من آن لآخر، ولأن ماما كانت تُدير رأسها ناحية

النافذة، لم يتوقّف بابا عن الحديث مع الرجل الإسباني عبر ممرّ، يفصل بينهما. كنتُ أُفضّل أن يتأمّل أكثر المنظر الطبيعي، إذ لم أُحدّثه قطُ عن نفسي، ولا عن الشكل الذي كيّفا به مخاوفهما عندما أعدتُ بالمخاوف نفسها تعمير أرض شخصيّتي المكفهرّة، شخصية! يا لها من كلمة خاوية: شخصية، لكنه كان مأخوذًا بحكايات تأتيه من الطرف الآخر عن إسبانيا، وكان يمزح بها بمهارة رجل أعمال ماديرا الكبير، من دون أيّ استغلال حتّى الآن. تشييد شقق ومساعدات من الحكومة.

عندما بدأنا الهبوط مجدّدًا في اتّجاه سان فيسنتي، كان الضباب قد انزاح، وظهرت فجأة قطعة من بحر، تضيئها الشمس، وكانت لحظة ساحرة، مثلما يحدث حين نرفع وسواسًا، ونشاهد تحته رغبة متحقّقة، ولامعة. تغدّينا في مطعم على الشاطئ، وتنزّهنا بعدها بالقرية التي تفصلها عن الجزيرة قمم جبلية، انحدرنا منها. كنتُ أسير دائمًا بخطوات متأخّرة عن أبَوَيّ، وكان الرجل الإسباني لا ينفصل عنهما، ولو لحظة. سمعتُهُ يقول لهما في أثناء الغداء إنه أرمل، رغم أن للأرامل هيئة مختلفة. الرجل الأرمل يجب أن يشبه تابوتًا، لأن ثمّة شيئًا ميتًا بداخله، وما تحمله بداخلكَ سيتركُ بصمته في نهاية المطاف على هيئتكَ الخارجية، وهكذا فالأرامل محض جراب حقيقي، وهذا ما يصنع جاذبيّتهم. الأرملة أيضًا كذلك، بداخلها حاوية تستريح فيها، من دون تعرّض للتّلَف، ذكرى بلا حياة. بالمناسبة، كانت مقابر سان فيسنتي فريدة جدًا، المقابر كلّها فريدة، أعرف ذلك، لكن هذه المقابر كانت مُترَعَة بالسحالي، وبعضها بلا ذيل، وفكّرتُ أن طفلًا ميتًا كان يرقد في مقبرة ما، فقطع لها ذيولها ظنّا منه أنها لُعبة: تُعرَض هذه المقبرة في فاترينة محلّ لُعَب أطفال، وتبدو شيئًا آخر؛ تمنّيتُ أن أُدفَن هناك، داخل تابوت كان يحمله رجل شارع الفونشال تحت إبطه،

فصلّيتُ بشيء. بشكل عامّ، لم أركّز جيّدًا في الأشياء التي كان المرشد يحكيها، رغم أنه كان يُكرّرها بالإسبانية لي وللرجل الوقح، إذ كنتُ مشغولًا بتحرير أَبَوَيّ من هذا الرجل ذي الأنف الحادّ، أنف يشبه أنف بيو الثاني عشر في صورة له عند وفاته، لا زلتُ أتذكّرها.

وبدلًا من العودة من الطريق نفسها التي جئنا منها، قادونا من طريق أخرى ملاصقة للشاطئ، شاهدنا فيها بعض التّشوّهات الطبيعية: كانت مثل السفر بجناح قبّعة مستعملة: في جانب ثمّة حائط ببقعات العَرَق، وفي الجانب الآخر، ثمّة فراغ في عمقه يتجلّى محيط، تجرحه الشمس. عبر هذه الطريق وصلنا لـ بورتو مونيز، كما يبدو لي، لم أشعر قطّ في حياتي بأني بلغتُ مركز أحشائي مثل ذاك اليوم: كانت رأس الجزيرة، طرفها حيث الكِلية تتكوّر قليلًا، لتتزاوج مع المنطقة القطنية. لو ضِعتَ هناك، لن تعودَ أبدًا، لكننا عدنا في الحال إلى الباص، لأن العجائز كانوا مُرهَقِين، وبدأنا العودة بطريق صاعد من خلال ميناء جبلي رطب، وقاتم أكثر ممّا جئنا منه، وسريعًا ما وصلنا إلى مركز الشتاء، شتاء أكثر خشونة أيضًا من شتاء الصباح، إذ بدأت الشمس في السقوط، من دون أن تسخن أشرعة الضباب المنسدلة التي تفصلنا عنها.

في أثناء ذلك، انزلق الأوتوبيس قليلًا، وفي الحال هدأ. خرج السائق، ثمّ أطلّ علينا، ليُخبرنا بأن أحد الإطارات مثقوب. كان يجب أن نخلي الباص، بينما يُغيّر الإطار، وشجّعنا المرشد على تأمّل ما يحيط بنا قليلًا، فلم نرَ إلا سحابات هابطة، نُسمّيها ضبابًا. ورغم أن العجائز بعيدي النظر ارتدوا معاطفَ رياضية، راح أغلبنا بملابس صيفية، هكذا ظللْنا بجانب الباص، لنستغلّ حرارة المُحرّك. أما العجوزان الدنماركيان، فكانا يُحرّكان

أيديهما وأقدامهما بحركات رياضية، كأنهما بذلك يتجرّدان من البرد، رغم أن ما حاولا أن يتجرّدا منه، في العمق، هو الخوف. الخوف من الأورام التي تحيط بهما جرّاء الضباب، لأنهما كانا يحدسان أن ما على الضّفّة الأخرى ليس منظرًا طبيعيًا، بل مجموعة من الغدد أو الأعضاء الغددية، لا أعرف، أو مجموعة من تأنيبات الضمير.

كنّا في مكان معتم، بشكل خاصّ، لأن على جانبَي الطريق، وبين الضباب، كنّا نخمّن وجود تضاريس صخرية سوداء ومسنونة، ومن فتحاتها تطلّ نباتات نادرة، بلا رائحة، مُترَعَة بالأوراق الكبيرة التي تبدو أيادٍ رطبة ممتدّة للتّسوّل. في أثناء ذلك، التفتُّ للوراء ناحية أبَوَيّ، ورأيتُ أنهما وحيدان؛ أراقب المجموعة، ولا أعثر على القبّعة الكولونيالية. أتراجع قليلاً، وبفضل إحدى انفراجات الضباب حين تتباعد كتله كقطن منكمش، أميّز القبّعة بجانب الطريق. أقترب من هناك في الخفاء، وأنتبه إلى أن الوقح الإسباني، ابن بلدي، يتبوّل على حافّة هاوية، ويتأمّل سقوط مائه في أعماق ضميري، بإيماءة مَنْ يتبوّل على العالم أجمع من هذه المرتفعات الأخلاقية التي لا يبدو العالم منها إلا مُجرّد بيت للنمل. أقترب منه بيَدَيْن متدنيّتَيْن، كأني سأفعل مثله، فيوسع لي مكانًا بالابتسامة نفسها التي سحر بها أبي الدنماركي. نحن بداخل كتلة ضبابية، على بُعْد أمتار فقط من الباص، وبقية المجموعة، لكننا منعزلون عنهم، كأننا على بُعْد آلاف الكيلومترات، أو ربّما في بُعْد موازٍ، لا يمكن اختراقه. عند مشاهدته من قرب، كان العجوز هشًا جدًا، فالقبّعة ما تمنحه حجمًا أكبر من حجمه، بل يبدو كهيكل عَظْمي بملابس، فزّاعة. أرفع ذراعي اليمنى وهو لا يزال مبتسمًا، ثمّ أدفعه من كتفه، كأنه تمثال على حافّة جرف، فيسقط من دون أن يُصدّق أنه يسقط، ألمح ذلك في وجهه، يسقط بظهره، لأنه أدار

جسده، وبلّل قليلاً بنطلوني قبل أن ينقطع بوله. لم يصرخ، لأن نَفَسَهُ أيضًا انقطع. وبقيت القبّعة عند قَدَمَيّ، لكني أركلها، فتطير بخنوع صوب الأعماق. يا للبساطة!

تكثّف الضباب كبطاطا مهروسة، ورغم أني لستُ متوتّرًا إلا أني أشرد لعدّة ثوان، أعتقد أني في طريقي للباص، غير أني لا أراه، يهاجمني الخوف، لا نعرف أبدًا ما يتوارى تحت ضباب الروح، إن انجلى فجأة. حينئذ أسمع صوت المرشد، وفي الحال، مثل كتلة ضبابية، تتجلّى كتلة الباص. أنضمّ إلى المجموعة على مهل، وأنا أتحسّس شاربي، كأني بدلًا من ابتعادي عن الباص، كنتُ أتجوّل حوله، ثمّ نبدأ في الصعود بالترتيب. أنتبه إلى أن ساق البنطلون مبلولة أكثر ممّا كنتُ أعتقد، لكنها ستجفّ، كل شيء سيجفّ، أجلس في مكاني، وأراقب أبَوَيّ وهما يبحثان عن الرجل الإسباني، وحدهما مَن انتبها لغيابه. ينطلق الباص، وتطلّ ماما من النافذة، هذه ليست مشكلتها، لكن أبي ينفضه الذنب أو الخوف أو الطموح، فينهض، ويقترب من المرشد، ويتحدّث معه. يتوقّف الباص مرّة أخرى، ينزل السائق، وبصحبته المرشد، ونسمع صراخًا، يقمعه الضباب. ويسود بين العجائز شعور بالخطر، إذ لا يرون شيئًا على الجانب الآخر من الزجاج. يعودان ويسألان مَنْ شاهد الرجل ذي القبّعة البيضاء، غير أن أحدًا لم يره، ولا أنا. أعرض أن أرأس مجموعة للتّقصّي، فينضمّ إليّ بابا. لا شيء يُرَى، كأننا نقيم الأرض بوطئنا لها. نعود إلى الباص، ويقرّر السائق أننا لو لم ننطلق الآن، فلن ننطلق حتّى اليوم التالي. يستغلّ العجائز المعلومة حتّى يتخلّوا عن تضامنهم: الأفضل أن نصل إلى مكان بهاتف، ونُبلّغ الشرطة. وهكذا نفعل.

بإيجاز، وصلنا إلى فونشال، ودخلنا الفندق بوجوه حزينة كفريق كرة

قَدَم، خسر لتوّه في مباراة، أو حقّق أقلّ من المتوقّع. العجائز يجتمعون بالعجائز، وأنا أرحل إلى غرفتي، لأقرأ أشياء عن الحياة الأخرى، أو عن الحياة الأولى، لكنها تبدو عن الحياة الأخرى، مثل نسختي غير المَرئية التي تستريح في السرير المجاور لي، وأسمعها تتنفّس، كلّنا معًا، نسخي كلّها التي هربتْ من الحيّ القاسي تجتمع الآن في هذه اللحظة من حياتي، بل وضمّتْ أبَوَيّ كذلك، لقد اجتمعا داخل رأسي في النهاية، وصفّيتُ حسابي معهما، فما عدتُ مَدينًا لهما بشيء. كان يبدو لي أن الحياة مجموعة من القِطَع المتناثرة، تشبه قِطَع كوب زجاجي مكسور على الأرض، هذه القِطَع غدتْ تتقارب كما يحدث في فيلم حين ينتقل المشهد من كارثة إلى فرح، كنتُ أقول إن هذه القِطَع المتناثرة تُشكّل كائنًا، هو أنا، رجل مُركّب من أجزاء، جغرافيا محدّدة الملامح، يمكن من خلالها تشكيل خريطة، رغم أن شكل الخريطة سيكون كِلية، مثل ماديرا، أو كبدًا، مثل شكل التفكير، الحال أننا نعرف مكان حوافّها، كما نعرف أين ينتهي العضو، ويبدأ العضو المستعار، لأني الآن أعرف أن هويّتي أو شخصيّتي، يا لها من كلمة! كانت عضوًا مستعارًا، حاولتُ أن أحلّه محلّ وظيفة الذكاء، أيّ ذكاء يمكن أن يخرج من ذاك الشارع! يا إلهي، أيّ نوع من الذكاء تجرّأ ليدير الموارد البشرية بشركة أوراق، أوراق يكتب فيها الآخرون حيواتهم، لأن لديهم رواية عنها، ويعرفون من أين يجب أن يحكوها، وبصوت أيّ شخصية، أنا لا، أنا هربتُ من ذاك الحيّ، لأكون شيئًا، والآن أجد نفسي في محاولات دائمة، لأعثر على مكان واقعي، الواقع، يا لها أيضًا من كلمة! هل كان واقعًا وجودي في مؤسّسة الورق؟ أعتقد لا، أعتقد أن الواقع يجب أن يكون شيئًا آخر، لعلّه شيئًا أسوأ، أكثر شرًا، أكثر فظاظة، قد يكون في نهاية المطاف مثل تنفّس احتضاري لرجل غير مَرئي، هو أنا أيضًا، ويعاني من سهد شفّاف في السرير المجاور لي.

أقرأ الآن رسالة لمدير تحرير إحدى المجلات الميتافيزيقية، التابعة لـ لويس رائحة الخراء، وهو رجل واقعي، في الرسالة يحكي شخص أنه ذات يوم دخل النُّزُل الذي يعيش فيه، فوجد نفسَه جالسًا على حافّة السرير، يربط حذاءه؛ يقول إنه لم يَنْتَبْهُ الخوفُ، هكذا اقترب ليلمسَه، لكن الآخر قفز عليه، ودخل في جسده، واختفى بين لحمه. هكذا اختفى من حياتي أيضًا ذات يوم ذاك الطفل الذي لعب التّخفّي، لكنه لا يزال يبكي بداخلي. واختفى بمهارة، إذ لم يشاهده أحد رغم أنه لم يمتْ، لقد عاش حياة أخرى مختلفة عن حياتي، وتمتّع، مثلي تمامًا، بالرغبة في الراحة. فلننم.

في اليوم التالي لعودتي من ماديرا، وبينما كنتُ في الشّقّة، أجهّز نفسي لزيارة بياتريث سماريتاس التي أخذتُ منها ميعادًا قبل سفري، سمعتُ طرقات على الباب. كان لويس رائحة الخراء، وكان شَعْره بدأ ينبت مع الشامبو، ولم يستطع أن يُصدّق. كان يريد شامبوًا آخر، إذ المدمنون عادة ما يطلبون مرّة أخرى، وبمُجرّد أن يتعوّدوا، يمكنكَ أن تفعل فيهم ما يحلو لكَ. طبعًا انتبه في الحال إلى أن هذه الشّقّة ليست مكتبًا ولا شيئًا شبيهًا، لكنه لم يتجرأ على قول شيء؛ لو تجرّأ، لن أعطيه شامبوًا مرّة أخرى. في الأحوال كلّها، لم أعطه. قلتُ له إن عملية التصنيع كانت بطيئة جدًا، وإن الكمّيّة المقبلة لن تجهز قبل الأسبوع التالي.

بسبب السفر لـ ماديرا أهملتُ شؤون العمل- أضفتُ-، لكنْ، لو أعطيتَني بطاقة، سأتّصل بكَ خلال أيّام.

كان قد فَقَدَ إيماءة الاكتفاء السابقة، وكان ممتعًا مشاهدته يتسوّل بعينَيْه أيّ جرعة. عرض عليّ مالًا، أيّ مال أطلبه، لكني قلتُ له إنها ليست مسألة مال، ولم أكن قد فكّرتُ في التجارة به، وأحببتُ أن أُهادي به أصدقائي. دوّنَ لي هاتفًا، يمكنني أن أجده فيه، في أيّ وقت، ولأني ألمحتُ بأني مستعجل، انصرف خشية أن يُعطّلني؛ بالإضافة، كان الاستعجال حقيقيًا: كان يجب أن أقابل بياتريث سماريتاس، لأغلق دوائر مفتوحة. أو

لأفتح دوائر مغلقة، لا أعرف. كنتُ أشعر بأن قوّة استثنائية تستحوذ عليّ منذ موت رجل القبّعة الكولونيالية الذي لم يستطيعوا العثور على جثّته حتّى تركتُ ماديرا، فقد سقط في هوّة عميقة. ولم تمنح الجرائد للحادث أكثر من عدّة سطور، ربّما لعدم إلحاق ضرر بالسياحة، وهي المصدر الرئيس لدَخْل الجزيرة، بجانب الدَّعْم الحكومي. لكني، كلّما سافرتُ منذ ذلك الحين عبر أطلال وعيي، وتطلّعتُ إلى واحدة من أعماقه الأكثر غورًا، كنتُ أشمّ رائحة بقايا الجثّة، وأعرف أني إن كنتُ قادرًا على القتل، فسأكون قادرًا على أيّ شيء آخر. بالإضافة، قبل العودة من ماديرا، تمكّنتُ من العشاء ذات يوم بجانب أبَوَيّ في الفندق، وتبادلْنا العناوين. وعدتُهما بزيارة ذات يوم إن سافرتُ إلى كوبنهاغن. مبدئيًا، لم أفكّر في السفر إلى هناك، على الأقلّ حتّى أغلقَ دوائر أخرى، لكن معرفتي أنهما في متناوُل يدي، على بُعْد ساعات بالطائرة، كان يمنحني قوّة أيضًا، لأواصل للأمام، لأعيش بطمأنينة أني في نسختي الجديدة قد أربح المعركة. ليست المسألة أني عشتُ حياة قميئة من قبل، لقد وصلتُ لإدارة الموارد البشرية بإحدى أكبر مؤسّسات الورق، لكن الصواب أيضًا أني لم أبلغ هذا المنصب بهويّتي الحقيقية، بل بهوية مستعارة، بأداة في النهاية ليست عضوًا حقيقيًا. لم يكفّ ذكائي الكوني عن الهمس لي بأن لويس رائحة الخراء قد فاز في المعركة الغامقة التي بدأها في شوارع ذاك الحيّ، ومعه قد ربح روائح الخراء كلّها في العالم، بمَنْ فيهم أنا، مدير الموارد البشرية بمؤسّسة كبرى طردوني من عملي، لأني حاكيتُ المنطق الذي هم أنفسهم علّموني إيّاه. غير أن الحرب تبدأ من جديد، وينام بجانبي الميت وغير المَرئي وابن الحرام، وأيضًا الأحمق، المتخلّف: وبهذا التدريب وهذه الخبرة التي اكتسبتُها في الصراع السابق، قد أصل إلى أبواب روما بعد النصر في معركة تيسينيوس، تريبيا،

تراسمانيا وكاناي(*). لا أعرف لماذا من بين التاريخ الكوني كلّه الذي درستُهُ في المدرسة لا أحتفظ إلا بذكرى حسنة عن هانيبال الذي فَقَدَ إحدى عينَيْه في جبال البرانس. دائمًا ما رأيْتُهُ كشخص يشبه أوليجاريو الذي حاول أن يُكيّف الواقع على أحلامه، واختار الحُلْم عندما أدرك أن الواقع لن يتكيّف أبدًا على هذا الفراغ. كان هانيبال ابنًا لـ حملقار برقا، وكان له أخ يُسمّى صدر بعل، لا زلتُ أتذكّر.

كانت عيادة بياتريث سماريتاس قريبة جدًا ممّا كان في زمن آخر حي ميلادي. استقبلتْني بجلباب طويل، وواسع، عليه رسومات تشبه، بالصدفة، عضلات لاعب أوليمبي. أعتقد أني أُغرمتُ بها في الحال، لقد أُغرمتُ بها بالفعل منذ رأيتُ ساقَيْها في محلّ الحلّاق، منذ عرفتُ أن شارب أبي الذي أحتفظ به أنا خصلات من شَعْرها. هي لم تنتبه إلى ذلك في التّوّ، لكنها أيضًا أُغرمتْ بي. من جانب آخر، لم تنتبه إلى أن شاربي من خصلاتها؛ على الأقلّ، لم تشِرْ إلى ذلك، رغم أني حاولتُ إثارتها على طول الجلسة. سألْتُها إن كان ضروريًا أن أحلق شاربي، وقالت لي لا، إنه مُبهِر، وإنه لائقٌ جدًا على شخصيّتي، لأنه يداري رغبات الشَّفَتَيْن، وهو ما فكّرتُ فيه يوم قرّرتُ أن أستخدمه. أصابتْ من المرّة الأولى في معرفة بُرجي.

كانت تعيش بمفردها، لاحظتُ ذلك في التّوّ، وكانت طموحة وباردة، لأنها رغم إعجابها بي لم تقلْ أيّ شيء، لتُعلنه. من ناحية أخرى، تفاخرتْ بأنها تعرف ساسة وصحفيّيْن مؤثّرين: كان لديها حائط بالعيادة مغطّى بصور، تظهر فيها مع لويس برفقة وزراء وسكرتيري دولة يساريّيْن

---

*) مجموعة من معارك الحرب البونيقية الثانية التي انتصر فيها القرطاجيون بقيادة هانيبال على الرومان بقيادة تيبيريوس لونجيوس عام ٢١٨ ق.م (م).

ديمقراطيّين. كانت تُلقي بالورق على منضدة متحرّكة، ذكّرتني بمنضدة أبَوَيّ. وكنتُ تعلّمتُ من الكُتُب التي قرأتُها في ماديرا أن التّمتّع بمهارات فوق طبيعية، لا يجعل المرء أكثر طيبة. بشكل عامّ، ثمّة فكرة أن الأشخاص الذين يرتادون أبعادًا أخرى، يكتسبون طيبة، يمنحها لهم هذا الاحتكاك، لكن الحقيقة ليست كذلك، أوّلًا لأن في الأبعاد الأخرى، مثلما في بُعْدنا هذا، ثمّة رغبات، والرغبات تتطلّع للإشباع مثل الفجوات التي تحتاج إلى الامتلاء. ومن أجل ذلك، يُدفع أيّ ثمن، من أجل إشباع الرغبة، ورغم أنها حقيقة أن الثمن تُصحّحه الأخلاق بالطريقة نفسها تصحيح القطاع العامّ اليساريديمقراطي لعدم المساواة في السوق، فالصواب أيضًا أن الأخلاق وريثة الطبقات الوسطى والدنيا، وهي لم تتطوّر روحيًا، وتجد نفسها مقيّدة بصراع المصالح بين رغبتها ورغبة الآخرين. عندما تستطيع الهرب من مستطيل وعي البرجوازي الصغير، ستذهب إلى السوق، وتأخذ ما تريد، من دون السؤال عن صاحب الشيء، أو ثمنه. وأنا قد بدأتُ أخذ الأشياء التي أريدها، لأني تطوّرتُ أكثر من أيّ يساري ديمقراطي خرائي، كلّ رغبته تمُتلأ بعربة استيراد، وبيت له حديقة. وبينما كانت تُلقي الورق، غمضتُ عينَيّ للحظة، لأستحوذ على كوني، فرأيتُ بياتريث سابحة فيه كجسد سماوي في الفضاء. كانت متعلّقة بداخلي من دون أن تدري، وعندما كانت تتكلّم عن مستقبلي، كانت، في الوقت نفسه، ترسم مستقبلها، رغم أنها لم تستطع معرفة ذلك. الموت هو أقوى رغبة، رغبة أن تكون ميتًا، لتتخفّف من التّوتّرات كلّها . من أجل ذلك نموت، لأن الجسد مُجرّد تجويف لا يمتلئ تمامًا إلا بالموت. وأنا بلغتُ هذه الرغبة في الحياة، ما أعطاني قوّة استثنائية في مواجهة مَنْ لا يتمتّعون حتّى بوعي أن ما يرغبونه حقيقةً أكثر من أيّ شيء آخر هو الموت.

المشنقة تعني التجديد، موت القديم، قالت وهي تشير إلى ورقة

يمكن أن تثير الخوف في طالب مشورة آخر. ثمّة انطباع بأنكَ بدأتَ حياة جديدة، بأن آفاقكَ توسّعتْ فجأة.

نعم، قلتُ.

ربّما تغيير في العمل، لكنْ، لا، إنه شيء أقوى من ذلك، أضافتْ.

نعم، إنه شيء أقوى من ذلك، أشرتُ.

للحظة، انتبهتُ إلى أن بياتريث كانت مُشوّشة، كأنها تواجه هاوية جديدة لها. لكنها كانت أكبر من هاوية أيضًا، رغم أني لا أعرف ما هي: في الواقع، كانت تطلّ على كون من الأبعاد المجهولة، كون ربّما رأتْ فيه نفسها طافية، وشعرتْ بالخوف. فَقَدَتْ رغبتها في الاستمرار، راقَ لها أن تتحدّث، لكني قلتُ لها أن تعود، لتفرش الورق، وأن تبحث عن جثّة. تعصّبتْ، فهدّأتُها في الحال بابتسامتي الكونية. رأتْ عدّة موتى، من بينهم أبَوَاي الإسبانيَّان، لكنها لم ترَ العجوز ذي القبّعة الكولونيالية. قدراتها لم تصل لأبعد من ذلك، رغم أنها كانت ماهرة في عملها. ليس غريبًا أن يأتيها ساسة وصحفيون مؤثّرون. تزايد التّوتّر بيننا: مع أني جذّاب بالنسبة لها، لم تستطع أن تداري قلقها أمام ما لا تعرف أن تفعله. كانت تنظر في اتّجاه الورق حتّى تتجنّب عينَيّ. قلتُ لها حينئذ، بنبرة متغيّرة، لقد قرأتُ مقالًا لكِ في مجلّة ميتافيزيقية، فهدأتْ. السَّحَرَة، في العموم، يُهدِّئهم أن تربتَ على غرورهم، هكذا واصلتُ الطبطبة عليها لبرهة، واعترفتْ لي أنها كانت تطمح إلى أن يكون لها مطبوعة. كانت تلك هي رغبتها: أن تدير مجلّة عن الظواهر غير الطبيعية: ولا واحدة من المجلات الموجودة في السوق تشبعها، وكان لديها أفكار ممتازة، رغم أنها لم تحصل على المال اللازم بعد.

الورق غالٍ، أشرتُ.

الورق آخر ما نفكّر فيه، قالت.

أنا أعمل في شركة ورق، مديرًا للموارد البشرية. كنتُ في ماديرا، لأننا قد نفتح مصنعًا هناك بدَعْم من الحكومة. يمكن أن أرشدكَ فيما يخصّ الورق. نظرتْ إليّ مجدّدًا بإيماءة مرتابة، وحينها سألتُها إن كانت تعرف لويس وأنا أشير لها إلى واحدة من صور الحائط.

طبعًا، إنه يستحوذ على مجلات القطاع كلّها، قالت.

إذنْ، إنه في يدي. يمكنني أن أفعل به ما أريد. عودي لفَرْش الورق، الآن من أجل الحبّ.

حرّكت بياتريث الورق في شكل دائري، جمعتْهُ، وطلبتْ منّي أن أصنع ثلاثة أكوام بيدي اليسرى. كشفت الورقة الأولى من كل كوم، بالتتابع.

لكَ حياة عاطفية مستقرّة، علاقتكَ بشريكتكَ ليست سيئة، لكنْ، هنا تظهر امرأة أخرى، تدخل بقوّة مُلفِتة في حياتكَ. ساعدْني قليلاً. هل عرفتَها بالفعل؟

نعم، هي أنتِ، قلتُ لها.

حاولتْ أن تسيطر على نفسها بعض الشيء، لكنها لم تستطعْ. ما من طالب مشورة نظر إليها من قبل مثلما أنظر إليها. بالإضافة لذلك، كان واضحًا أنها أرشفت في المكان المناسب معلومتي عن لويس رائحة الخراء، وكانت تفكّر فيها.

هل تعرف لويس فعلًا؟ سألتْ.

بالطبع، كنّا نعيش في الحيّ نفسه، بالقرب من هنا. نعم، يبدو أكبر منّي سنًا، بسبب الصلعة، لكني أعالجها له بمُنبّت شَعْر من اختراعي. وبدأ شَعْره ينبتُ بالفعل.

هل أنتَ صاحب الإكسير الذي أعاد له شَعْره؟

هل حكى لكِ؟

كان قد حكى لها، ما يعني أنهما يتقابلان باستمرار، أكثر من ذلك، بياتريث تابعة لـ لويس، خمّنتُ ذلك في تلك اللحظة. بياتريث واحدة من ممتلكات لويس. اليساريون الديمقراطيون كانوا يُوجّهون قدرتهم الاستثمارية نحو الموارد البشرية، وأنا كنتُ في مركز مصالحهم الاستثمارية، من دون أن أعرف، لذلك طردوني، لأني لم أكن أعرف ما أملكه بين يَدَيّ. كل يوم، منذ أن غدوتُ ميتًا، كنتُ أفهم شيئًا جديدًا، هكذا أدركتُ في تلك اللحظة أنهم كانوا يشترون أجسادًا، شرقية أو أوروبية، بحسب سعر السوق وتوقّعات الارتفاع. وبياتريث كانت استثمارًا جيّدًا: رفعوا قيمتها في الحال، لأن بإمكانهم أن يشيدوا فوقها أيّ حلم. وأنا بدأتُ في تشييد حلمي، حلمي الخاصّ، ورغم أنه كان بوسعي أن ألمسها، لاحظتُ ذلك، فضّلتُ ألا أفعل، لأني فَقَدْتُ التّسرّع في ماديرا. التّسرّع يؤدّي لضغط كريه بين ما يكونه المرء وما يريد أن يكونه. التّسرّع يأتي من الخوف من ألا نكون شيئًا، وكان هذا هو الخوف المنتشر في ذاك الحيّ الذي خرجتُ منه، لهذا السبب نفسه تسرّعتُ لأحظى بمنصب مدير الموارد البشرية بمؤسّسة ورق حكومية، أو بمؤسّسة حكومية للورق، لا أعرف، الحال أني بسبب التّسرّع خلّفتُ في

طريقي أحمق وميتًا وابن حرام وغير مَرئي، أي هؤلاء كلّهم الذين شكّلوا نواة هويّتي الحقيقية، لأن منصبًا مثل ذلك، منصب الموارد البشرية، لا يمكن بلوغه إلا بهوية مستعارة. اليسارية الديمقراطية شيء مستعار.

هكذا خرجتُ من العيادة في اللحظة المناسبة، لأن لغز حياتي لم يتوقّف عن تركيب ذاته، وكان يجب أن أنصرف، لأُحرّك قطعة أخرى. قطعة بياتريث كانت قريبة من مكانها، لكني لم أستطع تركيبها حتّى أحلّ أشياء أخرى.

في اليوم التالي، قبل صعودي للشقّة، اشتريتُ علبة سجائر. لقد نسيتُ أن أدخّن منذ عدتُ من ماديرا، إذ لم أستطع بالفعل أن أؤذي نفسي. أعددتُ لنفسي فنجان قهوة، وبينما كان جسد السيجارة الأولى يزحف ناحيتي، تأمّلتُ احتياجي إلى الاستحواذ على جسد أكثر صلابة بعض الشيء من هذا الذي جاء ليتحكّم فيّ حتّى تلك اللحظة. حينئذ، في زاوية من المنضدة، رأيتُ كومًا من كُتُب ومجلات عن الحياة الأخرى، رافقتني في رحلتي لماديرا، وأدركتُ أن تلك الكُتُب كانت أجسادًا، لأنها تمتلك بنية تشريحية مشتركة مثل بقية الأجساد، رغم أن هذا التشريح كان مدعومًا بشيء غير مادّيّ، أقصد بوسواس أو بروح، مثل الأجساد كلّها. أعتقد أني أدركتُ فجأة أن الكتابة جسد مُترَع بأعضاء من المقاسات كلّها، ربّما لذلك كانت الكُتُب قديمًا، تُغلّف بالجِلْد. قرّرتُ حينئذ أني أحتاجُ إلى جسد من هذا النوع، وأني مضطرّ، إذنْ، لأشرعَ في الكتابة في الحال، لأضع كِليتَيّ وكبدي وقلبي خارجي، فوق ورقة مغلّفة بالضرورة، بجانب أوراق أخرى، فيؤدّي ذلك لظهور تشريح جسدي أو تشريح مرضي، لا أعرف، يمكنني أن أتعرّف فيه على ذاتي. كنتُ في حاجة إلى هذا التشريح قبل أن أواصلَ تركيب أشياء أخرى، وقرّرتُ أن أضعها على ورق الدولة، ليكون لها جسدًا لحيمًا. وفجأة انتابتني نوبة تسرّع، لكنه ليس تسرّعًا سيّئًا هذه المرّة، يقول الأطبّاء اليسار ديمقراطيون إن درجة ما من

الضغط ليست ضارّة، لأنها تمنحك التّوتّر اللازم، وبهذه الطريقة تنافس في السوق بمهارة.

متحفّزًا بهذه الجرعة العلاجية من الضغط، خرجتُ إلى الشارع، وتوجّهتُ إلى مؤسّسة الورق الحكومية، إذ لم أعدْ إليها منذ تركتُها، رغم أنه بدا لي أني قضيتُ حياتي بخارجها. استغرق مدير شؤون المُوظّفين وقتًا حتّى تذكّرني بسبب شاربي، ولأن صلعتي كانت أقلّ ممّا كانتْ حين كنتُ أعمل معهم، وفكّر أنها شَعْر مستعار، هكذا دعوتُهُ ليشدّ شَعْري، ليرى أنه شَعْر طبيعي. المُلفتُ أنه لم يشكّ في الشارب، هذه هي سُنّة الحياة. استقبلَني في الحال، لأنه في الواقع لم يكن مدير شؤون المُوظّفين، بل مُجرّد شخص مهزوم يتسكّع في ممرّات المؤسّسة مثل أشباح بعض الموتى وهم يتجوّلون في غرف الأماكن التي كانوا يعيشون فيها: ثمّة موتى يواجهون صعوبة التّخلّي عن سطحهم المادّيّ، ويعيشون لمدّة قرون ملتصقين بما كانوا يحبّون أن يكونوه، أو ما كانوه بالفعل، هذا ما يقوله اليساردیمقراطيون عن العمّال، وكذلك مجلات الحياة الأخرى عن الموتى. بات مكتبه الآن مشغولاً برجل مفترس في الثلاثين، يُسرّح العمّال من دون تمهّل. قال لي إنهم عرضوا عليه تعويضًا خرائيًا، لكنْ، أين أذهب في سنّي هذه، فالسوق فائض بالشّبّان المستعدّين على وطء رقاب آبائهم، من أجل عقد لستّة أشهر. وشرع في البكاء هناك في منتصف الممرّ، فسحبتُهُ إلى الحمّام الأقرب، وتبوّلنا معًا بوجه يتأمّل الحائط، رغم أنه بدا مترقّبًا مَنْ يطلق عليه الرصاص، لأنه كان ينظر كل لحظة إلى الخلف، كأن كتيبة الإعدام في ظهره، في انتظار أمر التصويب. حين هدأ قليلاً، رافقتُهُ إلى مكان هادئ، حيث ماكينات القهوة، وسألتُهُ كيف يشرب قهوته. يشربها باللبن وبالسّكّر. قلتُ له إنه هكذا لن يصل

إلى شيء، فالقهوة اليساريديمقراطية قهوة سادة، وبدون سُكّر، بها سُكّرين على أيِّ حال، لكنه كان رجلاً ملتصقًا بوجوده السابق، لذلك أخذوا منه منصبه، فالأشخاص الذين يشربون قهوة باللبن وبالسّكّر ليسوا أكفاء كما ينبغي. وبينما كان يشرب مشروبه الغريب، سألني كيف حالي بالخارج، ورغم أنه سؤال إجرائي، لأني استعدتُ شبابي جدًا بفضل الشَّعْر الجديد والشارب، لكنه لم يستطعْ تجنُّب طرحه، إذ من الصعب عليه تصديق أن ثمّة نجاة بالخارج، وبالفعل كان يتحدّث عن الخارج بالنبرة نفسها لمَنْ يشير إلى الجحيم. قلتُ له كل شيء على ما يرام، لدي عدّة أشياء بين يَدَيّ، وبالتحديد عدتُ من ماديرا في التّوّ، وهناك كنتُ أُجري تحليلاً للموارد البشرية بالجزيرة، فربّما نقيم هناك شركة ورق بدَعْم حكومي، فهذه التجارة تروق لي، أي تجارة الورق، بالإضافة لأني لا أعرف شيئًا آخر. صدَّقَ في الحال، ليس لأن الأمر مُقنع، بل لأنه كان يحتاج إلى تصديقه، لقد وقع في هذا الاحتياج إلى تصديق أيّ شيء يُبعده عن استيائه المهني. وأضفتُ بأننا سنحتاج إلى رئيس لشؤون المُوظّفين، لكني لا أعرف إن كنتَ تتحمّس للانتقال الجغرافي. كان يصدِّق كل شيء، المسكين، الانتقال الجغرافي والمهني، بالإضافة لتصديقه بالحاجة المستمرّة إلى إصلاح سوق العمل، المكتظّ ببؤساءٍ مثلكَ، قلتُ له، والذين يعتقدون أن الكرسي لآخر الحياة، على أيّ حال، سأحاول ألا تسافر حتّى ماديرا، الآن لديّ علاقات هامّة، ناس تأكل من يدي، وأُغرقهم بالمعروف. سأُكلّمهم عنكَ، ربّما يستطيعون إعادتكَ إلى وظيفتكَ. كان ممتنًا جدًا، كثيراً، ولم يتركْني أنصرف، لأني، فجأة، مثّلتُ له أفقًا، أو مرشدًا لديه القدرة على قيادته من دون مطبّات في عالم الظلمات الخارجية. خلال تلك الأيّام، كما هو واضح، لم يستطع التفكير في شيء إلا الموت، كان يُفضِّل أن يموت على أن يبقى عاطلاً، أو

يبيع مناديل ورق في إشارات المرور، قال ذلك. قلتُ له إنه يبالغ قليلاً في الأمور، فبعد أن غدوتُ ميتًا تمامًا، لم أجد الأمر بهذا السوء، رغم أني أُسكِتُ الميت حتّى لا يتحمّس، فأجد نفسي على الضّفّة الأخرى، لقد قاومتُهُ كثيرًا في الحياة، وكنتُ متعجّلًا لأصنع جسدًا من الكلمات على ورق الدولة، من أجل ذلك، ذهبتُ إلى هناك، هكذا أمرتُهُ أن يدخل في أيّ مكتب، ويُحضر لي حزمة كبيرة من الورق؛ قلتُ له إني أريد أن أتحقّق من خامتها، من مادّتها الكيميائية التي تستخدمها الدولة في النهاية. وعند الوداع، وحتّى يتركَني في سلام، أعطيتُهُ هاتف شقّتي، وأخبرتُهُ أنها مكتب استشاري، يمكن أن يهاتفني عليه وقتما يحبّ.

عدتُ إلى الشّقّة بالورق تحت إبطي، كأنه طفل مصاب بالأنيميا التقطتُهُ في التّوّ من الشارع، ويحتاج إلى عنايتي كلّها. ثمّ سحبتُ قلمًا جافًا، وبدأت أسرد لنفسي بداية من يوم الأحد هذا الذي فيه حبستُ نفسي في حمّام بيتي، وتعرّضتُ لنوبة استياء، لم يُحرّرني منها إلا اكتشاف الشارب في خزِينة الخزانة. وكلّما كانت الكلمات تصطفّ، مُشكِّلةً جسدًا، لم أكن حتّى أحلم بوجوده، كان وجودي يكتسب نظامًا ثابتًا ووظيفيًا. كل مقطع كان في مكانه، مرتّبًا مثل أعضاء الجسد الداخلية، وتلك المقاطع كلّها كانت تتواصل فيما بينها بالطريقة نفسها تواصل الكبد مع المعدة، أو الرئتَين مع البنكرياس. في النهاية، كانت الكتابة جسدًا معقّدًا، رغم أنها عمود فِقريّ، يلتفّ حول وسواس أو اثنَين، مثل الحياة نفسها، وأنا كنتُ أشاهد نُمُوّها بدهشة، وبينما كانت تنمو تصنع تشريحًا، بحيث كان شيئًا يؤدّي بي إلى شيء آخر. على سبيل المثال، أعرف الآن أن حريق ماديرا يرتبط بشكل غامض بالحريق الذي أودى بحياة أَبَوَيّ الإسبانيَّين؛ لذلك تحتّم عليّ أن أزور ماديرا، ليس محض صدفة، فالصدفة لا وجود لها، إنما لأن

ظهورهما من جديد لا يتم إلا من خلال رماد مكان قد حُرِق من قبل. أبَوَاي الإسبانيان ماتا في حريق، رغم أنهما لم يموتا إثر اللهب، بل إثر الدخان، أقصد أنهما ماتا أوّلًا من الدخان، ثمّ حرقتْهما النار، لكنهما لم يدركا أن اللهب بلغ جسدَيْهما.

في تلك الظهيرة، حين وجدتُ ثغرة لأتنفّس من عملي بالموارد البشرية بشركة الورق الحكومية، رحتُ لأراهما، لأرى كيف يتجرّعان حياتَيْهما، ليس لأُشجّعهما على التّوقّف عن فعل ذلك، فكلّنا نتجرّعها، أو هذا في خططنا، إنما لأُشعرَهما أنهما مَرئيان، لذلك قلتُ رحتُ لأراهما، إذ لم أكن أفعل شيئًا آخر إلا النظر إليهما، فلم نكن نتحدّث قطّ، والآن لا أنا ولا هما نستطيع التّحدّث، أعتقد أني وصلتُ إلى خلاصة أن أبي لم يكن لديه تحت شاربه شفتان، لذلك كان يداري هذه المنطقة من الوجه بستارة من الشَّعْر. وذات يوم، حاولتُ أن أحكي لهما عن عملي في الموارد البشرية، لأرى إن كانا يشعران بالفخر بي، لكنهما لم يفهماه، ولا أنا كنتُ أفهمه في الحقيقة، هكذا تراجعتُ في الحال، ثمّ راحت مرّات رؤيتي لهما تتضاءل، لأني في يوم رؤيتهما، كنتُ أكتئب، ولا أصيب، هذا ما أقوله لنفسي، في توزيع الموارد البشرية بالمؤسّسة. لتوزيعها جيّدًا، كنتُ أحتاج إلى أن أنسى من أين خرجتُ، لكني لم أكن أستطيع نسيان ذلك، إن دخلتُ مرّة أو مرّتَيْن في الأسبوع ذاك الحيّ ومدخل البناية الذي راهنتُ فيه على حياتي على باكا وإميريتا، أقصد أن وجود أبَوَيّ كان يتعارض مع الجسد الاجتماعي الذي حاولتْ تشييده في مؤسّسة الورق الحكومية. لذلك أيضًا أقول إنه ليس جسدًا حقيقيًا، إنما جسدًا مستعارًا كنتُ أدير به نفسي بشكل سيّئ، كما رأينا. في النهاية كانا عبئًا، لذلك كنتُ أتحرّر مع الوقت من زيارتهما، هذا ما أعتقده. في تلك الظهيرة، كان الطقس باردًا، وطلبا منّي أن أُشعل

المجمرة تحت المنضدة المتحرّكة، ليُدفئا أقدامهما، أنا لا زلتُ أشعر بدفئها، بدفء المجمرة، في قَدَمَيّ رغم مرور سنوات طويلة، لم أدسّ فيها ساقيّ تحت مفرش المنضدة. كنتُ اشتريتُ لهما مدفأة كهربية، لكنهما كانا يُفضّلان جحيم الكربون، إذ لم يعرفا شيئًا آخر، هكذا شرعتُ في ذلك وأنا أعرف الخطر الذي يعنيه، لكني قدّرتُ أيضًا، هذه حقيقة، مزايا الموت الناعم، لأن المجمرة حين تلتهب تُطلق دخانًا غير مَرئي، يُسمّم دمكَ عبر الرئَتَيْن، فتنام قبل أن تموت، من هنا يُعرَف بالموت الناعم، ميتة يتمنّاها المرء. لا يحدث دومًا، لكنه يحدث أحيانًا، الحال أني أشعلتُ المجمرة، ثمّ انصرفتُ إلى المؤسّسة، لأواصل إدارة الموارد. كنتُ أطمح لأصل إلى منصب مدير الموارد البشرية لو أدرتُهم جيّدًا. وبالفعل كنتُ انتهيتُ من إعداد مشروع طموح جدًا، كان يتعاون فيه تحت قيادتي مجموعة من علماء الاجتماع اليساريديمقراطيّيْن، وكان يكمن في إعداد تصميم لنموذج المُوظّف الذي تحتاجه المؤسّسة خلال العشرين سنة المقبلة، إن كانت تريد البقاء والمنافسة، أو العكس. كان مثل لَعِبِ دور الإله بطريقة ما، لأن هذا التقرير الرئيس من أجل مستقبلنا، كان يفعل في الواقع ما يفعله الإله يوم القيامة: تضع على يمينكَ العادلين، وعلى يسارك المذنبين. وأنا كنتُ أعدّ بدقّة هذا التصميم، وكنتُ أعرف عشرين عامًا مسبقًا من هؤلاء الذين يتمتّعون بصلاحية البقاء في الجنّة اليساريديمقراطية التي نُصمّمها في مؤسّسة الورق الحكومية، هكذا وأنا في الشارع أحيانًا أو في المطعم كنتُ أتأمّل الناس، وكنتُ أعرف في الحال من إيماءاتهم مَن المَدعوّ فيهم إلى الجلوس على يمين الرّبّ، أو على يساره، في هذه الجنّة. أعتقد أني ارتكبتُ خطأ، لأن أحد التصميمات طلع لي عادلًا، ولم يركب بالضبط مع التصميم الذي أعددتُهُ، أو أني تركتُ نفسي بالخارج، من دون أن أنتبه لذلك، ربّما لذلك

اكتشفوا أني أحمق، الحقيقة أني لا أملك إلقاء الذنب على أحد، أنا مَنْ طردتُ نفسي من الجنّة، مثل إبليس، رغم أني لم أفعلْها تكبّرًا، إنما لأن تلك الجنّة كانت تُثير استيائي. وخلال أيّام المشروع المتوحّش تلك، هكذا كنّا نُسمّيه بحميمية في المؤسّسة، مات أبَواي. كان موتًا مُباغِتًا، أقول أنا، فما من أحد يعرف أن كربون المجمرة يمكن أن يُصدِرَ فجأة غازات الموت الناعم، لكني ارتكبتُ خطأ حين داريتُ أني مَنْ أشعل المجمرة الأخيرة، وفي هذا الإنكار، أدخلتُ لحياتي ذنبًا، شغّل المنطقة المُدمّرة والمُتهلّلة بكلّ ما فيها من ترقيع، انظرْ إلى فرانكشتاين، إلى لوزبل الشيطان، وإلى بقية البنايات الخيالية التي تتمرّد على مخترعيها. في موقف طبيعي، كان من الممكن أن يركب بتصميمي على الكمال في المشروع المتوحّش، وربّما كنتُ سأصبح الآن مديرًا لشؤون المُوظّفين بشركة الورق الحكومية. على أيّ حال، إنها تنهيدة راحة تلك القدرة على وضع هذا الحدث داخل جسد سردي، لأني رغم هيئتي المبهدلة، مثل هيئة بنكرياس، أو كبد خارج مكانه، لا يعرف الواحد أنه يؤدّي وظيفة محدّدة داخل هذا الجسد: لا يمكن أن نعيش من دون عصارات البنكرياس التي يضخّها للمعدة. موت أبَوَيّ، من هذا المنظور، داخل مجموعة من الأعضاء المتشابكة فيما بينها، كان ضروريًا، أوّلًا حتّى أنفصل عن مدخل البناية هذا، وبعدها أستطيع العودة، وإنقاذ الأحمق والميت وابن الحرام وغير المَرئي. من ناحية أخرى، كانت ميتة قديمة، الميتة الناعمة، الآن يحدث الموت بطُرُق أخرى ولم يكن عدلًا أن يموت أبَواي مبكّرًا، أيًا كانت حياتهما، بميتة مُترّعة بالمغاناة والقسطرات. أسوأ ما في الأمر كان الحريق، يبدو أن أحدهما حين أراح جسده ليموت ميتة ناعمة، ألقى بمفرش المنضدة المتحرّكة صوب الجمرات، فاشتعل المفرش، لكنْ، كما أقول، فقد أظهر التشريح أنهما قد ماتا قبل أن يحترقا.

لم يحترقا في حياتَيْهما، إذنْ، فَمَن احترق في حياته هو الابن، فأنا مَنْ متُّ محروقًا في هذا الحريق، لهذا راقتْ لي ماديرا، لأنها كانت المُنتَج الطبيعي لحريق مثل الحريق الذي تحدّثتُ منه، في النهاية.

لم أستطع التّوقّف عن الكتابة، نسيتُ كل شيء، الفتاة الصينية ولويس رائحة الخراء. كنتُ أصل إلى البيت متأخّرًا، بعد أن ينام الطفل، فلا أحكي له حكايات أوليجاريو، لأني كنتُ أشعر أني لو حكيتُها، ما استطعتُ كتابتها، وما يهمّني الآن هو الكتابة، إذ كلّما امتلأ ورق الدولة بالكلمات تحقّق الشعور بزوال جسده. أقصد أني بسرد وجودي بهذه الطريقة، كان جسدي يتحوّل إلى سائل يُحلِّق فوق الورق، مثل دخان السجائر صوب الرئتَيْن، وهذا الورق كان يتحوّل فورًا لجسد من الكتابة، فيما أختفي أنا في ذاك الجسد، في جسد الكلمات، لكنْ، في هذا الشكل من الاختفاء، كنتُ أدلف إلى شيء واقعي، كنتُ ألمس بأطراف أصابعي الواقع، لأن الكتابة في النهاية تجربة واقعية. وبالتالي، كنتُ أصحو مبكّرًا جدًا، قبل لاورا، لألصق شارب بياتريث الساحرة، وأخرج إلى الشارع قبل طلوع الصبح. ولأن جسدي قد تضاءل، كنتُ أطفو في الشوارع المعتمة أكثر منّي أسير حتّى أصل إلى الشّقّة، حيث ينتظرني جسدي الحقيقي فوق المنضدة، لأواصل بناءَه. وكنتُ أبنيه بمثابرة فلاح، يستيقظ عند الفجر، ليُؤكِّل ماشيته، ليس بوسعه إلا أن يفعل ذلك، لأن جسد الماشية هو جسده ذاته، الشيء نفسه بالنسبة للنّجّار، تمثّل قطعة الأثاث في الواقع مجازًا لوجوده. أدركتُ حينئذ، بالكتابة، أن الحياة غير ممكنة بلا جسد، لكنْ، من أجل الوصول إليه، عليكَ أن تُنكره وتضعه خارجكَ، على بقرة أو على أثاث، أو حتّى في مجموعة أوراق الدولة التي تزيّنها، كتزيّين سجّادة، بحروف تُشكِّل عَضَلَ الحياة.

المشكلة أني كنتُ شديد التركيز في هذا النشاط، ولم أنتبه إلى اختفائي، ولابد أن لاورا لاحظتْ أني شخص آخر، والطفل كذلك على ما أعتقد. الحال أني منذ أيّام، كنتُ أعمل هنا، في الشّقّة، محاطًا بكُتُب عن العالم الآخر، كُتُب كثيرة، إذ لا أشتري شيئًا آخر، عندما رنّ جرس الباب، فكّرتُ أنه لويس الذي يأتي بحثًا عن نصيبه في مُنبِّت الشَّعْر، وقد أعطيتُهُ قبلها بقليل خمس عبوات، ليتركني في حالي، لكنها كانت لاورا. كانت قد استقصتْ وعرفتْ أني لم أعد أعمل في مؤسّسة الدولة، وبالتالي تحرّتْ مسألة الشّقّة، وجاءتْ بِنِيّة أن تفاجِئني. أوّل ما رأته حين فتحت الباب كان شاربي، صُعِقتْ للحظات لوجود الشَّعْر المستعار، لم تعرف ماذا تفعل، أعتقد أنها كانت على وشك أن تنصرف معتقدة بأن الأمر التبس عليها، والحقيقة أني قبلها بفترة قليلة كنتُ مذعورًا من العنف الذي ينمو به شَعْري في الأماكن الصحراوية بجمجمتي. ثمّ دخلتْ وهي تُبعدني من دون عنف، ورَنَتْ إلى الأوراق رغم أنها لم تنتبه، الحمد لله، إلى جسدي النائم هناك، وبالتالي لم تحاول تمزيقها، ثمّ ألقتْ نظرة، وعادت في الحال لتتأمّل الشارب بدهشة. سألتْ، ما هذا؟ قلتُ شارب، مثل شارب بابا (خرجتْ منّي بابا من دون أن أعرف لماذا، بدلًا من أبي)، أليس من حقّي أن يكون لي شارب مثله؟ حينئذ تحوّلتْ دهشتُها فجأة إلى غضب، وهاجمتْ وجهي بأظافرها الطويلة بِنِيّة خَلْعه، لكني منذ فَقَدْتُ جسدي، أُصبحتْ لياقتي أعلى، فتجنّبتُ أظافرها التي كانت مثل عمود دخان ضربه الريح. حينئذ تأمّلتْ رأسي، وكان مَكسوًا تمامًا بالشَّعْر بفضل شامبو الشارب، وأعتقد أنها فكّرتْ لوهلة أنه شَعْر مستعار. أتعتقدين أنه مستعار؟ سألتُها، لا، انظري، وبينما كنتُ أدعوها إلى النظر، شدَّتْهُ مرّتين أو ثلاث حتّى اقتنعتْ، على ما أعتقد. على أيّ حال، ظلّتْ تتأمّل بالتتابع شَعْر الرأس وشَعْر الشارب كأنها تخمّن أن بين الاثنَيْن علاقة غامضة. وكانت

ثمّة علاقة، لكنها لم تعرفها، كان ذلك مستحيلاً. اقتربتْ من المنضدة من جديد، واحتقرتْ جسد كتابتي ذاتها، وراحتْ تتأمّل كُتُب العالم الآخر، ربّما لأنها كانت أجسادًا كاملة، تامّة، ويمكنها أن تفهمَها أفضل. في تلك اللحظة، بينما كانت تقرأ بإيماءة رعب من عناوين تلك الأجساد، ربّما اقتنعتْ أني غدوتُ شخصًا آخر بشكل قاطع، رغم ذلك حدّثتني كأني الشخص نفسه. سألت، ماذا يحدث؟ وأنا رأيتُها كأنها تشاور لي من بُعْد آخر – الأبعاد تتواصل أحيانًا- لأنها ظلّتْ لبرهة تتحدّث عنّا وعن دابيد، وهي تقمع دموعها، كانت كأنها تُحرّك ذراعَيْها من مسافة بعيدة، وتدعوني إلى العودة، لكني كنتُ بالقَطْع في مكان آخر، لأن إشاراتها كانت تصلني واهنة جدًا، بلا معنى تقريبًا، بحيث لم أستجب لها، وكنتُ أقتصر على التّجوّل من جانب لآخر وأنا أتحسّس شاربي، وأتساءل ما المدّة التي يستمرّ فيها هذا التّردّد الذي يُلوّث شعوري بالواقع الحقيقي. وفي لحظة، حاولتْ حتّى أن نتعانقَ، لكنْ، كيف أعانق أنا كائنًا في بُعْد آخر؟ لم أستطع، وبالتالي رفضتُها، وأعتقد أن هذا ما ساعد في تحويل حزنها الداخلي إلى غضب. هكذا انفجر منها الجانب العملي، قالت فلأفعل بحياتي ما يحلو لي، على أنها لن تسمح بأن أنسى مسؤوليّاتي. وفي الحال، انتبهتُ إلى أنها تتحدّث عن التعويض الذي تلقّيتُهُ من مؤسّسة الورق الحكومية. قلتُ لها إني لا أريد هذا التعويض، وبدل البطالة يكفيني، بالإضافة لذلك لديّ بعض الأعمال بين يَدَيّ، وأضفتُ أني اخترعتُ مُنبّتًا للشّعْر، وربّما أُنشئ في ماديرا شركة ورق، بدَعْم من الحكومة. استمرّت في مكانها لبرهة محاولةً أن تستعيدني من البُعْد الذي وجدتُ نفسي فيه، أعتقد أنها فكّرتْ أن لو أعادتْني، حتّى ولو لثانية واحدة، ستشبكني في منطق كلماتها العاطفي، ثمّ بمعاملة مناسبة، لن أستطيع الهرب من ذاك البُعْد.

ماذا أقول لـ دابيد؟ سألتني وأنا لاحظتُ أن هذه آخر وسائلها، فضحكتُ، كلّنا نحتفظ بالطلقة الأخيرة لأنفسنا، وكانت هذه طلقتها الأخيرة، لكني أيضًا شعرتُ ببعض الأسى في الحقيقة. خلال فترة فكّرتُ أن دابيد وأنا الشيء نفسه، لكن الطفل الذي كنتُ أبحث عنه كان، في الحقيقة، بداخلي، الآن كنتُ أعرف ذلك: حياتكَ كلّها تتوقّف على الطفل المحروم أو الطفل الحزين الذي يسكن بداخلكَ، لكنْ، أيضًا على السرعة التي تسعى بها، لتُحقّق رغباتكَ. كنتُ سمعتُ بكاء طفلي بداخلي، منذ سنوات، كان محبوسًا في غرفة مظلمة بداخل صدري، وكان أعمى ومصابًا بالأنيميا، لم أكن أعرف مَنْ هو، وكنتُ مضطرًا لتكريس حياتي له، لهذا الطفل، كان يحتاج إليّ أكثر من دابيد، هكذا قلتُ إن دابيد سيعثر على أبيه الحقيقي، هذه إحدى مهامّ الحياة، أن نبحث عن أب، ونعثر عليه. بعد ما فجّرتْ هذه الطلقة التي استخدمتْها ضدّي، انصرفتْ، وأنا شعرتُ بأننا قد قطعْنا الشَّعْرة الأخيرة بيننا، والتي من خلالها كنتُ متّصلاً بعالم الأحياء.

بعد أن انصرفتْ بقليل، خرجتُ إلى الشارع، وتوجّهتُ إلى البنك، لأُحوّل إليها التعويض قبل أن يتلاشى وجودي من هذا العالم تمامًا. لم أواجه أيّ مشكلة، وكان في ذلك ثمّة تحرّر، إذ أتجرّد من هذا العبء الذي يربطني بالوجود في جزئه المادّيّ، ولأحتفل بالحدث، تجوّلتُ قليلاً في الشوارع، كأني أتجرّد من الشوارع نفسها أيضًا، رغم أني في الواقع قد أدخلتُها إلى جسد الكتابة، وكانت هذه إحدى الطُّرُق، لتبقى معي إلى الأبد. اقتربتُ من شارع أبَوَيّ، وتأمّلتُ من الرصيف المواجه مدخل البيت الرطب الذي راهنتُ فيه على حياتي، بحثتُ أيضًا عن الفتحة التي من خلالها كان شارعي يتّصل بـ Fifth Avenue، لكني لم أعثر عليها، لأنهم شيدوا مبانٍ كثيرة منذ ذلك الحين. كان بيت أبَوَيّ يحافظ على نفسه

بمعجزة بين مجموعة بنايات جديدة، وفي واجهته، كان أثر الحريق لا يزال مُلفِتًا، ثمّ توجّهتُ إلى المدرسة التي خطر لي بها إمكانية صناعة شارب مثل شارب أبي حتّى أكونَه في لحظاتي الصعبة في الحياة المدرسية، وكانت لحظات كثيرة، مُفرِطة. اقتربتُ أيضًا من المحلات الكبيرة التي تهتُ فيها، وتبنّاني أب ليس أبي. حينئذ، رغم أني لا أعرف في أيّ لحظة، اكتملتِ العملية، أقصد أني توقّفتُ تمامًا عن أن أكون خيسوس، وتحوّلتُ إلى أوليجاريو، بطل الرواية، هكذا كانت الكتابة تتطوّر، فرفعتُ جسد البطل، ووضعتُهُ على ورق الدولة، واكتسب هذا البطل جسدًا كبيرًا، وكان في النهاية واقعيًا جدًا، لدرجة أن بوسعي أن أُحرّكه في أيّ مكان، من دون أن أخرج من الشّقّة.

الكتابة كانت تُضعفني جدًا، ربّما لفقداني للورق، كلّما تقدّمتُ. حين بلغ الورق المكتوب عددًا معقولًا جدًا، بدأتُ في تشبيك هذا النشاط الواقعي مع أنشطة أخرى مُتخيَّلة، فائدتها أن تمنحَني الراحة. هكذا، على سبيل المثال، نزلتُ في منتصف الظهيرة إلى غرفة الجنس المثير، وناديتُ على الصينية من الغرفة المعتادة، ولعبتُ معها قليلًا. كانت الصينية تُدرك انبهاري بالآليّين، وكان عليها أن تضبط بعض الإشارات. دخلنا، إذنْ، في روتين جنسي صحّيّ، وفي نهاية المطاف، لا تتجاوز خيالات الناس الجنسية الخمس أو الستّ صور طوال حياتهم، وأنا كنتُ مكتفيًا بهذه الصورة، لم أتمتّع بأخرى، وفي هذا العمر أشعر بكسل لأُغيّر الصورة أو حتّى الغرفة. وهي، بعد أن أقذف في منديل مطبخ الدولة، كانت تُومئ لي أحيانًا بإيماءات، أترجمها كتوسّل بأن أستخدم الهاتف والاسم السّرّيّ الذي أعطوه لي قبل سفري إلى ماديرا، في حضور لويس، لنتمكّن من اللقاء خارج الفاترينة. لكني كنتُ أتصنّع بأني لم أفهم، لأني كنتُ أرى في إيماءتها طلبًا للنجدة، وكنتُ أراه غير ملائم، بل وأراه، حقيقةً، تصرّفًا منحرفًا من آلة. كانت تعطيني إيحاءً بأنها تريد الهروب من هذا الصندوق، ولسبب ما كانت تُعلّق آمالها عليّ. ومن غرفة الجنس المثير، ورغم أنه نشاط مُتخيَّل، كنتُ أخرج في النهاية ضعيفًا جدًا، كما في جلسات الكتابة، لكنْ، في هذه الحالة لفقدان المني، وأيضًا للصراع الذي أخوضه بطلبات نجدة

الفتاة الصينية، أعتقد أنها تُذكّرني، أفهم ذلك الآن، بعروسة متحرّكة، كنتُ أشاهدها مع أبي بعد الخروج من قدّاس الأحد. المشهد كان يمثّل غرفة معيشة بالطبقة الوسطى، منضدة متحرّكة تحت شراشيبها مجمرة، جحيم صغير، وإلى المنضدة، يجلس جَدّ، له هيئة رجل طيّب، ويلفّ طوال الوقت السيجارة نفسها، ومنفصل كُلّيّةً عن المشهد الوحشي الذي حدث في التّوّ في إحدى زوايا الغرفة نفسها، حيث آلِيٌّ بوجه مجنون، وبشَعْر من الإسفنج، كان يضرب بمكنسة خادمةً بعينَيْن مسحوبتَيْن، تنظر إلى المشاهد كأنها تتوسّل إليه. في ليالٍ كثيرة، كنتُ أتخيّل إمكانية إدخال يدي في الصندوق، وإنقاذ الخادمة الصينية، لأحملها إلى سريري، وأُجنّبها ضربات هذه المجنونة. لم أفعل ذلك، بالطبع، لأني عَدَدْتُ نفسي كبيرًا حتّى أمتلك عرائس، بالإضافة لذلك، الأولاد لا يلعبون بعرائس، لكنْ، أيضًا لأني كنتُ أرى دائمًا آليّْ يد أبي تضحك كثيرًا في هذا المشهد. وحتّى يفهّمني، كان يُريني بإصرار بقايا مزهرية من البورسيلين، وربّما بورسيلين صيني، مبعثرة في ركن ما من غرفة المعيشة نفسها، وكان يبدو أن الخادمة كسرتْها من دون قصد، بينما كانت تنفض الغبار، فتحكم بذلك على نفسها بضربات، تُنزلها المجنونة على رأسها، ضربات مسلسلة. وبين كل سلسلة ضربات وأخرى، كانت تفتح فمها، لتطلق صرخة صامتة، لا يزال صمتها يعبرني إلى الآن، وربّما الآن أكثر من ذاك الزمن، لأني الآن، وبفضل كُتُب العالم الآخر، أعرف أن لديّ (كارما) أو شيئًا مشابهًا، أقصد مجموعة من الذنوب تسحب وجودكَ إلى وجود آخر حتّى تتحرّر منها، وتدخل في أرض مختلفة. فكّرتُ، إذنْ، أني ربّما أكون مُدانًا أيضًا بعدم الخروج من غرفة الجنس المثيرة (وكان مستحيلاً أن أعرف إن كانت منطقتي أكثر أو أقلّ تلوّثًا من منطقة الصينية) حتّى أُداوي هذا الجزء الناقص في طفولتي. الآن لا

أتّكئ على وجود أبي، بطريقة ما كان أبي هو أنا ذاتي، بحيث كان ممكنًا أن أُدخل يدي في الصندوق، وأُخرج وجوده من هناك. وفيما كانت هذه الفكرة تستحيل وَرَمًا متحرّكًا بداخل رأسي، كان وجه الفتاة الصينية في غرفة الجنس ووجه امرأة صندوق الآليّيْن يلتبسان عليّ، ربّما كانا الشخص نفسه، ربّما السّيّدة التي كانت آلة في طفولتي قد تعرّضت لعملية اغتراب، أدّت إلى تحوُّلها إلى امرأة من لحم وعظم، ثمّة سوابق، بينوكيو كان من الخشب، واستحال طفلاً من لحم.

مع ذلك، كان النشاط غير الواقعي الأكثر مجازفة هو التجسّس على لاورا ودابيد، رغم أني فعلتُ ذلك مرّة واحدة فقط، أعتقد أني كنتُ أتحقّق من أنهما، بكونهما غير واقعيَّيْن، لم يفقدا قدرة ما على أن يؤذياني، إذ غير الواقعي آذاني أكثر من الواقعي. رأيتُهما يخرجان من مدخل البيت في ساعة الصباح الأولى، يدها في يده، ومتوجّهان إلى مدرسة الطفل القريبة من البيت، وكانت لاورا خيالية أكثر من دابيد، خاصّة حين أفكّر أنها طبيبة شرعية، فلو فكّرتَ أن لاورا طبيبة شرعية وأني كنتُ أشرف على الموارد البشرية بمؤسّسة ورق، ستنتبه إلى مدى خيالية وجودي، ليس غريبًا، إذنْ، أن أحتاج الآن إلى قليل من الواقع، فمن دون واقع تستحيل الحياة، كما تستحيل من دون جسد، فأغلب الناس يتواصلون فيما بينهم بأجسادهم، كأنهم استثمار، رغم أنهم يبدون لي إنفاقًا. بالمناسبة، إحدى أهمّ المناقشات النظرية بين مديري الموارد البشرية، على الأقلّ قبل أن يطردوني، كان هل يجب أن نحسب المُوظّفين كاستثمار أم كإنفاق. أكثرنا تقدّمًا، اليساردیمقراطيون، كانوا يعتقدون أن المُوظّف استثمار، كانوا يستثمرون في الناس، يشترونهم، يروحون إلى سوق الأجساد، ويُجرون لهم تحليل بول، واختبارات ذكاء، ثمّ يقولون هذا نعم، هذا لا؛ وأنا مَنْ كنتُ

مُكلّفًا بوَضْع المواصفات التي يجب توافرها في الأجساد التي تشتريها مؤسّستي، وكان لدينا جهاز رقابة على الجودة، يا إلهي، لا يمكن أن أعيش وجودًا أكثر خيالية من ذلك، خاصّة لو تذكّرنا الأحياء التي جئنا منها، وكأن ذلك قليلاً، رحتُ لأتزوّج من طبيبة شرعية، كانت تملأ بيتي بتقارير تشريح الجثث، قرأتُ ألفَينْ، ألفَي تقرير، التقارير كلّها التي كانت تقع في يدي، كأني كنتُ أبحث عن التقرير الخاصّ بوفاتي، لأعرف التقييم الذي حصلتُ عليه حتّى بعد موتي. الحياة كلّها كانت معلّقة بتقييم الآخرين، بنظرتهم، ومن خلاله، كنتُ أشيد هويتي التي كانت مُجرّد استعارة، استعارة استطعتُ بها أن أخرج من حيّ، وأن أنتصر، والآن يبدو أني لم أخرج، أو أني تركتُ فيه الطفل الذي كان يبكي لي في الليل، هذا الطفل الأحمق وابن الحرام والميت وغير المَرئي.

لو كنتُ أفكّر جيّدًا، ربّما حمل لويس رائحة الخراء وجودًا أكثر واقعية من وجودي، لأن لويس كان لديه مهارات يساريمقراطية منذ كنّا صغارًا، كان رجل عصابة حقيقيًا، بالمعاني كلّها التي تحملها الكلمة، فلم يحتج إلى أن يشيد هوية بديلة، وخرج من الحيّ بالهوية نفسها التي يعيش بها الآن. تراه يتكئ على مَشْرَب حانة الجنس المثير، ولو دقّقتَ النظر قليلاً، سترى رائحة الخراء القديمة نفسها، يمكن أن نقول إنه كان رجلاً متّسقًا مع ذاته، لذلك يُصدِّر هذا الانطباع بأنه مصنوع من قطعة واحدة.

بالمناسبة، كنتُ أكتب هذه السطور عندما طُرِق الباب، وكان بابا روما، كما يقولون، أقصد كان لويس نفسه، وكانت صلعته قد اختفتْ، وصَغر، على ما أظنّ، عشر سنوات. قلتُ له: يبدو أنكَ صغرتَ عشر سنوات. جاء خائفًا قليلاً من أن أستقبلَه بطريقة فظّة، لكني كنتُ أكتب منذ ساعات،

ويروق لي أن أرتاح، بالتالي دعوتُهُ ليجلس؛ هو أيضًا لاحظ أكوام الكرّاسات والكُتُب عن العالم الآخر، وبنظرة ارتياب. جاء بِنِيَّة أن يساومني، كان مستاءً من أني أُعطيه جرعة كأنه مدمن لعلاج نصف شَعْره، وكان يريد عقد صفقة نهائية. قعد على الكرسي الكبير، وأنا شغلتُ كرسيًا كنتُ أكتب عليه، حتّى أكون قريبًا من جسدي. قلتُ وأنا أضرب الكرّاسات بإصبع إني أعدّ تقريرًا عن الإمكانيات في ماديرا، أعتقد أننا سنقيم مؤسّسة ورق هناك، الورق أكثر ما يروق لي، وتلقّيتُ عروضًا لأقوم بأشياء أخرى، لكني لستُ شغوفًا بها مثل شغفي بالورق. ربمّا أسافر إلى بلجيكا، لأتفاوض على دَعْم، لا أعرف، أو للدنمارك، لأبحث عن شريك. كان بوسعي أن أقول ما يحلو لي، وكان هو سيوافق بهزّة رأس، كان بالفعل يجيب بنعم برأسه. سألتُهُ من أين يأتي بورق مجلاته عن العالم الآخر؟ وقال إنه لا يقوم بذلك مباشرة، لكنه يعتقد أنهم يصنعونه في فنلندا، أو ربمّا في الدنمارك، لم يكن يتذكّر جيّدًا. لي علاقات في الدنمارك، قلتُ له وأنا أتذكّر أبَوَيّ الدنماركيَّيْن، وأعتقد أن توق الماضي خبطَني في منطقة وهنة، إذ اضطررتُ لأمسكَ بأنفي حتّى لا يلاحَظ أن دموعي ستقفز. أضاف أن بعض فروع الشركة القابضة لا تتبعه، بل يديرها آخرون من الباطن مقابل خدمات معيّنة، هل تفهمني؟ أعتقد أنه كان يحاول أن يقول إنه يعمل مع ناس مهمّين، واعترف لي بالفعل أن القسم الجنسي بالشركة القابضة ملك لوزير سابق، لكني لم أجد نفسي مضطرًا لتصديق كلّ ما يقوله، وبالتالي أعطيتُ انطباعًا بأني لا أفهم جيّدًا. أنتَ، إذنْ، فزّاعة؟ مُجرّد فاترينة؟ أعتقد أن الوصف لم يرقْ له، لكنه ابتسم بطيبة، ماذا سيفعل الرجل، وأنا أمسكه من شَعْره، كما كان يُمسكني وأنا صغير حينما كان يستاء من تصنّعي الحماقة، فيشدّني من شَعْري، حتّى إن جِلْد رأسي لا يزال يؤلمني إلى الآن؟ على أيّ حال،

صدرتْ عنه عدّة إيماءات بالضيق، كأنه يقول لي إن كان ممكنًا ألا أهدر كرامته كُلّيّةً، حينئذ تذكّرتُ العجوز ذي القبّعة الكولونيالية الذي تحلّلت جثّته في هوّة عميقة بضميري. عَدَدْتُ لثوانٍ أن بإمكاني قَتْله، أو حَرْق وجهه بمَنْحه زجاجة حامض الكبريتيك بدلًا من مُنبِّت الشَّعْر. قلْ لي شيئًا، يا لويس، أضفتُ كأن رأيه يهمّني جدًا، لو أتيح لكَ أن تحكي عن طفولتنا في كتاب، ما أهمّ ما ستقوله عنها؟ شرد، ربّما لأنه لم يكن يعرف أيّ نوع من الإجابات أنتظر، أو ربّما لأنه قد نسي كلّ شيء، فعندما تحيا حياة حقيقية، تغدو الذاكرة هادئة كالزيت، ورقة ملساء، فيما تظهر العُقد عندما تُخلّف وراءكَ حسابات دون تصفية، ولويس دفع حساباته كلّها، فلم يحمل بداخله طفلًا محرومًا، ولعلّه لم يحمل بداخله طفلًا من الأساس، لأنه هو والطفل كبرا معًا. قال "لا أعرف، كان حيًا مُسلّيًا، لا زلتُ أذكر اليوم الذي وصل فيه أوّل هاتف إلى شارعنا، يبدو أننا جئنا من قرن آخر، ربّما أحكي عن هذا، عن حدث الهاتف؛ الآن كلّما أرسلتُ فاكسًا أتذكّر أوّل هاتف رأيتُهُ، كان أسود، في تلك الفترة كل شيء كان أسود". يا لكَ من ذكي! فكّرتُ أنا، لو تعرف أن تجيبَ بهذه الإجابة لن تحتاج إلى صناعة هوية مصطنَعَة، ستنمو معكَ هويّتكَ مثل ساقَيْكَ وذراعَيْكَ ولسانكَ وأسنانكَ، بحيث لن تضطرّ إلى أن تعيرها اهتمامًا خاصًا. في هذا كان اليساردیمقراطي هذا جديرًا بالإعجاب، وللحظة فكّرتُ أن العالم ينقسم إلى أناس مثله وأناس مثلي. أمثالي يحتاجون إلى تعاويذ، إلى مشروبات مُسكِرَة، إلى حكايات بشكل عامّ، من أجل أن يفتحوا طريقًا في الحياة، من أجل فَهْمها. فلولا قدرتنا على السِّحْر، لكانوا دمّرونا، وبالفعل يُدمّروننا، وليس علينا سوى الاطّلاع على مواصفات العامل التي جهّزتُها أنا بنفسي لمؤسّسة الورق الحكومية. قرّرتُ ألا أسأله عن شيء آخر خاصّ بذاك الحيّ، لأنه يمكّنه

من تقديم إجابة هائلة، وكان يستحقّ هدنة. انظرْ، قلتُ له بعد أن غيّرتُ نبرتي، وغيّرتُ الموضوع، لا أريد مبدئيًا المتاجرة بشكل واسع بمُنبِّت الشَّعْر، بالتالي لا تُلحّ في ذلك، فأنا مُتورّط في إجراءات طلاق، وإلى الآن لم نقسّم الممتلكات، ولا أريد أن تضخّم أرباح الجرعات مدخّراتنا. مع ذلك، أحتاج إلى أموال سائلة، لقد استغللتُ التعويض الذي تلقّيتُهُ من مؤسّسة الورق، باستثماره هنا وهناك، لقد اشترينا أراضٍ في ماديرا، كما تعرف. من ناحية أخرى، لا أريد أن يرتبط اسمي في الأعمال بعمل مُنبّتات الشَّعْر، ما يروق لي هو الورق، وأُفضّل أن أبقى في الظّلّ، وبالتالي أحتاج إلى فزّاعة، إلى فاترينة، أتفهمني؟ يمكنني أن أمرّر لكَ أسبوعيًا كمّيّة من مُنبّتات الشَّعْر، بحسب ما سنتّفق، من أجل استخدامكَ الشخصيّ، ومن أجل بيعها في أيّ مكان بجرعات صغيرة، فكما ترى ليس ضروريًا استخدام كمّيّات كبيرة، وأنتَ تُسلّمني الأموال، التي نتّفق عليها أيضًا، بحسب الكمّيّة التي تحتاج إليها، إلى الآن لا أعرف ما لديّ، يجب أن أذهب إلى المعمل، فمنذ فترة صغيرة، وأنا أُهمله بسبب التّفرّغ لكتابة تقرير عن ماديرا، وهو الأكثر ضرورة لإنجازه. وكان لويس يوافق على كلّ شيء، أعتقد أنه كان يشيّد، بينما نتكلّم، مشاهد فانتازيّة، يتخيّل فيها نفسه وهو يبيع جرعات من مُنبِّت الشَّعْر إلى أعضاء الحكومة كلّهم. لكنْ، يتبقّى أمران أو ثلاثة، أضفتُ لأعيدَه إلى الواقع، انظر، لديّ صديق في مؤسّسة الورق الحكومية، حيث كنتُ أعمل، تعقّدتْ حياته، وباتتْ مستحيلة، كان رئيس شؤون المُوظّفين، تخيّل، والآن يجلس في الممرّ. المسألة ليست أنه لا يستحقّ، فهو رجل من الثقافة القديمة، مليء بعادات تشاؤمية، ومن المستحيل تجديده، بحسب ما يدو لي، لكنه رجل منصاع جدًا، كان ممكنًا أن يدوسَ على رقبة أبيه من أجل المؤسّسة، أعرف أن هذه ليست فضيلة،

فاليوم أيّ أحد يدوس على رقبة أبيه، لكن الفضيلة أن دائس الرقاب هذا صديقي، وربّما أتولاه أنا في المستقبل، لكنْ، حتّى ذلك الحين أريد أن يعطوه مكتبًا، وأن يُكلّفوه بكتابة تقارير، هو ماهر جدًا في كتابة التقارير. أيّ نوع من التقارير؟ سأل لويس. التقارير الطويلة، إنه رجل كفء لكتابة التقرير الطويل، قلتُ له. أخرَجَ لويس مفكّرة يساريمقراطية، من الجِلْد، يا للثراء! وكُتُب ملحوظات فيها، باجتهاد سكرتير مجتهد. ثمّة شيء آخر، أضفتُ، قلتُ لكَ إنهما أمران أو ثلاثة، الحقيقة أنهم ثلاثة، وهذا هو الثاني: انظرْ، أنا معجب جدًا بـ بياتريث سماريتاس، هذه الساحرة التي تكتب الأبراج في مجلات العالم الآخر بشركتكَ القابضة، ربّما تكون مديرة رائعة لمجلّة ميتافيزيقية، أقصد، وَلِّهَا إدارة واحدة من هذه المجلات، افعلْ ذلك كمعروف لي. هل ستفعل؟ وافق لويس، من دون أن يتوقّف عن تسجيل ملحوظات غامضة في مفكّرته. والآن نصل إلى الأمنيّة الثالثة، تبدو جِنّيّ المصباح القادر على فعل كلّ شيء، فابتسم هو راضيًا، وقلتُ له إني أريد أن يهاديني بالفتاة الصينية. أيّ صينية؟ سأل. الصينية الموجودة في غرفة الجنس المثير، أنا أقضي معها نزواتي. عضّ لويس على قلمه الحبر الذهبي اليساريمقراطي، وهو ثراء آخر، وبدا متردّدًا. ماذا بكَ؟ قلتُ. طيّب، لا شيء، لا شيء هامّ، الصعوبة الوحيدة أنه غير قانوني، وكلّما قلّ تواجدها في الشارع كان أفضل، لكنْ، فيما تريدها؟ لتكون معي هنا بينما أعمل، أحتاج إلى واحدة، تعتني قليلاً بذلك كلّه، وتعدّ لي فنجان قهوة من آن لآخر، لا تقلقْ، لن تخرجَ من الشّقّة. إذنْ، ليست هناك مشكلة، وعندما تتعب منها، تعيدها إلينا، وإن أردتَ نُبدلها لكَ بأخرى، لدينا فائض من الشرقيات. ثمّة أمر آخر، أضاف وهو يقاوم الضحك، انظرْ، هذه الفتاة، الصينية، وأعرف ذلك لأني ضاجعتُها عدّة مرّات، لا تعرف أنها في الواقع

في إسبانيا، حُلمها الذي من أجله دفعت للمؤسّسة لتُخرجها من بلدها، كان الوصول للدنمارك، ويبدو أن أمّها تعمل في ماليزيا أو سنغافورة، أو في الصين، لا أعرف من أين جاءت بالتحديد، في مجال النشر الإسباني: تطبع كُتُب أطفال مضروبة بأسعار رخيصة، تكلفتها هنا غالية جدًا، والحال أنها كانت مُضجرة في بلدها من رؤية قصص حوريات تحدث في الدنمارك، بالتالي كان هذا البلد بالنسبة لها هو الجنّة. هكذا أقنعناها أنها الآن في الدنمارك. انفجر لويس في الضحك، بينما كنت أرسم أنا جدولًا تقريبيًا للعالم عبر هذه الحكاية: الأمّ الصينية كانت تنشر بأسعار رخيصة كُتُبًا مُترَعَة بالقِيَم اليساريديمقراطية، من أجل أولادنا؛ ونحن، الآباء، كنّا نضاجع ابنتها بأربع سنتات؛ في أثناء ذلك، المطبعي الإسباني الذي كان يقوم بهذا العمل بات عاطلًا. توقّف لويس عن الضحك، ليشكو قليلًا: يرسلون لنا أيضًا فيتناميات كثيرات وأوكرانيات، كلهنّ يبدونَ لي متشابهات، وكلّ واحدة لها فكرتها عن أوروبا، إنها متاهة، خاصّة لأن السوق مكتظّ على آخره، فتاتكَ هذه أمامها ثلاث سنوات لتتحرّر، يعملنَ أربع سنوات للمؤسّسة مقابل أن نُخرجهم من هناك، هكذا أمامكَ وقت لتملّ منها، وعندما تحبّ، أكرّرها لكَ، سنُغيّرها لكَ، لدينا فائض من الشرقيات.

في تلك الأمسيّة، أرسلوا لي الصينية، كانت بالفعل بحجم عروسة، لمستُ مفاصلها وذراعَيْها، وشعرتُ هنا وهناك بصلابة توشي بأصولها الميكانيكية، كأن التّحوّل لم يتمّ كُلّيّةً. حقيقة أني أحسستُ عند لَمْسِهَا بكمّيّات معقولة من لحم وعظم، رغم أن ذلك كلّه لم يكن إلا قِطَعًا ضئيلة. كانت حقيبتها ملفوفة في بشكير، وأغلى ما كانت تملك ثلاث أو أربع قصص أطفال، على أغلفتها مناظر طبيعية دنماركية. بعد أن حمّمتُها، ووضعتُ لها على عانتها المحلوقة جرعة من شامبو الشارب، أدخلتُها معي

في السرير، كما كنتُ أتمنّى أن أفعل مع العروسة الأخرى ذات الهيئة الآليّة، كنتُ أقول إنهما قد يكونان واحدًا، ثمّ حاميتُها بجسدي من تهديدات الحياة. لم تكن تعرف نطق إلا "خنزير أوروبي"، وأربع عبارات أخرى كانت تكرّرها بشكل متقطّع، وبطريقة متعسّفة؛ الحقيقة أني حين أدخلتُ يدي ذات مرّة في الصندوق، لأُخرجها من الفاترينة، لم أكن أعرف تحديدًا ماذا سأفعل بها، لم يخطر لي أني لو أبقيتُها معي، سآمرها بأداء واجبات أخرى غير استحمامها وتلبيسها وتمشيط شَعْرها، بالإضافة لإطعامها، فثمّة عرائس تأكل. وأدركتُ أني أجد نفسي مرّة أخرى أمام صراع أخلاقي، ولا كوني ميتًا ساعدني على التّخلّص من صراعات الطبقة الوسطى هذه، والكتابة كانت بالفعل جسدًا معقّدًا، لقد تجاوزتُ هذه المشاكل الأخلاقية في الصفحات الأولى، لم أكن أفهم لماذا يتحتّم عليها أن تعود من جديد، خاصّة بعد قَتْلي للعجوز ذي القبّعة الكولونيالية، وفكّرتُ أن ذلك لقاحًا لأدافع عن نفسي من هواجس البرجوازية الصغيرة المرتبطة بالأخلاق، لكنْ، لا علاقة لشيء بالشيء الآخر: كنتُ على وشك أن أُعيد الصينية إلى غرفة الجنس حتّى فهمتُ فجأة أني لو أخذتُها معي إلى الدنمارك، وتركتُها هناك، حيث حلمها الحقيقي، سأتحرّر في النهاية من هذا الالتزام، وعلى أيّ حال، أنا مُلزَم بالسفر لكوبنهاجن، لأزور أبَوَيّ الدنماركيَّيْن، وأقوم بواجبي اتّجاه أصولي الحقيقيّيْن، لأني كنتُ أوليجاريو في النهاية، هذا البطل ابن الحرام الذي، بعد أن كرّس حياته لتقديم الخير للآخرين، جاء عليه الوقت ليعرف مَنْ هو، لأن البطل يحتمل كل شيء، ما من معاناة تفوق طاقة البطل، باستثناء معاناة عدم معرفته مَنْ هو. كان قرار السفر إلى الدنمارك سابقًا على واجبي الأخلاقي بتَرْك الصينية هناك. في تلك الليلة جلستُ معها في صالة الشّقّة، وبصبر كبير، شرحتُ لها أنها في الواقع ليست في

الدنمارك، وبذلتُ مجهودًا ضخمًا، لأُفهمها ذلك، إذ إننا كنّا نُعبِّر بلغات مختلفة، وبالإضافة لذلك لم تكن تعرف جيّدًا ماذا تعني إسبانيا أو فرنسا أو ألمانيا، وانتبهتُ إلى أنها منذ خرجت من بلدها، حيث كانت تريد أن تهجرَه، كانت تعيش في رحلة مُتخيَّلة، كأنهم خدّروها في بيت دعارة شرقي، وبينما كانت تمنح المتعة بطريقة ميكانيكية لزبون غربي، يلهث فوق جسدها، كانت هي تسافر بخيالها في جغرافيا فانتازية، اسمها أوروبا، وستصل عبرها إلى الدنمارك، وفي ذلك كانت تتشابه معي، فأنا ظللتُ مقيّدًا أيضًا بهذا الحيّ الذي كان لويس رئيسه، بينما كنتُ أسافر بخيالي بأماكن أحلامي مثل شارع fifth avenue بـ نيويورك. على أيّ حال، حين فهمتْ أنها كانت تعيش في وَهْم، وأنها في الواقع ليست في الدنمارك، انفجرتْ في البكاء، وكانت تبكي بطريقة ميكانيكية، أيضًا في ذلك، كانت أصولها تتجلّى: نهنهاتها كانت تستحضر تلامس معدَنَيْن، من نسيجَيْن مختلفَيْن. حينئذ أجلستُها على حجري، مثل عروسة، ومسّدتُ شَعْرها، وكان مبهرًا مثل شَعْر مستعار، فشرحتُ لها، لأُهدّئها أني على استعداد لاصطحابها إلى الدنمارك، ولا أعرف كيف استطاعت أن تفهمني، لكنها فهمتْ: كان بالنسبة إليها مكانًا أسطوريًا، وبالنسبة إليّ أيضًا، وفي ذلك كنّا متشابهَيْن.

بمُجرّد أن أعطيتُها هذا الوعد، لم أستطع التفكير في شيء آخر. كنتُ أتذكّر أمّي الدنماركية، بعقدتَيِ حلمَتَيْها المفكوكَتَيْن، وكنتُ أحدس أني ربّما ارتكبتُ أيضًا حزمة أخطاء في حقّها، وأني مَدين لها حتّى تُحرّرني منها قبل أن أدخل في حالتي الأخرى. ومع أبي كان ثمّة شيء مُعلّق، ربّما حوار، فالحوارات وحدها ما يمكن تبادلها مع الآباء. لكن الأهمّ أن أعرف مدينتهما، كانا يعيشان في كوبنهاغن، وأن أدخل بيتهما، لأرى كيف كانت غرفة نومي

التي بالتأكيد شَغَلَهَا طفل آخر، هذا الطفل الذي أبدلوه بي حين تهتُ في المحلات الكبيرة في أثناء زيارتي للملوك المجوس. على أيّ حال، لم يُعطّلني ذلك عن إنجاز المسائل العملية: ملأت، في الأيّام التالية، حمّام الشّقّة بعلب شامبو للشارب، ومنحتُ الفتاة الصينية عملاً. كانت تقضي اليوم في نقل الشامبو من عُلبه الأصلية إلى عبوات بلاستكية، تسع كلّ واحدة خمس أو ستّ جرعات، أي ما يكفي ليستفيدَ الرأس الأصلع من آثار هذا المخدّر الإعجازي، الذي كنتُ أُمرّره إلى لويس رائحة الخراء في كمّيّات، تكفي لعشرين مرّة أسبوعيًا، وهو، كرجل شديد السذاجة، بدأ يربّي شَعْره، كما كنّا في شبابنا. وكانت النقود تدخل بانتظام، وكنتُ أُحوّل أغلبها إلى كورونات دنماركية، وأُعطي إلى الصينية جزءًا منها، ليكون لديها مدّخراتها حين تصل إلى أرض الميعاد. كانت هذه الأيّام غريبة بعض الشيء، هاتفني رئيس شؤون المُوظّفين السابق بمؤسّسة الورق، وأخبرني بأنهم أعطوه مكتبًا، ليتفرغ لكتابة تقارير طويلة، وكان ممتنًا جدًا، ويريد أن نلتقي، فقلتُ له لديّ رحلات معلّقة، وسأتّصل بكَ عند عودتي. كان رجلاً غير واقعي، كائنًا خياليًا، وأنا كنتُ أتجرّد من ذلك كلّه، ليكون لي وجود واقعي، لذلك لم أتوقّف عن الكتابة، وحين لا أكتب كنتُ أراجع ما كتبتُهُ وأضبط بعض كلمات هنا أو هناك، مستخدمًا القلم الجافّ كمبرَد في زوايا هذا الجسد، بينما كانت الفتاة الصينية تنقل الإكسير من علب إلى علب.

في أثناء ذلك، لم أكن قد نسيتُ أني أمسكتُ بالواقع من شَعْره بفضل شَعْر بياتريث سماريتاس. لذلك قرّرتُ زيارتها يوم شاهدتُ وزير الداخلية في التلفزيون: كان أصلعًا طوال فترة التشكيل الحكومي، والآن نَبَتَ له قليل من الشَّعْر؛ كان رائحة الخراء يلاحق رؤوس الحكومة، وربّما كان الوزراء موتى مثلي تمامًا، إن فكّرنا في أنهم يستجيبون لعلاج أكسير من أجل

الطبيعة الميتة. كنتُ أقول إني لم أنسَ أن كل شيء كان بفضل بياتريث، هكذا رحتُ لزيارتها في تلك الظهيرة نفسها، من دون إذنها، فصرفتْ من صالة الانتظار رجلاً أعرج، راح لاستشارتها، حتّى تتفرّغ لي. جلستُ إلى منضدة متحرّكة، حيث تفرد الورق، منضدة شبيهة بمنضدة أبَوَيّ، لعلّ ما كان يعجبني في بياتريث هو ما كان يضطرم تحت مفرش هذه المنضدة، وتأمّلتُ صور الحائط الملأى بشخصيات صلعاء، كانت هي تقف بجانبهم، وتبتسم. أشرتُ على وزير الداخلية، وقلتُ هذا الرجل نَبَتَ شَعْره. والآخر أيضًا، أكّدتْ وهي تشير على أحد الوزراء، كان وزير التجارة على ما أعتقد، كلهم نَبَتَ لهم شَعْر، وأضافتْ وهي تُحدّق فيّ: أما أنا، فقد عرضوا عليّ إدارة إحدى المجلات المتخصّصة في الميتافيزيقا، وكل شيء بفضلكَ. أومأتُ إيماءة تواضع حتّى لا تظنّ أنها مَدينة لي بشيء، رغم أن الحقيقة أنها كانت طريقة لإخفاء خوفي، لأني قد رأيتُ في عينَيْها بريقًا، أقنعني بأنها ساحرة شرّيرة، كثيرات منهنّ شرّيرات، لكن ذلك لم يهمّني، لأني لمحتُ أيضًا أنها كانت يائسة: أعتقد أنها قد خمّنتْ أن بي شيئًا منها يفوق في قدرته قدراتها كلّها التي من الممكن أن تُراكمها في ثلاث حيوات مثل حياتها الحالية كساحرة. كان شاربي بالفعل جزءًا منها، ولو تحقّقتْ في ذلك، لَفَقَدَ قدرته: كنتُ قرأتُ في أحد الكُتُب المتخصّصة في الغيب أن السَّحَرَة والساحرات يتمتّعون بقدرات لا يمكنهم استخدامها بأنفسهم، بل عبر وسيط، إنهم يحتاجون إلى وكيل، مثل اليساريمقراطيّيْن، رجل من القشّ، آليّ، جسد آخر. وبياتريث انتبهتْ إلى أني جسدها الآخر، لكنها لم تكن تعرف لماذا، ولا في أيّ لحظة يمكنها أن تنقل إليّ قدرة، لم تكن حتّى واعية بها، رغم أنها كانت تبدو مستعدّة للبحث عنها. سألتْني من خلال مَن جئتُ إلى عيادتها في المرّة الأولى. وكان ضروريًا تفادي أن

تربطني بالحلّاق الذي تبرّعتْ له بذيل حصانها: لم أكن أعرف قيمة هذه الخصلات، لكنْ، بضمّ شيء إلى آخر، يمكن ربط الأفكار، وأحيانًا كنتُ أشعر بأنها بالفعل تربطها، لذلك عندما كانت تُحدِّق في وجهي، كنتُ أتحسّس شاربي بكل طبيعية حتّى أُبعد عنه انتباهها، فربّما شدته بسعادة، وكان هذا ما يشغلني في تلك اللحظة. قلتُ لها إن لويس أعطاني هاتفها، وأضفتُ بأننا من الحيّ نفسه، وكنّا منذ أكثر من ثلاثين عامًا لم نلتقِ، لكننا التقينا بالصدفة في محل الجنس المثير تابع لشركته، وأخبرتُهُ بأني كنتُ على وشك تأسيس شركة ورق رغم أني متردّد، فهذه ليست اللحظة الاقتصادية الأفضل، أنا خبير في الموارد البشرية، نعم، لكن ما يجذبني أكثر هو الورق، وربّما أُقيم شركة الورق بدَعْم حكومي، فالحكومة تدعم أيّ مبادرة للورق. نصحني لويس بأن أتّصل بكَ، لو كنتَ متردّدًا، اتّصل بـ بياتريث، قال لي، فالسياسيون والمصرفيّون يزورونها، لتقرأ لهم الطالع، نصف قرارات هذا البلد السياسية والمؤسّسية تتّخذها أوراق بياتريث، قلْ لها إنكَ من طرفي، لكني لم أقلْ لكَ إني من طرف لويس، لأني أفضّل ألا يعرف شيئًا.

كنتُ أقدّم شروحات طويلة حتّى أُخفي الحقيقة، ولم أستطع التّوقّف عن الكلام، كنتُ أخشى أن ينتحب شاربي لو صمت، في نهاية المطاف كان ذاك الشارب جزءًا من جسدها، ولعلّه كان يودّ العودة إلى الأرض التي نَبَتَ فيها، مثلما أودّ أنا السفر إلى الدنمارك، لأتعرّف إلى أصولي. حينئذ قالت لي إني لم أسألها عن أيّ مصنع ورق حين جئتُ لرؤيتها، بل قد سألتُها إن كانت ترى في الورق أيّ جثّة، وأن هذا ما تتذكّره، وأنا قلتُ إني كنتُ أحبّ أن أرى إن كان المصنع سيظهر بمفرده، من دون الحاجة إلى ذِكْره. ثمّ تمكّنتُ من الهدوء قليلًا، ففي النهاية هي مَدينة لي بتولّي إدارة مجلّة عن الميتافيزيقا. الحقيقة أنها لو انتبهتْ أن قدراتي ترجع لشَعْرها ستحاول إلغاء إرادتي، لتُحوِّلني إلى وكيل، إلى آليٍّ خاضع لأوامرها؛ وكان في

ذلك خطورة حقيقية، غير أن الأبطال مضطرّون على الدوام لمواجهة قوى خارقة. لقد فَقَدَ هانيبال إحدى عينَيْه في جبال البرانس، وأنا كنتُ أوليجاريو، بطل الرواية، والبطل لا يمكن أن يهرب من نظرات ساحرة، إنما عليه أن يحاربها، خاصّة لو كان وراء هذا البطل جيش، قوامه طفل أحمق وطفل ميت، بالإضافة إلى طفل غير مَرئي وآخر ابن حرام. كلّما كانت بياتريث سماريتاس تنظر إليّ، كان يلمع في عينَيْها بريق خارق، أعتقد أنها كانت مرتبكة، لأنها حدستْ أني لم آتِ للاستشارة فحسب، لكنها لم تتمكّن من رؤية الميت ولا الأحمق ولا ابن الحرام، وبالطبع ولا غير المَرئي الذي لا بدّ أن صادفتْهُ في أحد الأبعاد المُجرّدة التي يرتادها كلٌّ منهما. كانت يائسة، هذا ما أقوله، لكنها كانت تحاول التماسك أمامي حتّى أنزل أنا بأوراقي، وأخسر. قالت لن أفتح لكَ الورق، ما فائدة ذلك؟ يبدو أن أحوالكَ كلّها على ما يرام، وتتمتّع بالثقة والقوّة، الورق نفتحه في حالة وجود صعوبات، لا بدّ أنكَ تحت تأثير نجمي استثنائي، يمكن أن نرى ورقتكَ النجمية، إن كان يروق لكَ، وقادتني إلى صالة مُلحَقَة، بها ثمّة كمبيوتر أدخلتْ عليه البيانات المطلوبة نفسها في ملفّ الشرطة. حَدَثْ أن تستخدم الكمبيوتر بدلًا من البَرْجَل والمُثلّث، لترفع ورقة نجمية، أقنعني بأنها ساحرة يساريمقراطية: تعثّرتُ، إذنْ، بخطر حقيقي، هذا ما كنتُ أفكّر فيه بينما أُمليها سوابقي، وهي تُدهشني بأن النجوم تحتاج إلى البيانات نفسها التي تطلبها الشرطة، لتعرف مَنْ أنا. السّيّئ أني، وبينما كانت شاشة الكمبيوتر تغلي بهذه الشفرات كلّها، كنتُ أتأمّل جسد بياتريث سماريتاس، ولا أعرف لماذا تذكّرتُ هانسل وجريتل بطلَي قصّة "بيت الحلوى"(*). الصالة التي كنّا فيها كانت ضيّقة ومظلمة، والضوء الوحيد كان

---

*) قصّة أطفال شهيرة للأخوَيْن جريم، تحكي عن الولد هانسل وأخته جريتل بعد أن تخلّصتْ منهما زوجة الأب بإلقائهما في غابة، فيعثران على بيت في شكل حلوى، تسكنه ساحرة عجوز، تحاول أن تلتهمهما، وفي النهاية، يتخلّصان منها، ويسرقان مجوهرات العجوز، ويعودان لبيت أبيهما. (م).

قادمًا من شاشة الكمبيوتر، وكان ضوءًا أخضر أو كهرمانيًا، ضوءًا مُمغنَطًا، كان يضيء صدر الساحرة؛ كنتُ أقول إني تذكّرتُ "بيت الحلوى" وهانسل وجريتل، لأن جسد بياتريث، في هذا الضوء الفوسفوري المخضرّ، كان يبدو بناية كريمة مشيّدة بالأشياء الجميلة كلّها التي كانت تنقصني في طفولتي. وتخيّلتُ للحظة أن ممرّها المهبلي مصنوع من عرقسوس غامق، يقطّر شهدًا شهيًا. احتجتُ إلى تدخين سيجارة، لأقمع رغبتي في إلقاء نفسي عليها في تلك اللحظة. حينئذ ابتسمتْ بياتريث بتسامح- منذ نصف عقد، امتنع اليسارديمقراطيون عن التدخين، أو باتوا يدخّنون في الخفاء- ونهضتْ، لتُشعل بخورًا أو شيئًا شبيهًا، يمتصّ رائحة التبغ. الحال أني حين شممتُ هذا الدخان، وقعتُ في غرامها، رغم أني كنتُ واقعًا من قبل، ومن دون أن أنسى أني بطل، يعبر من هنا لفترة، إذ إن مصيري الحقيقي هو الدنمارك، قرّرتُ أن من حقّي أن أتمتّع بإحدى متع تلك الرحلة التي بدأتْ في طفولتي. هكذا عندما عادت بياتريث من إشعال عيدان البخور، جذبتُها ناحيتي من وركَيْها، وطلبتُ منها أن ترفع جلبابها. بدتْ عيناها ككُرَتَيْن من الكراميل، أو على الأقلّ، بهذه الحدّة العذبة، حدّقتْ فيّ قبل أن تبدأ في فعل ما طلبتُهُ منها. كانت ساقاها أطول من طفولة وَلَدٍ فقير، أطول من رحلة البحث عن منابع النيل، أو أصول وجوده، لكنْ، في النهاية، وصل طرف الجلباب حيث أردتُ أن يصل، وحين رأيتُ سروالها الداخلي منقوعًا في نوع من الرحيق، طلبتُ منها أن تقدّم لي شَهْدَها، بيدها ذاتها. وبياتريث، من دون أن تتركَ الجلباب من يدها، أدخلتْ يدها الأخرى من تحت السّروال، وغرفتْ بأصابعها سُمًّا عذبًا، مسحتْهُ في شَفَتَيّ. لو لم أكن أوليجاريو، وكنتُ بطلًا أصغر، لكنتُ صدَّقتُ في تلك اللحظة أني قد بلغتُ قِبلتي؛ لحسن الطالع، كلّما عظمت المتعة، عظم اليقين في أننا عابرون على هذا الجسد، يمكن أن أستمتع به بالطبع، لكنْ،

من دون أن أنسى مَنْ أنا. من حقّ الأبطال كلّهم أن يستريحوا قليلاً بعد المعارك العظيمة، وأنا كنتُ قادمًا من معركة تيسينيوس وتريبيا وتراسمانيا وكاناي(*)، بحسب ما بدا لي. قلتُ لها أن تخلع السروال، لأتأمّل مباشرة ينبوع هذا الإكسير، فأطاعتني في الحال. في لحظة ما، تحسّرتُ على أني لستُ بطلاً صغيرًا، إذ حينها كنتُ سأبقى في ذاك البيت للأبد. في أثناء ذلك، كانت ارتسمت في شاشة الكمبيوتر ورقات نجمية، دائرة يحيط بها كواكب وعلامات، كانت تتحدّث عنّي، وربّما عنها. وبياتريث، من دون التّوقّف عن إطعامي برحيقها، كانت تُترجم تلك العلامات. كانت الغرفة فوسفورية، ودخان البخور، وربّما ما كان يضطرم تحت جلبابها، كان يثير مشاعر بداخلي حدّ أني شعرتُ بأني قد بلغتُ الواقع بالفعل. كنتُ أعرف أن ذلك مستحيل، لأن الواقع كان يبدأ في الدنمارك، لكنْ، بين الدخان والسائل الهارب من مَكمنها الغامق كالعرقسوس، أعتقد أني استسلمتُ لنوع من السراب، إذ بعد قليل، ومن دون أن أنتبه، كنتُ في غرفة أخرى بالبيت، في غرفة نوم، ولا أعرف في أيّ لحظة انتقلتُ أنا وبياتريث إلى هناك، يبدو لي أننا طِرنا بالهواء، فالحال أنها كانت تقول لي بينما تواصل في تغذيتي أن لو حكيتُ لها سرّي، سرّ مُنبِّت الشَّعْر، سأكون أنا وهي أكثر سلطانًا، سنستغني عن لويس المعتوه الذي لم يَكن إلا مركبة، فزّاعة، مُجرّد وسيط. كانت تقول ذلك وهي تَلعق شاربي بلسانها، من دون أن تعرف أنها تلعق نفسها. وأنا، داخل هذا الدوار العامّ الذي أقنعني أحيانًا أني في الواقع، كنتُ أخاف من أن تُمرّر طرف لسانها إلى جذر الشارب، فتُحرّكه قليلاً، فربّما لو لاحظتْ أنه ملصوق، لانتبهتْ أنه شَعْرها، واطّلعتْ على سرّي. لكن الحاسّة السادسة التي يتمتّع بها الأبطال حتّى

---

*) إشارة إلى معارك هانيبال التي انتصر فيها على الجيش الروماني (م).

وهم يحلمون، ساعدتني على ألا أغفل. تلك الساحرة كانت تسعى إلى مَحو إرادتي عبر إقناعي بأن الواقع قد بدأ في سريرها، مع أني كنتُ أعرف أن سريرها مُتخيَّل، مع ذلك، حين أوشكتُ على القذف، طلبتْ منّي أن أقذف في يدها، وشربتْ عصيري المنوي، كأنها تشرب من نبع مُترَع بموادّ مغناطيسية. وأنا وقعتُ مسترخيًا بعد هذا الفَقْد، وأعتقد أني نمتُ، لكني وبينما أتسلّل إلى النوم، استرددتُ عصيري المنوي كلّه بعد أن تحوّل إلى كلمات، كانت تُصبّ في أذنيّ اللتَيْن كانتا كَفَمَيْن. عرفتُ حينئذ أنها لم تكن ساحرة طوال حياتها، بل إنها في الواقع كانت عاملة جنس بالهاتف في مؤسّسة ذات سطوة في الجنس عبر الهاتف، احتكار كان لويس يديره كواجهة لوزير سابق في الحكومة، والحال أنها عند استثارتها للرجال عبر الهاتف، تعرّضتْ لتجارب فوق طبيعية، حَكَتْها لـ لويس، ولويس استغلّها، لأنه كان يرى أن ثمّة مستقبلًا كبيرًا في الموضوعات الخارقة: في تلك الفترة، كانت عيادات العرّافين ملأى بالمصرفيّيْن والسياسيّيْن والملوك المعلّقين بمعرفة المستقبل. أعتقد أنه أجبرها على الدراسة، لتتعلّم كيفية التّصرّف كساحرة بالميلاد، ثمّ بدأ في الترويج لها في السفارات وحفلات الكوكتيل. وأحيانًا، إن لم تتنبّأ صوابًا بمستقبل ذي أهمّيّة خاصّة، كان يضربها، وأظنّ أنها أرتْني ندبة جرح، كان عقابًا لها، لأنها أخطأت في مصير وزير سابق، كان له مصالح في مؤسّسة الجنس بالهاتف التي جاءت منها. لم أكن متأكّدًا من أنها كانت تحكي ذلك كلّه بسذاجة: ربّما كانت تطلب منّي مساعدة، لكنْ، لم يكن بوسعي أن أساعد هؤلاء كلّهم الذين يتقاطعون مع رحلتي إلى الدنمارك، تكفيني الفتاة الصينية التي تضمّنها مصيري منذ كنتُ صغيرًا. بالإضافة، كانت بياتريث، إن كان ما حكتْهُ لي حقيقةً، سجينة داخل منظّمة يساريمقراطية، واليسارية الديمقراطية تتميّز بأنها فلسفة

الحياة الوحيدة التي تسمح بأن يفعل الشخص بعكس ما يدعو له، باسم ما يدعو له. وأمام درع كهذا، ما من بطل قادر على الانتصار. من جانب آخر، هذا ما أقوله، قد يكون ذلك كلّه مُجرّد حكاية، لتُقنعني، فأحكي لها سرّي؛ ثمّ تتخلّى عنّي، وقد تخلّوا عنّي في مرّات أخرى، وبالتالي، لم أستسلم لرغبتي الطبيعية في حمايتها. وبعيدًا عن ذلك، أعتقد أني في تلك اللحظة، لم أستطع الدفاع عن نفسي، بطريقة أخرى، فنمتُ.

حين صحوتُ، كان الليل ينتشر، لا بد أن أربع ساعات مرّتْ. تأمّلتُ حينها غرفة نومها للمرّة الأولى، إذ لم أركّز من قبل في التفاصيل؛ كانت الغرفة مزيّنة كغرفة ساحرة حقيقية، وكانت هذه هي المشكلة، أنها مُجرّد زينة. رأيتُ بالمناسبة ثمّة جمجمة فوق أثاث ذي هيئة شرقية، وعند النظر، إلى هذا الصندوق الخشن، بعينَيْن موارِبَتَيْن، يغلب عليهما النعاس، فكّرتُ أن الجسد، خاصّة لو فكّرنا في تعقيداته، عبارة عن أداة بدائية جدًا. كانت الجمجمة جزءًا من الديكور، وبياتريث كذلك؛ وهي كانت بجانبي، وترمقني بيأس، لأنها لم تحصل على سرّي، وانتبهتُ إلى أنها كانت ديكورًا آخر، مثل البومات المستريحة على الرفوف ورسومات الحيطان المُلغِزة. بياتريث، في النهاية، لم تكن ساحرة، لكن ذلك لم يُقلّل من خطورتها، إذ كانت هي وكلّ ما يحيط بها الهيئة السلبية لرغبة غير متحقّقة، هيئة سلبية قاتمة، قد يتوه فيها المرء أيضًا، ما لم يكن منتبهًا إلى المعنى الحقيقي للحياة. وكانت بياتريث سماريتاس، وأقول ذلك على عجالة، إحدى الحيازات الفرعية، لرجل عصابة يعمل في خدمة اليسار الديمقراطي، التّوجّه الأكثر خطورة من التّوجّهات المعروفة، إذ إنه كان قادرًا على تعرية إعاقتي النفسية، وقد تمكّن من تسريحي من العمل، ومنحي تعويضًا. هكذا كنتُ بين ذراعَي شقراء رجل العصابة التي تسعى للاطّلاع على سرّ مُنبِّت الشَّعْر لتُسرِّحني

بعدها؛ كنتُ أخرج من قصّة حوريات، وأدخل رواية جريمة، وهكذا كنتُ أعرف أن ذلك كلّه ليس واقعيًا. كنتُ مضطرًا إلى أن أحميَ نفسي من الأشباح التي تتقاطع في طريقي، لتُقنعني بإصرار بأني قد وصلتُ إلى الواقع بالفعل. كلّ واحد منهم كان يتمتّع بأداة خاصّة، ليحنيني بها: شبحا زوجتي وابني، على سبيل المثال، كانا يمزّقان قلبي؛ وشبح بياتريث كان متخصّصًا في تقليب مفهوم الوَلَه، لكنْ، أيضًا معنى الغرور؛ أما شبح لويس، فكان يتقاطع معي حتّى أُشبع رغبتي في الانتقام. وأنا أتساءل بكم تجربة يجب أن يمرّ البطل حتّى يبلغ ذاته.

هربتُ مذعورًا من بيت بياتريث، وشعرتُ وأنا في الشارع المظلم بأن ظلّاً ما يتبعني. كان من الخطأ أن أختصر دور مُنبِّت الشَّعْر على صفته كلُعبة، بينما قد يكون في يد رجل مثل لويس سلاحًا للسيطرة على العالم، وبالفعل، كان قد سيطر على وزير الداخلية وسكرتير الدولة للتجارة.

كيف لم أتخيّل أنه مستعدّ لدفع أيّ ثمن للحصول على التركيبة؟ لحسن الطالع، لا يزال يثقُ حتّى الآن بوسيلة الإقناع، وكانت بياتريث جزءًا من هذه الوسيلة، لكنْ، لو لم يحصل على السّرّ بالإقناع، قد يلجأ إلى العنف. ملأني الخوف في تلك الليلة وأنا في الشارع، ومع الخوف استعدتُ سرعتي، هكذا وصلتُ إلى الشّقّة، وقلتُ للفتاة الصينية أن تكفّ عن ملء العبوات، يا إلهي، فقد يكفي أن يرسل لويس مُجرمَيْن حتّى يكتشف أن مُنبِّت الشَّعْر ليس إلا شامبوًا للشَّعر المستعار. وأخفيتُ علب الشامبو كلّها، وهاتفتُ رائحة الخراء: طلبتُ منه أن يمرّ بالشّقّة في اليوم التالي لإفطار عمل، وحين جاء أمامي، أقنعتُهُ بأني أريد أن أتفاوض معه، بينما كانت الفتاة الصينية تقدّم لنا القهوة. أريد أن أتفاوض معكَ، يا لويس، قلتُ له وأنا أتحسّس

شارب بياتريث؛ انظرْ، خلال فترة فكّرتُ أن أعمل بنفسي في مُنبِّت الشَّعْر، لكني أفتقد للمهارات التجارية حقيقةً، وأحبّ الموارد البشرية والورق، وأريد أن أكرّس وقتي لذلك، وبالتالي قرّرتُ أن أضع في يدكَ توزيع مُنبِّتات الشَّعْر؛ ستكون أنتَ وكيلي (تفاديتُ استخدام كلمة واجهة أمامية حتّى أقنعَه بأنه ارتقى في نظري) وسيكون عليكَ أن تتكفّل خطوة خطوة بأسراري كلّها. كنتُ أحاول أن يُصدِّق أن محاولات إقناعه لي بالحسنى قد أثمرتْ، لكني أدركتُ أنّ صفقة تجارية مثل هذه لا بدّ أن تخضع لمنطق، وأنها تحتاج إلى إطار من تبادُل المصالح، ولو حدث عكس ذلك، قد يرتاب أني أصنع له فخًا، أو أني أكسب وقتًا. وأضفتُ، عندي مشكلة، أظنّ أني وقعتُ في غرام ساحرتكَ، بياتريث، وأتمنّى أن تتنازل لي عن ملكيّتها مثل الفتاة الصينية، أنا أعرف أن بياتريث ملكية أوروبية،لا تتسرّعْ، أنا خبير في الموارد البشرية، وأعرف الطُّرُق المختلفة لتملُّك الأفراد بناء على مكان استخراجهم أو طبقتهم، الاشتراكية لا تعني معاملة الجميع بالتساوي، بل عدم التساوي بين غير المتساوين. أعتقد راقَ له هذا التواطؤ السياسي المفاجئ بين الاثنَيْن، لكنْ، بدا لي مناسبًا أن أُملِّح هذا التوطؤ بلمسة عاطفية، هكذا أضفتُ أني لا أستطيع أن أتصوّر حياتي من غير بياتريث، لقد وقعتُ في غرامها، وفي النهاية، هذه هي الحقيقة بدرجة ما، هل يضايقكَ ذلك؟ ولم يكن يضايقه، لا، لم يكن يضايقه أيّ شيء، رغم أنه حين أومأ بالموافقة، كان يفكّر في طريقة يتخلّص بها منّي، بمُجرّد أن يمتلك أسرار إنتاج الإكسير، لكني لم أكن قد أنهيتُ كلامي. أضفتُ، انظرْ، يا لويس، أنا مضطرّ للسفر إلى الدنمارك، لإنهاء بعض اتّفاقات مع شركة ورق هناك، وعلى ما يبدو يريدون أن يُنشئوا مؤسّسة احتكارية مع الفنلنديّيْن، ليُحرِّموا السوق الأوروبية، ولا يمكن أن نبقى خارج هذه العملية، نحتاج إلى

استيراد ثلاثة ملايين طن من الورق في العام، ما يعدّ كارثة لتوازننا التجاري، وكان عليّ أن أعثر على طريقة لمشاركتهم، وآمل أن أصطحب معي الفتاة الصينية إلى كوبنهاغن، لتحقيق حُلْمها بزيارة الشمال، أقصد أني أحتاج إلى جواز سَفَر لها، وبعلاقاتكَ في الداخلية، لن نواجه أيّ مشاكل، أليس كذلك؟ قال من الخطر أن تتجوّل هذه السلعة بأوروبا، هناك مافيات غير شَرْعية وسيّئة السُّمعة، تعمل بهذه التجارة منذ سنوات، يستوردون طفلات في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، بعضهنّ بأسنان مكسورة من أثر ضربهم لهنّ، تخيّلْ، وتكلفة أسنانهنّ غالية جدًا، ومسألة الصينيات فظيعة جدًا، يضعون خمسين صينية داخل شقّة، مساحتها خمسين مترًا، ليصنعنَ بناطيل، ويجلبون لنا العار جميعًا، نحن نُنظّمُ قليلاً العمل بهذا السوق، والحقيقة أننا لا نطمح حتّى إلى توسعته، نرضى بتنظيم السوق، لا يتساوى جَلْب فتيات من أوكرانيا، بفتيات من نيبال، مواصفات الأُوليات مختلفة عن الأُخريات، مَنْ نُحضرهنّ من نيبال، نحتاج إلى معالجة أفواههنّ، ثمّ استخراج شهادات صحّيّة لهنّ، في النهاية، لكي تصل إلى محلاتنا عروسة مثل عروستكَ، ندفع عينًا من عيوننا، ولا نستطيع أن نُحرّكهنّ من جانب إلى جانب بأوروبا، يا خيسوس ...

كانت الفتاة الصينية لا تزال جالسة في ركن بالصالة، بالوضع المعتاد لعروسة مهجورة، فأدركتُ أنها المرأة التي كانت قد ظهرتْ في الأوراق التي ألقتْها بياتريث عندما عدتُ من ماديرا، في تلك اللحظة، كان يمكن أن أراهنَ على حياتي من أجلها. قلتُ لن أُحرّكها بأوروبا كلّها، أريد فقط أن أصطحبها إلى الدنمارك، وهذا يهمّني، يهمّني جدًا، يا لويس، انظرْ، قلْ لوزير الداخلية إن لم يمنحها جواز سَفَر، سيسقط شَعْره. وضحكتُ قليلاً، لأخفّفَ توتّر المشهد، لأن لويس بدا متردّدًا، وقال إنه ليس سهلاً، لا

يمكنكَ أن تتركَها في الدنمارك بجواز سَفَر مضروب، نحن مَن استخرجناه.
لن أتركَها هناك، يا لويس، أريد أن تكون بجانبي فحسب، كسكرتيرة، أريد أن أُطلِعَها على ذلك حتّى ترى البرد هناك، وخلال أربعة أيّام، أُنهي فيها اتّفاقات الورق مع الدنماركيّينْ، سنعود مرّة أخرى إلى هنا، وفي اليوم التالي لعودتي سنبدأ في إنتاج وتسويق مُنبِّت الشَّعْر، وأنتَ في أثناء ذلك، تكلَّمْ مع المحامين، ليُجهِّزوا الأوراق، وأنا سأُوقّعها في الحال.

عندما انصرف لويس، حمّمتُ الفتاة الصينية، ولاحظتُ أن عانتها لا تزال مَلساء كعروسة من البورسلين، رغم العلاج الذي وضعتُهُ لها. انتابني خوف أن يكون مُنبِّت الشَّعْر قد فَقَدَ فاعليّته، رغم أن أغلب الظَّنّ أنه عبارة عن إكسير غير واقعيّ، يعمل بفاعلية في الرؤوس غير الواقعية مثل رأس لويس أو رأس وزير الداخلية أو رأسي ذاته، فرأسي أيضًا كان غير واقعيّ، وربّما يصيبني الصلع التّامّ، بمُجرّد وصولي إلى الدنمارك. الحال أن عانة الصينية، وكانت عانة واقعية، على عكس هؤلاء الذين ربطتُ نفسي بهم، لم تكن تستجيب للسِّحْر، السِّحْر لم يكن واقعيًا، هذا ما كان يعرفه أيّ أحد خرج من حيٍّ مثل حيّ. أتذكّر أني، وبينما أُجفِّف شَعْرها، رنّ جرس الباب، وتركوا لي مظروفًا، اعتقدتُ في البداية أنه جواز السَّفَر، لكنه كان طلَبًا بالطلاق، محامٍ كان يطلب منّي أن أتواصل معه، ليعرّفني تفاصيل طلب زوجتي للطلاق. كانت الأمور تسير بإيقاع سليم في الأرض غير الواقعية، بطريقة ما، طمأنني معرفة أن غير الواقعي يسير جيّدًا من دوني، وتخيّلتُ ابني وهو ينمو بطريقة خيالية في عالم شبحي، أستعدّ أنا للرحيل عنه، وحسبتُ أن بالشكل الذي وصلني به من اللا واقع طلبًا بالطلاق، قد يصلُهُ هو أيضًا أوراق من أرض الواقع، ربّما لذلك لم أتوقّف عن الكتابة حتّى أرفع هذا الجسد من الورق، ولعلّي أُوصِّله إلى ابني اللا واقعي حينما يتمّ تركيبه

كاملاً، وحينها سيسعد أن له أبًا واقعيًا، والأب الواقعي دائمًا غائب، لقد استغرقتُ عمري كلّه، لأكتشفَهُ، ووجدتُهُ في النهاية في الدنمارك. أنا الآن أكتب بعجالة، تحت سيطرة درجة من الضغط اليساريديمقراطي مجدّدًا، إذ إني قد فَقَدْتُ كَونيّتي التي كانت تُقدِّر هذا الجسد في البداية، لكني كلّما تقدّمتُ نحو الواقع، كنتُ أخسر أشياء. تأخّر لويس مدّة أسبوع، ليحصل على جواز سفر الصينية، وخلال تلك الفترة، على سبيل المثال، تساقط شَعْري مرّة أخرى، إذ لم يعد الشامبو فعّالاً، وفكّرتُ في إزالة شاربي أيضًا، لكني لم أحتجْ إلى ذلك، إذ وقع بمفرده ذات يوم عندما كنتُ مع الفتاة الصينية في السرير، فتحسّستْني كأخ لها (كنّا نتلامس كأخَّيْنِ، هي جريتل وأنا هانسل) فسقط الشارب في يدها، وكانت المرّة الأولى التي تضحك، والمرّة الأولى التي أضحك معها، كم أصبح كلّ شيء واقعيًا! في أثناء ذلك، أرسل لنا لويس مُصوِّرًا فوتوغرافيًا لإنهاء جواز سَفَر جريتل، وأربع أو خمسة رُسُل بأوراق، يريد أن أُوقّعها قبل سفري إلى الدنمارك، وأنا كنتُ أُوقّع من دون نظر، وأحيانًا كنتُ أُوقّع بـ أوليجاريو، وأحيانًا أخرى بـ هانسيل، فما الفارق؟ وقّعتُ كذلك على طلب الطلاق، وسلّمتُهُ لأحد هؤلاء الرُّسُل. وفي اليوم السابع، وكأن الخَلْق قد اكتمل في النهاية، ظهر لويس بجواز سَفَر الصينية، وأنا كنتُ مرعوبًا من أن يكون شَعْره قد تساقط مثل شَعْري، لكنْ، كان له ذيل حصان، يبدو قادمًا من أيّام شبابنا. لم ينتبه إلى أني غدوتُ واقعيًا، رغم أنه سألني عن الشارب وعن الشَّعْر، قلتُ له إن العلاج الكيميائي قد أحرقه، فضربني عدّة ضربات في كتفي، من دون أن يخفي إيماءة ارتياب، كأن العلاج الكيميائي مُعدٍ، وأضاف بأنه لم يكن يعرف شيئًا. وأنا رجوتُهُ بألا يُخبر بياتريث بشيء، وأنا نفسي سأشرح لها كلّ شيء عند عودتي، فطلب منّي توقيعات أخرى، فوقّعتُ بسرور، فلم

يكن لتوقيعي أيّ قيمة في هذا البُعد، لكنْ، لا محاميّوه ولا محاميّو زوجتي قد انتبهوا إلى ذلك إلى الآن. وعندما انصرف، تأمّلتُ وجهي في المرآة، وكنتُ بالفعل أصلعًا، ومن غير شارب، وكنتُ واقعيًا، واقعيًا، أخيرًا بلغتُ الواقع، واستطعتُ أن ألمسَ الواقع بأطراف أصابعي، وأتذكّر أن الصينية كانت من ورائي، مأخوذة، لأنها لم تكن شاهدت من قبل شيئًا واقعيًا هكذا (كانت مخدّرة فوق مخدّة، ببيت دعارة بعيد، تسافر بخيالها عبر أوروبا) وأنا لمستُ ذراعها، وأحسستُ بأن بورسلين تلك العروسة الصينية التي أخرجتُها من علبة بمحلّ الجنس المثير قد تحوّل كُلّيّةً إلى لحم، وكان واقعيًا أيضًا. ثمّ خرجتُ لأشتري تذاكر الطيران، وحقيبة لملابسها. كان بالشارع والمحلات ثمّة بريق صلب، ربّما مُظلّل بشكل مبالغ، بريق يميّز سينما الأبيض في الأسود والأشياء الواقعية عمومًا.

كانت جريتل، الصينية، مدهوشة جدًا في الطائرة، وبلا رغبة في الطعام، لم تكن ترغب إلا في النظر من النافذة، لترى الدنمارك حين تظهر، ونادتْني بالخنزير الأوروبي عدّة مرّات من دون أن تجدَ كلمات، تُعبِّر لي بها عن امتنانها بالرحلة. عندما وصلْنا إلى مطار كوبنهاغن أحسّ كلانا ببياض في الجوّ، لم يكن موجودًا في البُعْد الذي جئنا منه إلا، أحيانًا، في غرف العمليات، ولم نرَ من التاكسي الذي أخذنا إلى المدينة إلا مزارع، كلّها إسطبلات حديثة الدهانات، دهانات تبدو بلون صفحات كتاب كبير جدًا. وفوق رؤوسنا كان ثمّة سحابات بيضاء هابطة حتّى كدنا أن نلمسَها بأيدينا، رأينا كذلك مجموعة من النسوة الشقراوات يعبرنَ الحقل بدراجات مُلوّنة. التفتُّ في الحال إلى أنه بلد صغير، لكنه مُنظّم بمزاج، يشبه في تفاصيله بيوت العرائس. كانت جريتل تنظر إلى المنظر الطبيعي بمزيج من انبهار ورعب عادة ما يحدث لنا أمام حُلْم. عند دخول المدينة، التي

كانت تفتقر إلى ضواحٍ، شاهدنا أسقفًا وقبابًا من النحاس، بلون أخضر، لم أتخيّل أبدًا أن لها وجودًا، واعتقدتُ أن هذا المعمار لا يعدو أن يكون في رؤوس بعض الرسّامين، لقد خرج أوليجاريو بالضرورة من مدينة مثل تلك، لكني نسختُها من قصص مُصوَّرة. كانت الشوارع تبدو ممرّات، وفاترينات المحلات معاقل أخلاقية: ما هو واقعيّ كان مُترَعًا بصور فانتازية، لقد عرفتُ ذلك دومًا.

كنتُ أقول إن جريتل كانت متوتّرة جدًا، وأنا لم أكن أعرف في أيّ مكان من الحُلْم الدنماركي سأتركها، في النهاية، أمرتُ سائق التاكسي بأن يتوقّف في شارع لُعَب أطفال، ورحنا سيرًا تحت رواق من الأعمدة حتّى وصلنا إلى ساحة مُلوّنة مَكسوّة بالكارتون، هي ساحة قصر أمالينبيرج، حيث كانت تعيش ملكة تلك القصّة الواقعية. كانت الساحة مرصوفة بأحجار صغيرة، وجوانبها الثمانية، يعكس بعضها بعضًا كمرآة، كان كذلك ثمّة أبراج حمراء من الخشب، يقف فيها مجنّدون من الرصاص، في حجم رجل، وكانوا مُصمّمين في شكل الاستعداد للعرض العسكري والسعال، أحدهم عطس بالقرب منّا، وانفجرت جريتل في الضحك مثلما ضحكتْ يوم خرج شاربي في يدها، وكانت المرّة الثانية التي أراها تبتسم. وفي وسط هذا المعمار الثماني المكسوّ بكمال واقعي، يتجلّى في أحلام الأطفال، كان هناك تمثال أخضر من النحاس، لا يمكنكَ أن تتوقّف عن تأمّله، إذ تقع في غوايته بمُجرّد النظر إليه. لقد وصلنا، دون شكّ، إلى الواقع، لاحظتُ ذلك أيضًا في الجوّ المحيط، والهواء، على سبيل المثال، كان له طعم مالح، وكنتُ أتنفّس هواءً رطبًا، لأن البحر كان في ذلك المكان نفسه، وكان جزءًا من الواقع، وكان يمكنكَ أن تستطعمَ الملح الذائب فيه. كنّا متأثّرين جدًا، جريتل وأنا، ومُمتنَّيْن للشعور بالبرد، ما كان يعني أننا قد هربْنا من

الساحرة، والآن أدركتُ إلى أيّ مدى كانت بياتريث ساحرة شرّيرة، رغم أن جسدها كان مصنوعًا من العرقسوس وعينَيْها من الكراميل. في النهاية، أخبرتُ جريتل بمكان الكورونات الدنماركية وجواز السَّفَر، وشرحتُ لها بإيماءة أني سأرحل، فتوتّرتْ قليلاً، لكني قلتُ لها أن تهدأ، لأن ذاك المكان هو الدنمارك دون شكّ، وإننا قد وصلنا. أضفتُ أيضًا، رغم أنها لم تكن تفهمني، أني منذ رأيتُها تعمل كآلة في صندوق زجاجي، كانت بداخله مُعاقَبَة للأبد، لأنها كسرتْ للأبد إبريقًا من البورسلين، ربّما من البورسلين الصيني، وأنا كنتُ أعيش دون أن أعرف أني أعيش فقط، لكي أصطحبها إلى كوبنهاغن.

لم أحملْ معي إلا حقيبة يد، فيها أربعة أشياء، فيما كانت تجرّ حقيبة كبيرة، أهديتُها لها، وقعدتْ عليها حين أعطيتُها ظهري. أتذكّر أني اختبأتُ خلف أبراج اللُّعَب، حيث ثمّة جندي من الرصاص كان يقف حراسة، حتّى أتأمّل الألق الذي كان يُودِّع ذاك المكان، وحينئذ وصل إلى الفتاة الصينية والحقيبة عدوى الضوء، وكان متناقضًا، لأنه يأتي من داخل الواقع المظلم، ربّما كان الألق محض إشارة من الآلهة، بأني وصلتُ إلى قِبلتي. في المقابل، كانت جريتل قد شاهدتُ مليون مرّة ذاك المشهد الواقعي في الحِكايات الأوروبية التي كانت أمُها تُغلّفها في سنغافورة أو الصين أو ماليزيا، لا أعرف، وكانت مستمتعة بأنها قد وصلتْ في النهاية إلى داخل إحدى هذه الحكايات، حيث كان يغلي واقع، طُرِدَتْ منه هي وبنات بلدها، من دون أيّ تفسير ممكن. فكّرتُ أنها ربّما لم تكن هناك، بل كانت مخدّرة في أعماق أحد بيوت الدعارة بإحدى دول جنوب شرق آسيا، يلهث فوقها خنزير أوروبي أصلع مثلي، لكنْ، لا بدّ أن المخدّر بدأ يتفاعل، إذ من خلال إحدى فتحات الجنّة المصطنعة، تمكّنتْ من ولوج جنّة واقعية، لحكايات كانت تصنع هناك من أجل الخنازير الأوروبيّينْ الصغار.

كان من الممكن أن أتوجّه مباشرة إلى بيت أبَوَيّ، كان معي الحقّ كلّه، غير أني فضّلتُ أن أبحث عن فندق، وعثرتُ عليه بعد شارعَيْن من قصر أماليَنبيرج. كلّ شيء بداخله كان من الخشب، ومن غرفتي، كنتُ أرى ممرًا من الآجرّ الأحمر، بكمرات خشبية مُلوّنة بالأزرق. قعدتُ على حافّة السرير، وبكيتُ لبرهة، لأتحرّر من الطاقة التي راكمتْها مشاعر متعدّدة، ثمّ أخرجتُ من المحفظة بطاقة أبَوَيّ الدنماركيَّيْن، وهاتفتُهما، لأُعلمهما أني في المدينة، وأحبّ أن أقابلَهما. ردّتْ سيّدة لم تكن أمّي، وإلا لكنتُ عرفتُها في الحال، فسألتُ عنه، عن بابا، فهو مَنْ يمكنني أن أتفاهمَ معه بالإسبانية، لكن الهاتف كان يُمرَّر من واحد إلى آخر، كأن البيت مليء بأناس، لا يفهمونني، في النهاية، أغلقوا الخطّ ربمّا ظنّا أنه اتّصال خاطئ.

في استقبال الفندق، وعلى خريطة للمدينة، شرحوا لي مكان شارع أبَوَيّ، ورأيتُ أن أروح سيرًا، كان السَّيْر أفضل، إذ كنتُ أحتاج إلى التّنزّه قليلاً، لأُقلّل من توتّري، فالبكاء لا يكفي أحيانًا. ربمّا من ناحية أخرى، هكذا فكّرتُ، قد وضعتُ في هذا اللقاء آمالاً أكثر من المعقولة، فأيقظ الإخفاق في المكالمة الهاتفية شعورًا باليُتم. بدأتْ تُغيّم، رغم أن الوقت لم يتأخّر، ونسيج الضباب زاد قليلاً في هبوطه، حتّى استحال الآن سقفًا بالفعل. عبرتُ ساحة، ومشيتُ في شارع مشاة، كانت الناس تختفي منه كلّما تقدّمتُ فيه: في الواقع، كانت الناس تنسحب سريعًا جدًا، وتظلّ بداخل بيوتها حتّى طلوع النهار، لذلك لم يتبقّ أيّ سائر إلا أنا في هذا الشارع الذي كان شديد النظافة، غير أنه ضيّق بعض الشيء، ومحاط ببيوت حمراء وصفراء وبيضاء، لها نوافذ خشبية، تُشكّل رفوفًا مُطعَّمةً بزجاج مشطوف: كانت في الواقع بيوتًا من عرائس. وكان مُوتّرًا أن أسيرَ وحدي وسط شارع من اللُّعَب، وأنا أعرف أن بداخل بيوت العرائس ربمّا

تحدث حكايات القصص الفظيعة، وآخر أقلّ شجاعة منّي كان من الممكن أن يختبئ في الفندق، لكنْ، على أيّ حال، وبحسب خريطة المدينة التي ترتجف في يدي، كنتُ على بُعْد شارعَيْن من شارع أبَوَيّ الدنماركيَّيْن، وهناك سأعثر، بلا شكّ، على الحماية والسلوى.

كان ليلاً كاملاً حين وصلتُ إلى البناية، هما أيضًا كانا يعيشان في بيت من العرائس، صعدتُ سلّمًا خشبيًا للطابق الثاني، ورأيتُ باب الشّقّة مفتوحًا، مثل باب البناية، وأناسًا كثيرين، لم ينتبه منهم أحدٌ لوصولي على بسطة السّلّم. دخلتُ مُتَّبعًا رائحة مثل رائحة الموت، وفي صالة بورق حائط مرسوم، رأيتُ أبي يبكي على ذراع كرسي، بينما يُمسّد رأسَهُ شخصٌ، هو لم يرني، وبالتالي واصلتُ تتبّعي لتلك الرائحة حتّى دخلتُ ممرًا مضاء بإضاءات خافتة مثل إضاءات الدهاليز التي نصل من خلالها إلى غرفة الضمير، وكان يبدو أني أتوغّل في ذاتي أكثر ممّا أتوغّل في البيت. وفي نهاية الممرّ، كانت ثمّة غرفة مفتوحة، تستريح على سريرها جثّة صغيرة لأمّي الدنماركية، وكانت مُكفّنة على طريقة العروسة الشمالية. كنتُ قد وصلتُ متأخّرًا، كما العادة في جانب آخر، هكذا انهرتُ فوق كرسي، نهض من عليه أحد في التّوّ، وشرعتُ في البكاء وأنا أحاول ألا ألفتَ الانتباه، كنتُ أبكي، إذنْ، كبُكائي في الساونا بـ ماديرا، بينما كانت أمّي العارية تنهض لترشّ ماءً على جحيم صغير من أحجار حمراء، وأنا ألتفتُ لحلمَتَيْها اللتَيْن كانتا، في الواقع، عقدَتَيْن، لم يتمكّن أحد من فكِّهما. حين هدأتُ قليلاً، رفعتُ رأسي، لأرى عائلتي الدنماركية، وكانت تتحرّك بتحفُّظ حول الجثّة. حينئذ دخل الغرفة رجل من سنّي، واقترب منه الآخرون، وعانقوه بإيماءة تضامن، تُمنَح في هذه المواقف لمَنْ يحتكر الألم. فأدركتُ في الحال أنه ابن أبَوَيّ، البائس الذي استبدلوه بي في المحلات الكبيرة حين

كان بابا يعمل في شركة سيمينز الإسبانية، لقد نجا من الموت، فيما قد ضحّيتُ أنا بأن أكون ابن حرام، لأخدع نفس الموت بعد أن فَقَدْتُ حياتي في مراهنة، وتنازل الموت عن تحصيل دَيْنه. أو ربّما هذا ما حدث: ربّما كنتُ ميتًا في الواقع، وبجانبي موتى آخرون، إذ بالإضافة لابن الحرام، كان يرقد غير المَرئي والأحمق: كانت إبادة جماعية، بداخلي اكتملت الإبادة الجماعية، الأبطال دائمًا كانوا هكذا، يصلون إلى أهدافهم، ثمّ يفشلون بعد أن يتخطّوا تجارب مُعدّة، من أجل الجبابرة، هانيبال فَقَدَ هويّته على أبواب روما بعد أن تجاوز الصعاب كلّها، فَقَدَ عينًا في جبال البرانس.

ألقيتُ نظرة على جثّة ماما للمرّة الأخيرة، وخرجتُ من غرفة نومها، لأدخل الممرّ مرّة أخرى، فلمحتُ غرفة مواربًا بابها، وفكّرتُ أنها غرفة الابن، أقصد غرفتي، هكذا دخلتُها، وأضأتُ الضوء. كان بها ثمّة منضدة للعمل بمصباح، بدا لي غاليًا، أنا لم يكن عندي قطّ أيّ مصباح كهذا، ولا حتّى منضدة عمل، ولا لوحات على الجدران، فحيطان بيتي كانت مُقشّرة، مثل حيطان الحيّ كلّه في العموم، يا إلهي، كيف بلغتْ كراهية مَن اغتصب منّي هذه الغرفة التي بالتأكيد كنتُ سأكبر فيها سعيدًا، وكنتُ سأصل، لأكونَ شيئًا في الحياة، من دون الحاجة إلى العمل في خراء الموارد البشرية؛ بالتأكيد لم أكن لأبلغَ هذه السّنّ وأمامي جيش من رثّات الثياب، إذ إن الميت والأحمق وغير المَرئي وابن الحرام قد وصلوا إلى الدنمارك في حالة أسوأ من جيش هانيبال عند وصولهم إلى بوّابات روما، كانوا مبهدلين، بلا أدنى قوّة لفعل أيّ شيء، وإلى أين كنتُ سأذهب أنا بهذه القوّات، ربّما كان ذلك هو الواقع غير أني لم يكنْ لي مكان فيه.

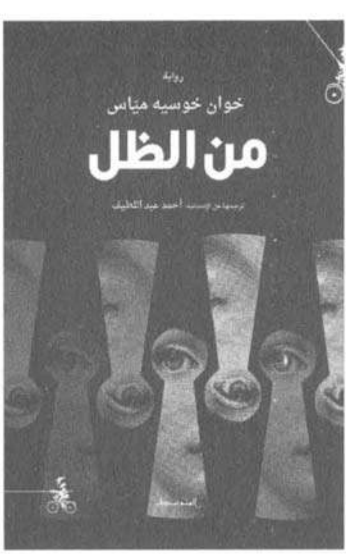
في أثناء ذلك، سمعتُ ضجيجًا، فالتفتُّ ورأيتُ أخي أمامي، لا أعرف

إن كنّا بالفعل أخَّيْن، أريد أن أقول إنه ابن أبَوَيّ، فتبادلْنا النظرات لثوانٍ، وبالاستغراب نفسه الذي نتأمّل به صورَنا ذاتها في فاترينة، من دون أن نتعرّف على أنفسنا فيها في الحال، وتحقّقتُ من أن له وجهَ مَنْ يعرف، مَنْ يعرف أنه قد فاز في المباراة. لم يكن أصلعًا، لكن وجهه كان أكثر جنوبية منّي، وكان أيضًا يساريًا ديمقراطيًا، هذا ما كان مكتوبًا في جبهته. وأنا كنتُ أكثر دنماركيةً منه بلا أدنى شكّ، غير أن البيئة تُؤثّر كثيرًا في الصفات الوظيفية، هكذا أيّ أحد يراني يمكن أن يفكّر أني إسباني. وعرفتُ أيضًا في تلك اللحظات أن هذا الرجل لم يكن ابنًا طيّبًا، وربّما قد قتل ماما بعد أن ضاق بها، حينئذ تذكّرتُ العجوز ذا القبّعة الكولونيالية، عجوز ماديرا، وكان بوسعي أن أقتل هذا الأخ غير الشقيق، أو أيًا كان هو، فليس عليّ إلا أن أُلقي بنفسي فوقه، وبمساعدة جيشي الرّثّ والمدجّج بسلاح كراهية تلك السنوات التي لم نكن نعرف فيها مَنْ نحن، أقول أُلقي بنفسي عليه، وأخنقه، ولأن حَنْجَرَة رقبته نائئة، فمن السهل قَطْمها، وبعد قَطْمها، أخرج إلى الشارع، وأعود إلى فندق اللُّعَب عبر شوارع اللُّعَب تلك، ولا أحد يمكن أن يربطني أبدًا بهذه الجريمة، وبالصدفة، كنتُ أرتدي بنطلون اليوم نفسهِ الذي ألقيتُ فيه العجوز ذا القبّعة الكولونيالية من الجرف، ولا حتّى غسلتُهُ، لأزيلَ منه بقايا بول جافّة، وجّهها صوبي قبل سقوطه. التفتَ أخي لتوتّر متراكم في نظراتي، وأعتقد أنه خاف، حينئذ عفوتُ عن حياته، فالأمر لا يستحقّ أن أقتله، إن كنتُ لن أشغلَ مكانه في قلب ماما. أنا صديق أبيكَ، اعذرني. وكان يعرف الإسبانية، لقد علّموها له، أما أنا، فلم يُعلّموني الدنماركية، كلّ ما هو سيّئ كان من نصيبي. أخرجتُ من جيبي بطاقة بابا، وأريتُها له، لأُبرّر وجودي. تعارفْنا في ماديرا. آه، في ماديرا، كرّر عبارتي، ماما كانت تحبّها جدًا، لكنْ، في الرحلة الأخيرة، حدثت كارثة، ولم يعودا إلى

هناك. عرفتُ أنه يشير إلى العجوز ذي القبّعة الكولونيالية، وأحسستُ في إيماءته بظلّ اشتباه، ربمّا حدّثه بابا عنّي، وكنتُ أنا وأخي نتشابه كثيرًا حتّى إن كلًّا منّا، بوسعه أن يقرأ أفكار الآخر، وأفكاره كانت تقول ألا يخطر لي أن أعود إلى هنا مرّة أخرى، لأنه كان يعرف مَنْ قتل العجوز ذا القبّعة الكولونيالية. الآن أتذكّر أني للحظة اشتبهتُ اشتباهًا فظيعًا: اشتباهًا في أن أبي الحقيقي كان هذا العجوز الذي ألقيتُ به إلى الفراغ، وكان اشتباهًا فظيعًا، حاولتُ أن أتخلّص منه، بينما أخرج من الغرفة، وآخذ طريق العودة في اتّجاه السّلّم، وخلفي أخي، مغتصب عرشي الدنماركي ذاك. وحين عبرنا الصالة، رأينا أبانا على الكرسي نفسه، تمُسّده اليد نفسها، لكني لم أفعل شيئًا، ليراني. وعند الباب، تواجهنا أخي وأنا من جديد، وعانقتُهُ، فعانقني رغمًا عنه، وفي نفسه أحسستُ بزفير نسل قابيل المُمزّق.

بمُجرّد أن خرجتُ إلى الشارع، وربمّا لأن الجوّ ليل والنوافذ مضاءة، تملّكني شعور مكثّف بأني بداخل تمثيل مُصوَّر حديث الدهان. مشيتُ ناحية الفندق وأنا أطرح على نفسي أسئلة جوهرية حول وجودي، لقد فَقَدْتُ كلّ شيء، الأبطال الحقيقيون يفقدون كل شيء، دائمًا. أعتقد أني تحسّرتُ لتحوُّلي إلى أوليجاريو، بمعنى آخر، بدأتُ أتحسّر عندما رأيتُ على ناصية ظلًا صغيرًا، ينبش في سلّة القمامة، قلتُ لنفسي ذلك في هذا البلد مُجرّد اختيار، ربمّا لن يكون كذلك بعد قليل، لكنه اليوم لا يزال اختيارًا، هكذا اقتربتُ لأرى وجه مَن اختار هذا الشكل من الحياة، وكانت جريتل، الفتاة الصينية، يا إلهي، إنها هي. ابتسمتْ لي، وكانت هذه المرّة الثالثة التي تبتسم، والأخيرة، وكانت ارتدتْ في التّوّ معطفًا، وكان يبدو معطف مُتسوّل، ولا أعرف أين تركت الحقيبة. ساعدتُها على اختيار الكنوز القابعة في سلّة القمامة، وكانت لُعبة أيضًا، مثل البيوت

والنافورات، وفي تلك اللحظة، عرفتُ أني بمُجرّد عودتي إلى الفندق، لأُحوِّل إلى ورق الدولة القليل الذي تبقّى من جسدي، سأرجع إليها، ونعيش معًا بلا جسد (جسدها بالتأكيد لا يزال في أحد بيوت الدعارة بماليزيا)، ولنتغذّى من سلال القمامة. وربمّا بعد ذلك كلّه نكتشف أن هذه ليست الدنمارك، وإنما سراب تخيّلناه من أثر المخدّرات التي تناولها كلّ منّا قبل الدخول في غرفة صغيرة ربمّا كنتُ أضاجعها فيها مقابل "دوروهين" بعنف شخص، لم يكن أحدًا، وينزل إلى الحيّ الصيني من آنٍ لآخر، ليحصل على جرعة من الواقع.

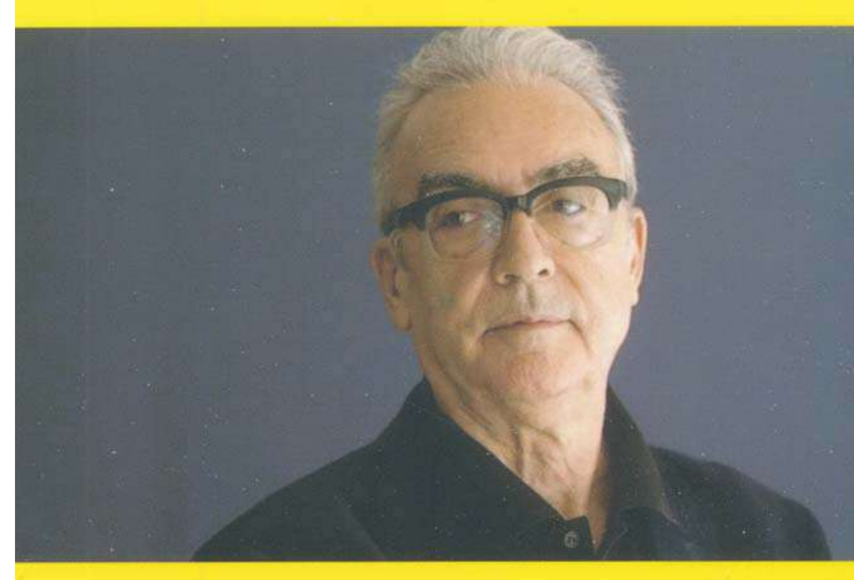


اقرأ أيضاً للكاتب عن المتوسط رواية:

من الظل

بصدفة غريبة يتحول العالم لأمتار قليلة يسكنها البطل داخل خزانة ملابس، ومن هذا المكان الغريب يراقب عائلة غريبة. ومن هذا المكان يستحضر عالمه الخاص ويتعرف على العالم الخارجي الجديد عبر الاستماع. كلّ ما هو يومي ومعتاد يكتسب أهمية قصوى، كل التفاصيل الصغيرة ليست إلا تمثيلات للعالم الكبير. ومن الظل، من مكانه في الظل، يطرح البطل أسئلته الوجودية حول الاحتجاب، ويمر بتجربة صوفية لا مثيل لها. ومن هذا المكان الضيق يقدم مفهومًا أوسع للعالم، عبر تكنيك سردي مبتكر، ولغة شفافة كالماء.





خوان خوسيه مياس: (بالينثيا/ إسبانيا- ١٩٤٦) أحد أشهر الأصوات السَّرْدية في اللغة الإسبانية، حيث يُعدّ أبرز الكُتّاب الذين أعادوا المجدَ للخيال في الرواية الإسبانية، وأحد مُنقذيها من فخّ الكتابة المباشرة عن الحرب الأهلية، والتّورّط التامّ في الواقع، إذ خَلَقَ بعوالمه الأصيلة قدراتٍ فنّيّةً لتناوُل الواقع، هادمًا هذا الجدار الوَهْمي بين الواقع والخيال، ومُتوغّلًا في الذات الإنسانية لأكثر درجاتها عُمقًا.

لمياس الكثير من الروايات والمجموعات القصصية، وتُرجمت أعماله لأكثر من عشرين لغة.

المتوسط

كلّ شيء يبدأ يوم إقالة «خيسوس»، من منصب رفيع بشركة حكومية، حيث يقرر أن يعيد تشكيل حياته متكئًا على خياله كحجر زاوية. يكتشف حينها أنه عاش حياة مزيفة، بشخصية ليست شخصيته، فيبدأ بالتخلي عن كل ما هو مزيف ليصل إلى حقيقته. ومن خلال شارب مستعار ستتم عملية التحول والانتقال إلى الطرف الآخر، الطرف النقيض، أو الطرف الحقيقي في داخله. وأثناء هذا التحول ستنصهر المشاهد العبثية مع السوريالية والواقعية لتشكّل لوحة تتداخل ألوانها بشدة ولكنها شديدة التنسيق أيضاً، لوحة تحمل الكثير من التأويلات. تأويلاتنا نحن، بكل ما فينا من تعقيدات وشوارع مظلمة.

إنها لعبة مثيرة من اللقاءات وقطع العلاقات، من الحب والعزلة، من الحياة والموت. «أحمق وميت» بالإضافة لكونها رواية هي قراءة شديدة العمق في النفس الإنسانية، وهي نقد اجتماعي لإنسان اليوم، عبر لغة لامعة وحادة مثل نصل سكين، وعبر عالم سردي فريد ومتفرد، عالم ميّاسي يحدث فيه أن يجمع شتات أفكار العالم ويربط بعضها ببعض، لنصل، في نهاية المطاف، إلى زاوية رؤية نادرًا ما تخطر لنا.

منشورات المتوسط

«رواية مؤرقة وحديثة بشكل لافت»

رودريجيث فيشر، جريدة «البابيس»

«ميّاس المبهر، الرواية المبهرة»

(جريدة إنفمينينو)





ISBN 978-88-85771-59-8
9 788885 771598

المتوسط